

x 53

-Sa'di
(Taysir al-latîf al-mannân
fî khulâsat tafsîr al-Qur'ân)

[illegible]



الملاح محمد محمود السيو
مع الخيرة

نيسب اللطيف المتان

محمد بهجة البوط

في خلاصة تفسير القرآن

al-Sa'di, 'Abd al-Rahmān ibn Nāsir.

تأليف علامة القصيم

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

بارك الله في عمله النافع

طبع على نفقة المؤلف وجماعته من المحسنين

حقوق الطبع محفوظة

١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م

(RECAP)

BP130

.2

.x53

مصنفات المؤلف

- (١) تفسير القرآن الكريم المسمى « تيسير الكريم المنان » في ثمانى مجلدات أكله في عام ١٣٤٤ ولم يطبع .
- (٢) حاشية على الفقه استدراكا على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلى . ولم تطبع
- (٣) ارشاد أولى البصائر والألالب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب ، رتبه على السؤال والجواب ، طبع بمطبعة الترقى في دمشق عام ١٣٦٥ على نفقة المؤلف ووزعه مجاناً
- (٤) الدرة المختصرة في محاسن الاسلام . طبع في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦
- (٥) الخطب العصرية القيمة ، لما آل اليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر في المواضيع المهمة التى يحتاج الناس اليها ، ثم جمعها وطبعها مع الدرة المختصرة في مطبعة أنصار السنة على نفقته ووزعها مجاناً
- (٦) القواعد الحسان لتفسير القرآن . طبعها في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦
- (٧) تنزيه الدين وجملته ورجاله ، مما افتراه القصيمي في أغلاله ، طبع في مطبعة دار احياء الكتب العربية على نفقة وجيه الحجاز « الشيخ محمد افندى نصيف » عام ١٣٦٦
- (٨) الحق الواضح المبين ، في شرح توحيد الانبياء والمرسلين
- (٩) توضيح الكافية الشافية . وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم
- (١٠) وجوب التعاون بين المسلمين . وموضوع الجهاد الدينى ، وهذه الثلاثة الاخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزعها مجاناً
- (١١) القول السديد في مقاصد التوحيد ، طبع في مصر « بمطبعة الامام » على نفقة عبد المحسن أبابطين عام ١٣٦٧ (١٢) مختصر في أصول الفقه ، لم يطبع
- (١٣) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ، وهو هذا الكتاب وله فوائد منشورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد اليه من بلده وغيره ويجب عليه .
- وله تعليقات شتى على كثير مما يمر عليه من الكتب . وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً ، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً ، وما كتب نظم ابن عبد القوى المشهور وأراد أن يشرحه شرحاً مستقلاً فرآه شاقاً عليه ، فجمع بينه وبين الانصاف بخط يده ليساعد على فهمه فكان كالشرح له ، ولهذا لم نعهده من مصنفاته .
- وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق ، ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته ، لا لينال منها عرضاً زائلاً ، أو يستفيد منها عرض الدنيا ، بل يوزعها مجاناً ليعم النفع بها . فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيراً . ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فقد كنت كتبت كتاباً في تفسير القرآن مبسوطاً مطولاً يمنع القراء من الاستمرار بقراءته ، ويفتر العزم عن نشره ، فأشار عليّ بعض العارفين الناصحين أن أكتب كتاباً غير مطول يحتوي على خلاصة ذلك التفسير ، ونقتصر فيه على الكلام على بعض الآيات التي نختارها وننتقيها من جميع مواضيع علوم القرآن ومقاصده ، فاستعنت الله على العمل على هذا الرأي الميمون لأمور كثيرة : منها أنه بذلك يكون متيسراً على المشتغلين ، معيناً للقارئ ، ومنها أن القرآن العظيم ليس كثيره من الكتب في الترتيب والتبويب ، لأنه بلغ في البلاغة نهايتها ، وفي الحسن غايته ، وفي الأسلوب البديع ، والتأثير العجيب ما هو أكبر الأدلة على أنه كلام الله وتنزيل من حكيم حميد . فتجده في آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد ، وبين الدليل والمدلول ، وبين الترغيب والترهيب وبين العلوم الأصولية والفروعية ، وبين العلوم الدينية والدنيوية والآخرية ، وبين الأغراض المتعددة والمقاصد النافعة ، ويعيد المعاني النافعة على العباد ، ليتم علمهم ، وتكمل هدايتهم ، ويستقيم سيرهم على الصراط المستقيم ، علماً وعملاً .

فالوقوف على تفسير بعض القرآن يعين أعظم عون على معرفة باقيه ، والله جعله مثافئ ثنفي فيه العلوم النافعة ، والمعاني الجليلة الكاملة ، وهذا من تيسيره تعالى لكتابته ، قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟)

ومما يدعو إلى هذا ما تحتوى عليه هذه المقدمة المذكورة بقولنا .

مقدمة

« في ذكر أوصاف القرآن العامة الجامعة »

قد وصف الله كتابه بأوصاف جليلة عظيمة تنطبق على جميعه ، وتدل أكبر دلالة على أنه الأصل والاساس لجميع العلوم النافعة ، والفنون المرشدة لخير الدنيا والآخرة وصفه بالهدى والرشد ، والفرقان ، وأنه مبين وتبيان لكل شيء ، فهو في نفسه هدى ، ويهdy الخلق لجميع ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم ، ويرشدهم إلى كل طريق نافع ، ويفرق لهم بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وبين أهل السعادة والشقاوة بذكر أوصاف الفريقين ، وفيه

بيان الأصول والفروع بذكر أدلتها النقلية والعقلية ، فوصفه بهذه الأوصاف المطلقة العامة التي لا يشذ عنها شيء في آيات كثيرة .

وقيد هدايته في بعض الآيات بعدة قيود : قيد هدايته بأنه هدى للمؤمنين ، المتقين ، لقوم يعقلون ، ويتفكرون ، ولمن قصده الحق . وهذا بيان منه تعالى لشرط هدايته ، وهو أن المحل لا بد أن يكون قابلاً وعاملاً ، فلا بد لهدايته من عقل وتفكير وتدبر لآياته ، فالمعرض الذي لا يتفكر ولا يتدبر آياته لا ينتفع به ، ومن ليس قصده الحق ولا غرض له في الرشاد ، بل قصده فاسد وقد وطن نفسه على مقاومته ومعارضته ، ليس له من هدايته نصيب ، فالأول حرم هدايته لفقد الشرط والثاني لوجود المانع ، فأما من أقبل عليه وتفكر في معانيه وتدبرها بحسن فهم ، وحسن قصد ، وسلم من الهوى ، فانه يهتدى به إلى كل مطلوب ، وينال به كل غاية جليلة ومرغوبة

ووصفه بأنه رحمة ، وهي الخير الديني والدنيوي والأخروي المترتب على الاهتداء بالقرآن ، فكل من كان أعظم اهتداء به فله من الرحمة والخير والسعادة والفلاح بحسب ذلك

ووصفه بأنه نور ، وذلك لبيانه وتوضيحه العلوم النافعة ، والمعاني الكاملة ، وأن به يخرج العبد من جميع الظلمات : ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والشقاء ، إلى نور العلم واليقين والایمان والطاعة والرشاد المتنوع .

ووصفه بأنه شفاء لما في الصدور ، وذلك يشمل جميع أمراض القلوب ، فهو يوضح أمراض القلوب ويشخصها ، ويرشد العباد إلى كل وسيلة يحصل بها زوالها وشفائها ، فيذكر لهم أمراض الجهل والشكوك والخيرة وأسباب ذلك ، ويرشدهم إلى قلدها بالعلوم النافعة واليقين الصادق ، وسلوك الطرق الصحيحة المزيلة لهذه العلل ، ويذكر لهم أمراض الشهوات والنهي ، ويبين لهم أسبابها وعلاماتها وآثارها الضارة ، ويذكر لهم ما به تعالج من المواعظ والتذكير والترغيب والترهيب ، والمقابلة بين الأمور وترجيح ما ترجحت مصلحته العاجلة والآجلة

ووصفه بأنه كله محكم ، وكله متشابه في الحسن ، وبعضه متشابه من وجه ، محكم من وجه آخر فأما وصفه في عدة آيات أنه كله محكم ، فلبلاغته وبيانه التام واشتماله على غاية الحكمة في تنزيل الأمور منازلها ، ووضعها مواضعها ، وأنه متفق غير مختلف ، ليس فيه اختلاف ولا تناقض بوجه من الوجوه ؛ وأما حسنه فلما فيه من البيان التام لجميع الحقائق ، ولأنه بين أحسن المعاني النافعة في العقائد والأخلاق والآداب والأعمال ، فهي في غاية الحسن لفظاً ومعنى ، وآثارها أحسن الآثار ، وكل هذه المعاني المثناة في القرآن يشهد بعضها لبعض في الحسن والكمال ، ويصدق بعضها بعضاً . وأما وصفه بأن منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فالمتشابهات هي التي يقع الاشكال في دلالتها لسبب من الأسباب اللفظية والعبارات المركبة ، فأمر الله بردها إلى

المحكّمات الواضحة بينة المعاني التي هي نص في المراد ، فاذا ردتّ المتشابهات إلى المحكّمات صارت كلها محكّمات ، وزال الشك والاشكال ؛ وحصل البيان للهدى من الضلال .

ووصفه بأنه كله صلاح ويهّدي إلى الاصلاح ، وإلى أقوم الأمور وأرشدّها وأنفعها في كل شيء من دون استثناء . وهذا الوصف المحيط لا يخرج عنه شيء ، فهو اصلاح للعقائد والقلوب ، وللأخلاق والأعمال ، ويهّدي إلى كل صلاح ديني ودنيوي بحيث تقوم به الأمور ، وتعتدل به الأحوال ، ويحصل به الكمال المتنوع من كل وجه بالارشاد إلى كل وسيلة نافعة تؤدي إلى المقاصد والغايات المطلوبة ، فلا سبيل إلى الهداية والصلاح والاصلاح لجميع الأمور إلا بسلك الطرق التي أرشد إليها القرآن ، وحث العباد عليها .

فمتى عرفت أن القرآن العظيم موصوف كله بهذه الأوصاف التي هي أعلى الاوصاف وأكملها وأتمها وأنفعها للعباد ، وأنه أعيدت فيه هذه المعاني الجليلة ومزجت فيه مزجاً عجيباً غريباً في كماله وحسنه ، فهمت أن طالب العلم إذا وقف على تفسير بعض الآيات تدرب بها وتوسل بها إلى معرفة بقية الآيات .

لهذه الأسباب وغيرها رأينا أن المصلحة تدعو إلى الاختصار على خلاصة ذلك التفسير ؛ راجين من الرب أن يتم نعمته وأن يحصل به المقصود ؛ ورأينا أن الأحسن أن نذكر كل موضوع على حدته لما فيه من التقريب والسهولة وجمع المعاني التي من فن واحد في موضع واحد ، مع أنه كما تقدم لا بد أن يدخل في آيات الأصول كثير من الفروع ؛ وفي آيات الفروع كثير من الأصول ، ويدخل فيها من الترغيب والترهيب والقصص شيء كثير ، وهذا المزج العجيب من كمال القرآن وعظم تأثيره فانه كتاب تعليم يزيل الجهالات المتنوعة ، وكتاب تربية يقوم الاخلاق والأعمال ، فهو يعلم ويقوم ويهذب ويؤدب بأعلى ما يكون من الطرق التي لا يمكن الحكماء والعقلاء أن يقترحوا مثلها ولا ما يقاربها .

علوم التوحيد والعقائد والأصول

١- بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .
أى أبتدىء بكل اسم لله تعالى ، لأن لفظ « اسم » مفرد مضاف فيعم جميع أسماء الله الحسنى فيكون العبد مستمعيناً بربه وبكل اسم من أسمائه على ما يناسبه من المطالب ، وأجلّ ما يستعان به على عبادة الله ، وأجلّ ذلك الاستعانة على قراءة كلام الله ، وتفهم معانيه ، والاهتداء بهديه « الله » هو المألوه المستحق لافراده بالحجة والخوف والرجاء وأنواع العبادة كلها لما اتصف به

من صفات الكمال ، وهى التى تدعو الخلق إلى عبادته والتأله له (الرحمن الرحيم) إيمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التى وسعت كل شىء ، وعمت كل مخلوق ، وكتب الرحمة الكاملة للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله ؛ فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية ، ومن عداهم محروم من هذه الرحمة الكاملة ، لأنه الذى دفع هذه الرحمة وأبأها بتكذيبه للخبر ، وتوليه عن الأمر ، فلا يلومن إلا نفسه .

واعلم ان من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة من الايمان بأسماء الله كلها ، وصفاته جميعها ، وبأحكام تلك الصفات ، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة العظيمة التى اتصف بها المتعلقة بالرحوم ؛ فالنعم كلها من آثار رحمته ، وهكذا يقال فى سائر الأسماء الحسنى ؛ فيقال عليم : ذو علم عظيم يعلم به كل شىء ، قدير ذو قدرة يتدر على كل شىء ، فان الله قد أثبت لنفسه الاسماء الحسنى ، والصفات العليا ، وأحكام تلك الصفات ، فمن أثبت شيئاً منها ونفى الآخر ؛ كان مع مخالفته للنقل والعقل متناقضاً مبطلاً .

« الحمد لله » الحمد هو الثناء على الله بصفات الكمال وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل المشتملة على الحكمة التامة ؛ ولا بد فى تمام حمد الحامد من اقتران محبة الحامد لربه وخضوعه له ، فالثناء المجرد من محبة وخضوع ليس حمداً كاملاً .

« رب العالمين » الرب هو المربى جميع العالمين بكل أنواع التربية ، فهو الذى خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ، وهذه التربية العامة لجميع الخلق ، برّهم وفاجرهم ، بل المكلفون منهم وغيرهم ، وأما التربية الخاصة لأنبيائه وأوليائه ، فانه مع ذلك يربى إيمانهم فيكملهم لهم « ويدفع عنهم الصوارف والعوائق التى تحول بينهم وبين صلاحهم وسعادتهم الأبدية ، وتيسيرهم ليسرى وحفظهم من جميع المكاره ، وكما دل ذلك على انفراد الرب بالخلق والتدبير والهداية ، وكال الغنى ، فانه يدل على تمام فقر العالمين اليه بكل وجه واعتبار ، فيسأله من فى السموات والأرض بلسان المقال والحال جميع حاجاتهم ويفزعون اليه فى مهماتهم

« مالك يوم الدين » المالك هو من اتصف بالصفات العظيمة الكاملة التى يتحقق بها الملك التى من آثارها أنه ، يأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، ويتصرف فى العالم العلوى والسفلى التصرف التام المطلق بالأحكام القدريّة والأحكام الشرعية ، وأحكام الجزاء ، فلهذا أضاف ملكه ليوم الدين مع أنه المالك المطلق فى الدنيا والآخرة ، فانه يوم القيامة الذى يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيرها وشرها ، ويرتب عليها جزاءها ، وتشاهد الخليقة من آثار ملكه وعظمته وسعته ، وخضوع الخلائق كلهم لعظمته وكبريائه ، واستواء الخلق فى ذلك اليوم على اختلاف طبقاتهم فى نفوذ أحكامه عليهم ما يعرفون به كمال ملكه وعظمة سلطانه

« إياك نعبد وإياك نستعين » أى نخصك يا ربنا وحدك بالعبادة والاستعانة فلا نعبد غيرك ؛ ولا نستعين بسواك ، فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة ، فهى القيام بمقائد الايمان وأخلاقه وأعماله محبة لله وخضوعاً له ، والاستعانة هى الاعتماد على الله فى جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به فى حصول ذلك ، وهذا التزام من العبد بعبودية ربه ، وطلب من ربه أن يعينه على القيام بذلك ، وبذلك يتوسل إلى السعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور ، فلا سبيل لذلك إلا بالقيام بعبادة الله والاستعانة به ، وعلم بذلك شدة افتقار العبد لعبادة الله والاستعانة به .

« اهدنا الصراط المستقيم » أى دلنا وارشدنا ووقفنا للعلم بالحق والعمل به ، الذى هو الصراط المستقيم المعتدل الموصل إلى الله وإلى جنته وكرامته ، وهذا يشمل الهداية إلى الصراط ، وهى التوفيق للزوم دين الاسلام ، وترك ما سواه من الأديان الباطلة ، ويشمل الهداية فى الصراط وقت سلوكه علماً وعملاً ؛ فهذا الدعاء من أجمع الادعية وأنفعها للعبد ، ولهذا أوجبه الله ويسره ، وهذا الصراط هو طريق و«صراط الذين أنعمت عليهم» بالنعمة التامة المتصلة بالسعادة الأبدية ، وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون « غير المنضوب عليهم » وهم الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم « ولا الضالين » الذين ضلوا عن الحق كالنصارى ونحوهم .

فهذه السورة على إيجازها قد جمعت علوماً جمة تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية يؤخذ من قوله ، رب العالمين ، وتوحيد الألوهية من قوله ، إياك نعبد وإياك نستعين ، فهو المألوه بعبادته والاستعانة به .

وتوحيد الاسماء والصفات بأن يثبت لله صفات الكمال كلها التى أئتمتها لنفسه وأئتمت له رسوله ﷺ . وقد دل على ذلك إثبات الحمد لله ؛ فان الاسماء الحسنى والصفات العليا ، وأحكامها كلها محامد ومدائح لله تعالى ، وتضمنت اثبات الرسالة فى قوله : اهدنا الصراط المستقيم . لأنه الطريق الذى عليه النبى ﷺ . وذلك فرع عن الايمان بنبوته ورسالته ، وتضمنت اثبات الجزاء وانه بالعدل ، وذلك مأخوذ من قوله : مالك يوم الدين .

وتضمنت اثبات مذهب أهل السنة والجماعة فى القدر ، وأن جميع الاشياء بقضاء الله وقدره وأن العبد فاعل حقيقة ليس مجبوراً على أفعاله . وهذا يفهم من قوله : إياك نعبد وإياك نستعين . فلولاً أن مشيئة العبد مضطر فيها إلى اعانة ربه وتوقيفه لم يسأل الاستعانة ، وتضمنت أصل الخير ومادته ، وهو الاخلاص الكامل لله فى قول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين .

ولما كانت هذه السورة بهذه العظمة والجلالة أوجبها الشارع على المكلفين فى كل ركعة من صلاتهم فرضاً ونفلاً ، وفيها تعليم من الله لعباده كيف يحمده ويثنون عليه ويمجدونه بحمده

ثم يسألون ربهم جميع مطالبهم ، ففيها دليل على افتقارهم إلى ربهم في الأمور ، مفتقرين إليه في أن يملأ قلوبهم من محبته ومعرفته ، ومفتقرين إليه في أن يقوم بمصالحهم ويوفقهم لخدمته ، والحمد لله رب العالمين . .

٢ - قولوا آمنا بالله وما أنزل اليينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .

هذه الآية الكريمة لها شأن كبير ، كان عليه الصلاة والسلام يقرؤها كثيراً في الركعة الأولى من سنة الصبح ، وقد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به ، فإن الإيمان الشرعى هو تصديق القلب التام وإقراره بهذه الأصول المتضمن لأعمال الجوارح ولأعمال القلوب ، وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها ، فهي إيمان ، وهى من آثار الإيمان . فإذا أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر ، وكذلك إذا أطلق الإسلام فإنه يدخل فيه الإيمان ، فإذا قرن بين الإسلام والإيمان ، فسر الإيمان بما فى القلب من العقائد الصحيحة والارادات الصالحة ، وفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة .

وكذلك إذا جمع بين الإيمان والعمل الصالح ، الإيمان لما فى الباطن ، والعمل الصالح هو الظاهر ومع إطلاق الإيمان يدخل فيه العمل الصالح ، كما فى كثير من الآيات ، فقوله تعالى (قولوا آمنا بالله) إلخ . أى قولوا ذلك بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم ، وهذا هو القول التام الذى يترتب عليه الثواب والجزاء ، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب ليس بإيمان ، بل هو نفاق ، فكذلك القول الخالى من عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة ، وفى قوله « قولوا » إشارة إلى الاعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها ، إذ هى أصل الدين وأساسه ، وفى مثل قوله : آمنا . وما أشبهها من الآيات التى يضاف الفعل فيها إلى ضمير الجمع إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعاً والحث على الائتلاف والنهى عن الافتراق ، وأن المؤمنين كالجسد الواحد عليهم السعى لمصالحهم كلها جميعاً والتناصح التام ، وفيه دلالة على جواز اضافة الانسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد بأن يقول أنا مؤمن بالله ، كما يقول آمنت بالله ، بل هذا الأخير من أوجب الواجبات ، كما أمر الله به أمراً حتماً بخلاف قول العبد : أنا مؤمن ونحوه ، فإنه لا يقال إلا مقروناً بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس لأن الإيمان المطلق يشمل القيام بالواجبات وترك المحرمات ، فهو كقوله أنا متقى أو ولى أو من أهل الجنة ، وهذا التفريق هو مذهب محقق أهل السنة والجماعة .

فقوله (آمنا بالله) أى بأنه واجب الوجود ، واحد أحد فرد صمد متصف بكل صفة كمال ، منزّه عن كل نقص مستحق لافراذه بالعبودية كلها ، وهو يتضمن الاخلاص التام « وما أنزل اليينا »

يدخل فيه الايمان بألفاظ الكتاب والسنة ومعانيهما ، كما قال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) فيدخل في هذا الايمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله من أسماء الله وصفاته وأفعاله وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب كلها والايمان بما تضمنه الكتاب والسنة أيضاً من الأحكام الشرعية الأمر والنهي وأحكام الجزاء وغير ذلك ، (وما أنزل إلى ابراهيم) إلخ . فيه الايمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء والايمان بالأنبياء عموماً ، وخصوصاً ما نص عليهم منهم في الآية الكريمة وغيرها لشرفهم ولكونهم أتوا بالشرائع الكبار ، فنبراهين الاسلام ومحاسنه ، وأنه دين الله الحق : الأمر بالايمان بكل كتاب أنزله الله وكل رسول أرسله الله مجبلاً ومفضلاً ، فكل من ادعى أنه على دين حق كاليهود والنصارى ونحوهم فانهم يتناقضون فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، فيبطل كفرهم وتكذيبهم تصديقهم ، ولهذا أخبر عنهم أنهم الكافرون حقاً ، وأنه لا سبيل يسلك إلى الله إلا سبيل الايمان بجميع الرسل وبجميع الكتب المنزلة على الرسل ، وفي قوله (وما أتى النبيون من ربهم) برهان على أن الأنبياء وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه ، وأنه ليس لهم من الأمر شيء ، وفي الإخبار بأنه من ربهم ، بيان أن من كمال ربوبيته لعباده التريية التامة أنه أرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعلمهم ويزكؤهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأنه لا يليق بربوبيته وحكمته أن يتركهم سدى لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا يثابون ولا يعاقبون .

ويفهم من الآية الكريمة الفرق بين الأنبياء الصادقين ، وبين من يدعى النبوة من الكاذبين فان الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً ، ويشهد بعضهم لبعض ، ويكون كل ما جاءوا به متفقاً لا يتناقض لأنه من عند الله محكم منتظم ، وأما الكذبة فانهم لا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم ويعلم كذبهم بمخالفته لما يدعو اليه الأنبياء الصادقون .

فلما بين تعالى جميع ما يجب الايمان به ، عموماً وخصوصاً ، وكان القول لا يغني عن العمل ، قال : ونحن له مسلمون . أي خاضعون لعظمته منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا ، مخلصون له بذلك فان تقديم المعمول على العامل يدل على الحصر ، فهذه الاصول المذكورة في هذه الآية قد أمر الله بها في كتابه في عدة آيات من القرآن اجمالاً وتفصيلاً ، وأثنى على القائمين بها ، وأخبر بما يترتب عليها من الخير والثواب ، وأنها تكمل العبد وترقيه في عقائده وأخلاقه وآدابه ، وتجعله عدلاً معتبراً في معاملاته ، وتوجب له خير الدنيا والآخرة ، ويحيا بها الحياة الطيبة في الدارين ، وتجلب له السعادات ، وتدفع عنه شرور الدنيا والآخرة . وقد أخبر في هذه السورة أن الرسول والمؤمنين قاموا بهذه الأصول علماً وتصديقاً وإقراراً وعملاً ودعوة وهداية وإرشاداً ، فكُتِبَ أهل العلم المصنفة في العقائد كلها تفصيلاً لما في هذه الآية الكريمة .

٣ - الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم .

قد أخبر النبى ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن على الإطلاق ، وأنها تحفظ قارئها من الشياطين والشُرور كلها ، لما احتوت عليه من معانى التوحيد والعظمة وسعة صفات الكمال لله تعالى فأخبر أنه الله الذى له جميع معانى الألوهية ، وأنه لا يستحق الألوهية غيره ، فالوهية غيره وعبادة غيره باطلة ضارة فى الحال والمآل ، وعبادته وحده لا شريك له هى الحق الموصلة إلى كل كمال ، وأنه الحى كامل الحياة ، فمن كمال حياته أنه السميع البصير القدير المحيط بعلمه بكل شئ ، الكامل من كل وجه ، فالحى يتضمن جميع الصفات الذاتية ، والقيوم الذى قام بنفسه واستغنى عن جميع الخلوقات وقام بها فأوجدوها وأبقاها وأمدّها بكل ما تحتاج اليه فى بقائها ، فالتقوى يتضمن جميع صفات الأفعال ، ولهذا ورد أن اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) فإن هذين الاسمين الكريمين يدخل فيها جميع الكمالات الذاتية والفعلية ، ومن كمال حياته وقيوميته أنه لا تأخذه سنة أى نعاس ، ولا نوم ، لأنهما إنما يعرضان للمخلوق الذى يعترية الضعف والعجز والانحلال ، وينزه عنهما ذو العظمة والكبرياء والجلال .

وأخبر أنه مالك لجميع ما فى السموات وما فى الأرض ، فكلمهم عبادة وممالئكة لا يخرج أحد منهم عن هذا الوصف اللازم ، فهو المالك لجميع الممالك ، وهو الذى اتصف بصفات الملك الكامل والتصرف التام النافذ ، والسلطان والكبرياء .

ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، فكل الوجهاء والشفعاء عبدة له ، ممالئكة لا يقدمون على الشفاعة لأحد حتى يأذن لهم (قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض) ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله ، ولا يرضى إلا عن قام بتوحيده واتباع رسله ، فمن لم يتصف بهذا فليس له فى الشفاعة نصيب ، وأسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه . ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط ، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلية التى لانهاية لها « وما خلفهم » من الأمور الماضية التى لا حد لها ، وأنه لا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ، وأن الخلق لا يحيط أحد منهم بشئ من علم الله ولا معلوماته إلا بما شاء منهما وهو ما اطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية ، وهو جزء يسير جداً بالنسبة إلى علم البارى تضمحل العلوم كلها فى علم البارى ومعلوماته ، كما قال أعلم الخلوقات وهم الرسل والملائكة « سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا »

ثم أخبر عن عظمته وجلاله ، وأن كرسيه وسع السموات والأرض ، وأنه قد حفظهما بما فيهما من العوالم ، بالأسباب والنظامات التي جعلها الله في مخلوقاته ومع ذلك فلا يؤوده ، أى يشق له حفظهما لسكال عظمته وقوة اقتداره وسعة حكمته في أحكامه ، وهو العلى ، بذاته على جميع مخلوقاته ، فهو الرفيع الذى باين جميع مخلوقاته ؛ وهو العلى بعظمة صفاته الذى له كل صفة كمال ، ومن تلك الصفات أكملها ومنهاتها ، وهو العلى الذى قهر جميع المخلوقات ، ودانت له كل الموجودات ، وخضعت له الصعاب وذلت له الرقاب «العظيم» الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد ، الذى تحبه القلوب وتعظمه الأرواح ، ويعرف العارفون أن عظمة كل موجود وإن جلت عن الصفة ، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلى العظيم ، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام .

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني وأفرضها على العباد ؛ يحق أن تكون أعظم آيات القرآن ، ويحق لمن قرأها متديراً متفهما أن يمتلى قلبه من اليقين والعرفان والإيمان ، وأن يكون بذلك محفوظاً من شرور الشيطان ، وقد نعت البارئ نفسه الكريمة بهذه الأوصاف في عدة آيات من كتابه :

٤ — شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ؛ لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

هذه أجل الشهادات على الإطلاق ؛ فإنها صدرت من الملك العظيم ، ومن ملائكته وأنبيائه وأهل العلم على أجل مشهود عليه ؛ وهو توحيد الله وقيامه بالقسط ، وذلك يتضمن الشهادة على جميع أحكام الشرع وأحكام الجزاء ؛ فإن الدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبادة ، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والجلال ، وبنعوت الجود والبر والرحمة والاحسان والجمال ، وبكائه المطلق الذى لا يحصى أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه أو يبلغوه أو يصلوا إلى الثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه عباده .

وأما القسط فهو العدل الكامل والله تعالى هو القائم بالعدل في شرعه وخلقه وجزائه ؛ فإن العبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها ، والأمر والنهي كله عدل وقسط ، لا ظلم فيه بوجه من الوجوه ، بل هو في غاية الأحكام والانتظام ، وفي غاية الحكمة والجزاء على الأعمال ، كله دائر بين فضل الله وإحسانه على الموحدين المؤمنين به ، وبين عدله في عقوبة الكافرين والعاصين ، فانه لم يهضمهم شيئاً من حسناتهم ، ولم يعذبهم بغير ما كسبوا « ولا تز وازرة وزر اخرى » قال تعالى : « قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قل الله »

فتوحيد الله ودينه قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه ، وهو أعظم الحقائق وأوضحها ، وقد شهد الله

له بذلك بما أقام من الآيات والبراهين والحجج المتنوعة عليه ، ومن شهادته تعالى أنه أقام أهل العلم العارفين بهذه الشهادة ، فانهم المرجع للعباد في تحقيق كل حق وإبطال كل باطل ، لما خصهم الله به من العلم الصحيح واليقين التام والمعرفة الراسخة .

وهذا من جملة فضائل العلم وأهله ، فان الله جعلهم وسائط بينه وبين عبادهم يبلغونهم توحيدهم ودينهم وشرائعهم الظاهرة والباطنة ، وأمر الناس بسؤالهم والرجوع إلى قولهم ، وانهم هم الأئمة المتبوعون ، وغيرهم تابع لهم في الدنيا والآخرة . ولهذا لهم الكلمة الرفيعة حتى في الآخرة ، لما ذكر تعالى اختصاص الخلق واختلافهم ، ذكر القول الفصل في ذلك الصادر من أهل العلم (وقال الذين أوتوا العلم والايمن لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون)

وفي هذا دليل على كمال عدل أهل العلم ؛ فان الله استشهد بهم على عبادهم ، وذلك تعديل منه لهم ، وفي هذا من الشرف وعلو المكانة مالا يخفى .

٥ - فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، والله يعلم متقلبكم ومثواكم

العلم لا بد فيه من اقرار القلب ، ومعرفة بمعنى ما طلب منه علمه ، ولا يتم ذلك إلا بالعمل بمقتضى ذلك العلم في كل مقام بحسبه ؛ وهذا العلم الذي أمر الله به فرض عين على كل انسان لا يسقط عن أحد ، كائناً من كان .

والضرورة إلى هذا العلم والعمل بمقتضاه من تمام التأله فوق كل ضرورة ، والعلم بالشئ يتوقف على معرفة الطريق المفضى إلى معرفته وسلوكها ، والطريق إلى العلم بأنه (لا إله إلا هو) على وجه الاجمال والعموم أمور :

أحدها : وهو أعظمها وأوضحها وأقواها تدبر أسماء الله وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله ؛ فان معرفتها توجب العلم بأنه لا يستحق الألوهية سواه ، وتوجب بذل الجهد في التأله والتعبد لله الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال .

الثاني : العلم بأنه الرب المنفرد بالخلق والرزق والتدبير ، فبذلك يعلم أنه المنفرد بالألوهية الثالث : العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية ، فان ذلك يوجب تعلق القلب به محبة وإناة ، والتأله له وحده لا شريك له .

الرابع : ما يراه العباد ويسمعونه من الثواب لأولياءه القائمين بتوحيده من النصر لرسله وأتباعهم ، ومن النعم العاجلة المشاهدة ، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به ، فان هذا برهان على أنه وحده المستحق للألوهية .

الخامس : معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبِدَت مع الله واتخذت آلهة وأنها فقيرة إلى الله من كل وجه ، ناقصة من كل وجه ، لا تملك لنفسها ولا لمن عبدها نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فالعلم بذلك يعلم به بطلان إلهيتها ، وأن ما يدعون من دون الله هو الباطل وأن الله هو الاله الحق المبين .

السادس : اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه .

السابع : اتفاق الأنبياء والرسل والعلماء الربانيين على ذلك وشهادتهم به ، وهم خواص الخلق وأكملهم أخلاقا وعقولا وعلماء وقيمين .

الثامن : ما أقامه الله من الأدلة والآيات الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة وأوضحها وتنادى عليه بلسان المقال ولسان الحال بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه التاسع : ما أودعه الله في شرعه من الآيات المحكمة والأحكام الحسنة والحقوق العادلة والخير الكثير وجلب المنافع كلها ودفع المضار ، ومن الاحسان المتنوع ، وذلك يدل أكبر دلالة أنه الله الذي لا يستحق العبادة سواه . وأن شريعته التي نزلت على السنة رسله شاهدة بذلك .

فهذه الطرق التي لا تحصى أنواعها وأفرادها قد أبداه الله في كتابه وأعادها ونبه بها العباد على هذا المطلوب الذي هو أعظم المطالب وأجل الغايات ، فمن سلك طريقا من هذه الطرق أفضت به إلى العلم واليقين بأنه لا إله إلا هو ، وكلما ازداد العبد سلوكا لهذه الطرق ورغبة فيها ومعرفة ازداد يقينه ورسخ إيمانه ، وكان الايمان في قلبه أرسخ من الجبال ، وأحلى من كل لذيذ وأنقى من كل نفيس .

والطريق الأعظم الجامع لذلك كله تدبر القرآن العظيم والتأمل في آياته ، فانه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجملة مالا يحصل من غيره وقوله (واستغفر لذنبك) أى اطلب من ربك المغفرة لذنبك بأن تفعل الأسباب التي تحصل بها المغفرة من الدعاء بالمغفرة والتوبة النصوح ، وفعل الحسنات الماحية ، وترك الذنوب والعفو عن الخلق والاحسان اليهم ، ومن ذلك الاستغفار لهم . فلهذا قال (وللمؤمنين والمؤمنات) فهذا من ثمرات الايمان بسبب إيمانهم كان لهم حق على كل مسلم أن يدعو لهم بالمغفرة ، وإذا كان العبد مأمورا بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، فمن لوازم ذلك أن يكون ناصحا لهم يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه ، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه ، ويحثهم على الخير وينهاهم عن الشر ، ويعفو عن معائبهم ومساوئهم . ويحرص على اجتماعهم اجتماعا تتألف به قلوبهم ويوزل ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق ، فانه بالائتلاف تقل الذنوب وبالاقتراق تكثر الشرور والمعاصي (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) أى تصرفاتكم وحركاتكم وذهابكم ومجيئكم وما اليه تنتهون وبه تستقرون فهو المحيط بكم في كل أحوالكم ، وهذافيه النخوف والترغيب من الجزاء على الأعمال حسناتها وسيئها

٦ - هو الله الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبجانه الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور ، له الاسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى التى عليها مدار التوحيد والاعتقاد ، فأخبر أنه المألوه الذى لا يستحق العبادة سواه ، وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتديره العام وحكمه الشاملة . فهو الاله الحق وما سواه فعبوديته باطلة لأنه خال من الكمال ومن الافعال التى فيها النفع والضر ، ووصف نفسه بالعلم المحيط بما حضر وغاب وما مضى وما يستقبل وما هو حاضر وما فى العالم العلوى وما فى العالم السفلى وما ظهر وما بطن ، فلا تخفى عليه خافية فى مكان من الامكنة ولا زمان من الازمنة ، ومن كل علمه وقدرته أنه يعلم ما تنقص الارض من الأموات وما تفرق من أجزائهم وما استحال من حال إلى حال ، أحاط علماً بذلك على وجه التفصيل فلا يعجزه اعدتهم لابعث والجزاء ، ووصف نفسه بأنه (الرحمن الرحيم) الذى وسعت رحمته الخليقة بأسرها وملأت الوجود كله ، ووصف نفسه بأنه (الملك) وهو الذى له الملك التام المطلق ، له صفات الملك التى هى نعوت العظمة والكبرياء والعز والسلطان . وله التصرف المطلق فى جميع الممالك الذى لا ينازعه فيه منازع ، والموجودات كلها عبيده ومدد له ليس لهم من الأمر شيء .

وأخبر أنه (القدوس السلام) أى المقدس المعظم السالم من جميع العيوب والنقائص المنافية لكماله (المؤمن) المصدق لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به من الآيات البينات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات ، الذى له العلم كله ويعلم من أوصافه المقدسة ونعوته العظيمة ما لا يعلمه بشر ولا ملك ويحب نفسه وما هو عليه من الجلال والجمال (العزيز) الذى له العزة كلها ، عزة القوة والقدرة ، فهو القوى المتين ، وعزة القهر والغلبة لكل مخلوق ، فكلمهم نواصيهم بيده وليس لهم من الأمر شيء ، وعزة الامتناع الذى تمنع بعزته عن كل مخلوق فلا يعارض ولا يمانع ، وليس له نديد ولا ضد (الجبار) الذى قهر جميع المخلوقات ودانت له الموجودات واعتلا على الكائنات وجبر بلطفه وإحسانه القلوب المنكسرات (المتكبر) عن النقائص والعيوب ، وعن مشابهة أحد من خلقه ومماثلتهم لعظمته وكبريائه (سبحانه الله عما يشركون) وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به ولم يقدره حق قدره (هو الله الخالق) لجميع المخلوقات (البارئ) بحكمته ولطفه لجميع البريات المصور بحسن خلقه لجميع الموجودات ، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى كل مخلوق وكل عضو لما خلق له وهى له .

فإن الله تعالى قد تفرد بهذه الأوصاف المتعلقة بخلقه لم يشاركه في ذلك مشارك ، وهذا من براهين توحيده ، وأن من تفرد بالخلق والبرء والتصوير فهو المستحق للعبودية ونهاية الحب وغاية الخضوع (له الأسماء الحسنى) وقد ورد في الحديث الصحيح أن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة - يعنى أحصى ألفاظها وحفظها وعقلها وتعبد لله بها - فهو تعالى الذى له كل اسم حسن ، وكل صفة جلال وإكمال ، فيستحق من عباده كل اجلال وتعظيم وحب وخضوع (يسبح له ما فى السموات والأرض) يعنى من المكلفين والحيوانات والأشجار والجمادات « وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليماً غفوراً » وهو العزيز الحكيم ، فى خلقه وشرعه .

٧ - بسم الله الرحمن الرحيم « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » أى قل قولاً جازماً فيه معتقداً له عارفاً بمعناه عاملاً بمقتضاه من الايمان بالله والتعظيم والخضوع ، هو الله أحد ، أى الذى انحصرت فيه الاحدية ، وهى التفرد بكل صفة كمال الذى لا يشاركه فى ذلك مشارك ، الذى له الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال المقدسة والتصرف المطلق « الله الصمد » أى السيد الذى قد انتهى سؤدده ، العليم الذى قد كل علمه ، الحليم الذى قد كل فى حلمه وفى قدرته وفى جميع أوصاف كماله ، ولأجل هذا صمدت له المخلوقات كلها وقصدته فى كل حاجاتها وفزعته اليه الخليفة فى مهماتها وملاماتها .

فالصمد هو الذى صمدت له المخلوقات لما اتصف به من جميع الكمالات ، ومن كماله أنه لم يلد ولم يولد ، لأنه النقى المالك ، فاتخاذ الولد ينافى ملكه وغناه « ولم يكن له كفواً أحد » أى ليس له مكافئ ، ولا مثيل فى أسائه وصفاته وأفعاله وتبارك وتعالى .

فهذه السورة أصل عظيم من أصول الايمان ، وقد تضمنت توحيد الاسماء والصفات ، ومن لوازم ذلك توحيد الالهية ، وأن المتفرد بالوحدانية من كل وجه ، الذى ليس له مثيل بوجه من الوجوه ، هو الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، لا إله إلا هو .

٨ - « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم »

يخبر تعالى وهو أصدق القائلين ، أنه إله واحد ، أى متوحد منفرد فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فليس له شريك ولا سعى له ، ولا كفو ولا مثل ولا نظير ولا خالق ولا مدبر غيره ، فإذا تقرر أنه كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة ولا يشرك به أحد من خلقه لأنه الرحمن الرحيم المتصف بالرحمة العظيمة التى لا يماثلها رحمة أحد ، فقد وسعت كل شئ ، وعمت كل حى ، فبرحمته وجدت المخلوقات ، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات ، وبرحمته اندفع

عن العباد كل نعمة ، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه ، وبين لهم كلاً يحتاجونه من أمور دينهم ومصالح دنياهم بارسال الرسل وانزال الكتب ، فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة دقت أو جلت فمن الله ، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً ، علم أنه لا يستحق العبادة إلا المتفرد بالنعم ، الدافع للمكاره ، وتعين على العباد أن يفرده بالحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل وغير ذلك من أنواع الطاعات ، وإن من أظلم الظلم وأقبح القبيح وأعظم الضلال أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد ، وأن يشرك المخلوقين من تراب ، بالرب العظيم ، وأن يسوى المخلوق العاجز القاصر الناقص من كل وجه ، بالرب الخالق المدبر القوى الذى تهر كل شئ ، وخضعت له الرقاب .

ففي هذه الآية اثبات وحدانية الباري وإلهيته ، وتقريبها بنفيها عن غيره من المخلوقين ، والاستدلال على ذلك بتفرد بالرحمة التى من آثارها جميع البر والاحسان فى الدنيا والآخرة ، ثم ذكر الله الأدلة التفصيلية بقوله

٩ - « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح ؛ والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون .

أخبر تعالى أن فى هذه المخلوقات العظيمة آيات ، أى أدلة على وحدانية الباري وإلهيته وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته ، وآية على البعث والجزاء لقوم يعقلون ، أى لهم عقول يعملونها فيما خلقت له ، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل وصرفه فى التفكير فى الآيات ينتفع بها ويعرفها ويعقلها بعقله وفكره وتدبره ، فى خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها وإحكامها واتقانها ، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وجريانها بانتظام عجيب لمصالح العباد .

وفى خلق الأرض ؛ وجعلها مهاداً للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها والاعتبار ؛ ما يدل ذلك على انفراد الله بالخلق والتدبير وبيان قدرته العظيمة التى بها خلقها ، وحكمته التى بها أتمتها وأحسنها ونظمها ، وعلمه ورحمته التى بها أودع ما أودع فيها من منافع الخلق ومصالحهم وضروراتهم وحاجاتهم ، وفى ذلك أبلغ دليل وبرهان على كماله من كل وجه ، وأن يفر بالعبادة لانفراده بالخلق والتدبير والقيام بشئون عباده .

وفى اختلاف الليل والنهار ، وهو تعاقبهما على الدوام إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر ؛ وفى اختلافهما فى الحر والبرد والتوسط ، وفى الطول والقصر والتوسط وما ينشأ عن ذلك من الفصول التى بها انتظام مصالح الادميين وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم والنوابت كلها ، كل ذلك بتدبير وتسخير تحير فى حسنة العقول ، ويمعز عن ادراك كنهه الرجال الفحول ، وذلك يدل على قدرة مصرفها وسعة علمه وشمول حكمته ، وعموم رحمته ولطفه الشامل وعظمته وكبريائه وسلطانه العظيم ، يضطر العباد إلى

معرفة ربهم وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له .

وفي الفلك اننى تجرى فى البحر ، وهى السفن والمراكب ونحوها مما أظم الله عباده صنعتها وأقدرهم عليها بتيسير أسبابها ، ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح التى تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع التى هى من منافع الناس وبها تنظم معاشهم ، فمن الذى ألهمهم صنعتها وأقدرهم عليها وخلق لهم من الآلات المتنوعة ما به يعملونها ؟ أم من الذى سخر لها هذا البحر تجرى فيه باذنه وتسخره والرياح ؟ أم من الذى خلق للمراكب البرية والبحرية والهوائية النار والمعادن المتنوعة المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال الثقيلة جداً ، فهل هذه الأمور حصلت صدفة واتفاقاً ؟ أم استقل بعملها وخلق أسبابها هذا الخلق الضعيف العاجز الذى خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وليس له قدرة على شئ ، ثم أعطاه خالقه القدرة وعلمه ما لم يكن يعلم ، أم تقول : والحق تقول . بل المسخر لذلك الرب الواحد العظيم العليم الحكيم القدير ، الذى لا يعجزه شئ ، ولا يمتنع عليه شئ ، بل الأشياء كلها قد دانت لرؤيته ، واستكانت لعظمته ، وخضعت لجبروته وغاية العبد الضعيف أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب التى بها وجدت هذه الأمور العظام ، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بعباده ، ويدعو العباد إلى أن يعبدوه وحده لا شريك له وينيبوا إليه فى كل حال .

وما أنزل الله من السماء من ماء . وهو المطر النازل من السحاب ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، فأظهرت أنواع الأقوات وأصناف الأشجار والنباتات التى لا يمكن العباد أن يعيشوا بدونها . أليس ذلك برهاناً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج ، وعلى رحمته ولطفه بعباده ، وشدة افتقار الخليقة إليه فى كل أحوالهم وهو يحدوهم إلى إخلاص الدين له والآنابة إليه والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً .

وكذلك هو دليل على إحياء الله للموتى كما قال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحيها لحى الموتى إنه على كل شئ قدير) وقد ذكر الله هذا البرهان على البعث فى عدة آيات ، كما ذكر ابتداء الخلق برهاناً على إعادته وكما ذكر كمال علمه وقدرته ، وخلق السموات والأرض ، وأنه جعل للعباد من الشجر الأخضر ناراً برهاناً بيناً على البعث .

وقوله (وبث فيها من كل دابة) أى نشر فى أقطار الأرض من الدواب المتنوعة وسخرها للآدميين ينتفعون بها من وجوه كثيرة ، ومع هذا فهو قائم بأرزاقها ، متكفل بأقواتها ، فما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها .

وفى تصريف الرياح آيات عظيمة على وحدانية الله وتفرد به بالكمال المطلق ، فتارة تكون باردة وحارة وبين ذلك ، وجنوبا وشمالا وشرقا ودورا وبين ذلك ، وتارة تثير السحاب ، وتارة تؤلف بينه ، وتارة تلقحه وتدره ، وتارة تمزقه وتزيل ضرره ، وتارة ترسل بالرحمة وتارة ترسل بالعذاب فمن الذى صرفها هذا التصريف ورتب عليها من المنافع للعباد شيئا كثيرا إلا العزيز الحكيم الرحيم اللطيف بعباده المستحق للمحبة والثناء والشكر والحمد من الخليقة .

وفى تسخير السحاب بين السماء والارض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير فيسوقه الله الى حيث يشاء ويجعله حياة للبلاذ والعباد ، ويروى به التلول والوهاد ، وينزله على الخلق وقت حاجتهم اليه ، ويصرف عنهم ضرره فينزله رحمة ولطفا ، ويصرفه عناية وعظما .

فما أعظم سلطانه وأعززر احسانه وألطف امتنانه ، أليس من أقبح القبيح وأظلم الظلم أن يتمتع العباد برزقه ويعيشوا ببره ، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه ، ومع ذلك من كمال حلمه وعفوه وصفحه يوالى عليهم الاحسان؟ خيره اليهم على الدوام نازل، وشرهم اليه فى كل وقت صاعد والحاصل أنه كلما تدبر العاقل فى هذه المخلوقات وتغلغل فكره فى بدائع الكائنات علم أنها خلقت للحق وبالحق ، وأنها صحائف آيات ، وكتب براهين ودلالات على جميع ما أخبر به عن نفسه ووحدانيته وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر ، وأنها مدبرات مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها ، فتعرف ان العالم العلوى والسفلى كلهم اليه مفتقرون ، واليه صامدون وأنه الغنى بالذات عن جميع المخلوقات فلا إله الا هو ولا رب سواه .

ولنقتصر على هذا الامتزاج من الآيات المتعلقة بالتوحيد مع ما دخل فى ضمنها من الايمان بالجزاء والبعث وبالرسل والكتب ، وقد قرن الله ذلك بأدلتة وبراهينه الموصلة الى العلم التام ، واليقين الراسخ ، وبذلك يعلم أن هذه الاصول الثلاثة متلازمة: التوحيد والرسالة والمعاد ، كما أن فى ضمن الآيات المتعلقة بالجزاء شئ كثير من متعلقات التوحيد والرسالة ، فسبحان من جعل فى كلامه الهدى والرشاد ، واصلاح العباد .

فصل

١٠ - (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) .

هذه المنة التى امتن الله بها على عباده المؤمنين أكبر المنن بل هى أصلها ، وهى الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذى جمع الله به جميع المحاسن الموجودة فى الرسل ، ومن كماله العظيم هذه الآثار التى جعلها الله نتيجة رسالته التى بها كمال المؤمنين علما وعلا وأخلاقا وآدابا ، وبها

زال عنهم كل شر وضرر فبعثه الله من أنفسهم وأنفسهم وقبيلتهم ، يعرفون نسبه أشرف الانساب وصدقه وأمانته وكماله الذي فاق به الاولين والآخرين ، ناصحاً لهم مشقفاً حريصاً على هدايتهم (يتلو عليهم آياته) فيعلمهم ألفاظها ويشرح لهم معانيها (ويزكيهم) أى يطهرهم من الشرك والمعاصي والذائل وسائر الخصال الذميمة ، ويزكيهم أيضاً أى ينميههم فيحتمهم على الأخلاق الجميلة ، فان التركيبة تتضمن هذين الامرين: التطهير من المساوىء والتنمية بالحاسن (ويعلمهم الكتاب) وهو القرآن (والحكمة) وهى السنة .

فالكتاب والسنة بهما أكمل الله للرسول وأمتة الدين وبهما حصل العلم بأصول الدين وفروعه ، وبهما حصلت جميع العلوم النافعة وما يترتب عليها من الخيرات ، وزوال الشرور ، وبهما حصل العلم اليقيني بجميع الحقائق النافعة وبهما الهداية والصلاح للبشر .

فمحمد صلى الله عليه وسلم هو الامام الأعظم المعلم لهذين الامرين اللذين ينابيع العلوم كلها تنفجر من معينهما ، فلم صلى الله عليه وسلم أمتة الكتاب والحكمة وأوتفهم على حكم الاحكام وأسرارها فكانت حياته كلها أقواله وأفعاله وتقريراته وهديه وأخلاقه الظاهرة والباطنة وسيرته الكاملة المتنوعة فى كل فن من الفنون تعليماً منه للمؤمنين ، وشرحاً للكتاب والحكمة فجمع لهم بين تعليم الاحكام الاصولية والفروعية ، وما به تدرك وتنال ، والطرق التى تفضى اليها عقلاً وقللاً وتفكيراً وتدبراً واستخراجاً للعلوم الكونية من مظانها وينابيعها ، وبين لهم فوائد ذلك كله وثمراته وشرح لهم الصراط المستقيم : اعتقاداته وأخلاقه وأعماله ، وما لسالكه عند الله من الخير العاجل والآجل وما على المنحرف عنه من العقاب والضرر العاجل والآجل .

فكان خيار المؤمنين بهذا التعليم الصادر من النبى الكريم مباشرة وتبليغاً من العلماء الربانيين الراسخين فى العلم ، ومن الهداة المهديين ومن أكبر الصديقين ، وحصل لسائر المؤمنين من هذا التعليم نصيب وافر من الخير العظيم على حسب طبقاتهم ومنازلهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، فخرجوا بهذا التعليم من جميع الضلالات ، وانجالت عنهم الشرور المتنوعة والجهالات ، وتم لهم النور الكامل وانقشعت عنهم الظلمات فيا لها من نعمة لا يقادر قدرها ولا يحصى المؤمنون كنه شكرها .

١١ - وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الاولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل أنزله الذى يعلم السرفى السموات والارض إنه كان غفوراً رحيماً »

ذكر الله تعالى فى هذا قدح المسكدين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وادلائهم بهذه الشبه التى

يعلمون ويعلم الناس بطلانها ، فزعموا أنه افترى هذا القرآن وأنه ساعده على ذلك قوم آخرون ، فرد الله عليهم هذه المقالة المنتهية في القبح بأن هذا ظلم عظيم وجراءة يعجب السامع كيف سولت لهم أنفسهم هذا القول الهراء ، وأنه من الزور والظلم ، فانه قد كانوا يعرفون بلا شك صدقه وأمانته التي لا يلحقه فيها أحد ، وأنه لم يجتمع بأحد من أهل العلم ولا رحل في طلبه ، وقد نشأ بين أمة أمية في غاية الجهل والضلال ، وقد جاءهم بهذا الكتاب العظيم الذي لم يطرق العالم أعظم منه ، ولا أعلى معاني وأغزر علما ؛ ولا أبلغ من ألفاظه ومعانيه ، وأتم من حكمه وحكمه ومبانيه . وقد تحدى أقصاهم وأدناهم ، وأفرادهم وجماعتهم ، وأولهم وآخرهم أن يأتي بمثله أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله ، وصرح لهم أنهم إن أتوا بشيء من مثله فهم صادقون ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة في الكلام ، فعجزوا غاية العجز عن معارضته والاتيان بمثله ، واتضح لهم ولغيرهم عيهم وعجزهم ، وتبين بطلان دعواهم .

وكل من حاول أن يأتي بكلام يعارض به ما جاء به الرسول صار كلامه ضحكة للصبيان فضلا عن أهل النظر والعقول ، وكل شبهة يدلون بها في معارضة الرسول من حين يوجه لها النظر الصحيح تضحل وتزهق « إن الباطل كان زهوقاً » ومن جرائتهم أنهم قالوا إن هذا القرآن الذي جاء به محمد أساطير الأولين اكتبها من كتب الأولين المسطورة ، فهي على عليه بكرة وأصيلًا فيما ويحهم من الذي عندهم في بطن مكة يملئها ، وهل يوجد في ذلك الوقت في مكة أو ما حوله ما كتب على ؟ ولو فرض وقد أن يوجد أحد لم يختص محمد وحده بالأخذ عنه ؟

ولما كانت هذه مقالة زور وافتراء لا يخفى كذبها على أحد تشبثوا وقالوا : كان محمد يجلس إلى قين حداد في مكة فارسي فيتعلم منه ، فلماذا قال الله عنهم (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) بالغ في البيان والبلاغة نهايتها وغايتها ، فلا يمكن الجمع بين النقيضين أن يتعلمه من هذا الالبكم أعجمي اللسان الذي لم يعرف عنه علم يرجع إليه ، ولا معرفة يتميز بها ، وهذا القرآن الذي جاء به مع كمال بلاغته حوى علوم الأولين والآخرين

ولما كان هذا القول الذي قالوه ، والمكابرة التي تجرؤوا عليها قد علم الموافق والمخالف بكذبها وافتراءها ، وكان جميع أعداء الرسول لهم ورثة يقومون بالعداوة للرسول والدين ويعطونها حقها ، ولو جلبت عليهم ما جلبت من الدخول في الكذب والافتراء والمكابرة ، وقد عرف هؤلاء الأعداء المتأخرون مكابرة إخوانهم الذين باشروا تكذيب الرسول ورأوا أن مقالاتهم قد بطلت واضمحلت وبأن زورها لكل أحد ، صاغها هؤلاء المكذبون بعبارة موهوها وظنوا أنها بهذا التويه تروج ، فزعموا ، وما أسمجه وأكذبه من زعم ، أن محمداً كان يتعلم من نفسه ؛ وأنه كان يخلو بالطبيعة : السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم فيعطيهما له ، ويتأججهما

بقلمه فيخيل اليه أصناف التخاييل فيأتى بها الى الناس زاعماً أنها من وحى الله على يد جبريل وأن هذه التخييلات من الأمور العالية التي يعتاد الاثنيان بها أهل الرأى والحجى. ولما رأوا آثارها الجليلة فى الاسلام وأهله وتعاليمه وتقويمه للأئمة وبهرهم هذا النور العظيم لجأوا الى هذا التحذلق الذى منتهاه وغايته أنهم صوروا النبي صلى الله عليه وسلم ورقوه الى رجل من الطبيعيين كما قال هذا القول الباطل أحدملاحدة الا فرنسيين وتلقاها عنه بعض الملاحدة العصريين وهو مبنى على انكار وجود رب العالمين وأنه ماثم الاعمال الطبيعة وقد علم الناس أن هذا القول المزور أعظم مكابرة ومباهمة من قول الأولين وأن هذا الافتراء الذى ولدوه بعد مئات السنين أوضح ضلالاً وظلماً وجراءة ووقاحة من زور الأولين وأن هؤلاء الاراذل الذين أعجبوا بأرائهم وتاهوا بعقولهم قد بين الله كذبهم فيما قالوه وأن عقولاً ولدت هذه الأقوال المؤتسكة والخيالات الفاسدة والمقالات الفاسدة لعقول سافلة وآراء ساقطة يعرف فسادها بنتائجها ومكابرتها وانكارها أجلى الحقائق ولهذا قال تعالى (قل أنزل الذى يعلم السر فى السموات والأرض) فالرب القادر العظيم الذى أحاط علمه بجميع الاسرار وعلم أحوال العباد حاضرها ومستقبلها فأنزله لهدايتهم وجعله مناراً وعلماً يهتدى به المهتدون فى كل وقت وحين .

جميع الحقائق التي دعا اليها هذا الرسول وهذا القرآن حقائق ثابتة نافعة للعباد لا يأتى من الحقائق ما يغيرها ، ومحال أن يأتى شئ أصح منها أو مثلاً أو يقاربها (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) ومن كمال علمه وقدرته أنه لو تقول عليه أحد بمثل هذه المقالة لعاجله بالعقوبة فلما أيد من جاء بها بنصره وحججه، وأرى العباد آياته فى الآفاق وفى أنفسهم التي يتبين بها أنه الحق وما سواه ضلال علم بذلك أن هذا الرسول أصدق الخلق وأنصحهم وأبرهم وأعلمهم وأخشاهم وأتقاهم لربه وأن أعداءه المكذبين له أكذب الخلق وأغشهم وأعظمهم جهلاً وضلالاً وغياً وفساداً فى كل زمان ومكان .

ومن مكابرة أعداء الرسول أنهم جعلوا يتناقضون فى مقالاتهم ويتفننون فى إفكهم المكشوف كذبه فمنهم من قال إنه مجنون ومنهم من قال ساحر وكاهن ومنهم من قال مسحور ومنهم من قال لو كان صادقاً لجاءت الملائكة تؤيده ولو كان صادقاً لاغناه الله عن المشى فى الأسواق وجعل له جنات وأنهاراً وأموالاً كثيرة، وكل يعلم أن هذه الأقوال مع تناقضها ليست من الشبه فضلاً عن كونها من الحجة ولهذا قال تعالى معجبا (انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلاً فلا يستطيعون سبيلاً) ومثل هذه الأقوال التي يذكرها الله عن المكذبين للرسول هي بنفسها تدل على كذبهم ومكابرهم قبل أن يعرف بطلانها من الأدلة الأخرى. واذا وزنت هذه الأقوال الجارية من الأولين رأيت نظيرها وأقبح منها جارية من الملاحدة المتأخرين ويأتى الله الا أن يتم نوره ولو كره

الكافرون (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) فما جاء به الرسول من الهدى فى جميع أبواب العلوم النافعة والدين الحق الذى هو الصلاح المطلق أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً . وأكبر الأدلة على إبطال كل مانافضه من أقوال المؤتفكين والحمد لله رب العالمين

١٢- بسم الله الرحمن الرحيم . ن . والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ، فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

يقسم تعالى بالقلم وهو اسم جنس شامل للأقلام التى تكتب بها أنواع العلوم ، ويسطر بها المنشور والمنظوم ، وذلك إن القلم وما يسطر به من أنواع الكلام من آياته العظيمة التى تستحق أن يقسم بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبته إليه أعداؤه من الجنون ، فنفى عنه ذلك بنعمة ربه عليه وإحسانه ، إذ من عليه بالعقل الكامل والرأى السديد والكلام الفصلى الذى هو من أحسن ما جرت به الأقلام وسطره الأنام ، وهذا هو السعادة فى الدنيا ثم ذكر سعادته فى الآخرة فقال (وإن لك لأجراً غير ممنون) أى لأجراً عظيماً كما يفيدته التثنية كبر غير مقطوع ، بل هو دائم متتابع مستمر ، وذلك لما أسلفه ﷺ من المقامات العالیه فى الدين والأخلاق الرفیعة ، ولهذا قال (وإنك لعلى خلق عظيم) فعلا صلى الله عليه وسلم بخلقه العظيم على جميع الخلق وفاق الأولين والآخرين ، وكان خالقه العظيم كما فسرته به عائشة رضى الله عنها هذا القرآن الكريم وذلك نحو قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ، فبما رحمة من الله لنت لهم » الآية .

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » وما أشبهها من الآيات الدالات على اتصافه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق ، والآيات التى فيها الحث على كل خلق جميل فكان أول الخلق امتثالاً لها وسبقاً إليها وإلى تكميلها ، فكان له منها أكلها وأجلها وأعلاها ، وهو فى كل خصلة منها فى الذروة العليا . فكان سهلاً لينا قريباً من الناس مجيباً لدعوة من دعاه ، قاضياً لحاجة من استقضاه ، جابراً لقلب من سأله لا يجرمه ولا يردّه خائباً ، وإذا أراد أصحابه أمراً وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن فى ذلك محذور ، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم ، بل يشاورهم ويؤامرهم ، وكان يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئتهم ، ولم يكن يعاشر جليسا إلا أتم عشرة وأحسنها ، فكان لا يمس فى وجهه ولا يغلظ له فى كلامه ولا يبطى عنه بشره ولا يمسك عليه فلتات لسانه ، ولا يؤاخذ بما يصدر منه من جفوة ، بل يحسن إليه غاية الاحسان ويحتمله غاية الاحتمال ، صلى الله عليه وسلم .

فلما أنزله الله بأعلى المنازل وكان أعداؤه يقولون إنه مجنون مفتون قال « فستبصرو ويبصرون بأبيكم المفتون » وقد تبين أنه كان أهدي الناس وأكملهم وأنفعهم لنفسه ولغيره ، وأن أعداءه أضل الناس للناس وأهمهم هم الذين فتنوا عباد الله وأضلوه عن سبيله ، وكفى بعلم الله بذلك ، فإنه المحاسب المجازي « وهو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

وفيه تهديد للضالين ووعد للمهتدين وبيان لحكمة الله في هدايته من يصلح للهداية دون غيره

فصل

١٣- ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، إلى آخر السورة الكريمة .

من أهم أصول الإيمان : الإيمان باليوم الآخر ، وهو الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله بعد الموت من فتنة القبر ونعيمه وعذابه ، وأحوال يوم القيامة وما يكون فيه ، ومن صفات الجنة والنار وصفات أهلها .

فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بذلك كله جملة وتفصيلا ، أما أحوال القبر وفتنته وعذابه ونعيمه وتفاصيل ذلك ، فقد توارت به الأحاديث الصحيحة والحسنة عن رسول الله ﷺ كما هو معروف ، والقرآن أشار إليه في عدة آيات ، وأما ما يكون بعد ذلك ، فإذا أراد الملك القادر بعث العباد وحشرهم وجزأهم (نفخ في الصور) وهو قرن عظيم لا يعلم عظمه إلا الذي خلقه ، كما ورد في حديث الصور المشهور ، أو نفخ في الصور على وجه لا يعلم كنهه إلا الله نفخة الصعق والفرع . انزعج لهذا أهل السموات والأرض وصعقوا إلا من شاء الله من خلقه (ثم نفخ فيه أخرى) نفخة البعث (فإذا هم قيام) من أجدانهم كاملي الخلقة ينظرون ما يستقبلهم من هذه الحياة الآخوية التي يجازي فيها العباد بأعمالهم ، حسناتها وسيئها .

أما المؤمنون الطائعون فيقومون مطمئنين طامعين في فضل ربهم ورحمته مستبشرين بشوابه وعفوه ومغفرته ، يحشرون إلى موقف القيامة وقد أكرمهم . وأما المجرمون فيقومون فرعين خائفين متحسرين يدعون بالويل والثبور ، يقولون يا ويلنا ، من بعثنا من مرقدنا ؟ فيساقون إلى جهنم وردا .

حينئذ تكثر القلاقل والأهوال ويشيب الولدان من هول ذلك اليوم وفظاعته (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) ولكن عذاب الله شديد . يوم يقر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوده يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها خبرة

ترهقها فترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة - يوم تشتق السماء بالغمام فنزل الملائكة نزيلاً ، الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً) وتكور الشمس والقمر وتنتثر النجوم فتذهب هذه الأنوار المشاهدة ، وتشرق الأرض بنور ربها ، وينزل الله لفصل القضاء بين عباده ، ومحاسبتهم على أعمالهم : أما المؤمنون فيحاسبهم حساباً يسيراً يقررهم بذنوبهم ثم يغفرها ويستترها عن الخلاق ، ويضاعف لهم الحسنات ، ويعطيهم من فضله وإحسانه ما لا تبلغه أعمالهم ، ويعطون كتبهم بأيامهم اكراماً واحتراماً ، كما تبيض وجوههم ، وتثقل موازينهم ، ويغتبطون بذلك ويستبشرون به فيقولون لاخوانهم ومعارفهم ومحبيهم : هاؤم اقروا كتابيه - إني ظننت - أي أيقنت - أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية - الآيات . ويساقون إلى الجنة زمراً كل طائفة منهم مع نظرائهم في الخير بحسب طبقاتهم وسبقهم كما يردون في عرصات القيامة حوض نديهم فيشربون منه شربة هنيئة لا يظأون بعدها ، ويمرون على الصراط على قدر أعمالهم كلعج البصر ، وكالبرق الخاطف ، وكأجاويد الخيل والابل وكسرى الرجال وكشبههم ، ودون ذلك .

فاذا عبروا على الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعض منهم من بعض مظالم وتبعات كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها بشفاعه محمد ﷺ فتلقاهم خزنة الجنة يسلمون عليهم ، ويهنونهم بالنجاة من العذاب وحصول الخير والثواب والخلود الأبدى بسبب طيبهم ، ولهذا قالوا : سلام عليكم طيبين . أي طابك قلوبكم بالعقائد الصحيحة الصادقة ، والأخلاق الجميلة ، وأسنتكم بذكر الله والثناء عليه ، وجوارحكم بخدمته والقيام بطاعته (فادخلوها خالدين) فاذا دخلوها ورأوا ما فيها من النعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، حمدوا الله على منته عليهم بالسوابق والایمان والأعمال الصالحة ، وبإنجاز ما وعدهم به على السنة رسله ، وعلى أن الله أورثهم الجنة يتبوأون من خيراتها حيث يشاءون وآتى يشاؤون مما تشبهه الأنفس وتلذذ العين من نعيم القلوب والأرواح ، ومن نعيم الأبدان والاجسام « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق ، وكأس من معين ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » خيرات الاخلاق حسان الوجوه ، قد جمع الله لمن حسن البواطن والظواهر فمن سرور النفس وقرّة النواظر .

وتمام ذلك أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً ، وأنه يقال لهم إن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً ، وإن لكم أن تمنعوا فلا تبأسوا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، فلهم كل ما يشاءون فيها وتتعلق به أمانهم ، ولهم فوق ذلك مما لم تبلغه أمانهم ، ولهم نعيم أعلى من ذلك كله وهو التمتع بالنظر إلى وجهه الكريم وسماع

خطابه والابتهاج برضاه وقربه ، والسرور بحبته وذكره وحمده والثناء عليه وشكره ، مما يشاهدون من كثرة الخيرات ، وسوابع النعم والهبات ؛ وزيادة النعم وتواصله ، ومما يزدادون من معرفته والأنس به ، فتبارك الله ذو الجلال والاكرام .

وأما الكافرون المجرمون فيحاسبهم الله على ما أسلفوه من الجرائم ويقرعهم ويخزيهم بين الخلائق ، ويعطون كتبهم من وراء ظهورهم بشمائلهم ، وتسود منهم الوجوه ، وتخف موازينهم ، ويساقون إلى جهنم جيعاً عطاشاً منزعين مرعوبين زمراً ، كل طائفة تحشر مع نظيرها من أهل الشر « حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » في وجوههم ففاجأهم حرها المفظع وحل بهم الفزع الأكبر الذي لا يشبهه فزع ، وتلقتهم خزنة الجحيم يؤخونهم على ما قدموه ، وقالوا لهم « ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى » قد جاءتنا الرسل وبلغتنا النذر ، فما كان منا اليهم إلا الاستهزاء بهم والتكذيب ، فلو كان لنا أسمع واعية ، وعقول نافعة ما وصلنا إلى هذه الدار ، بل خالفنا المنقول والمعقول « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » ما أشد شقاءهم وعناءهم ، ينوع عليهم العذاب أنواعاً ، فتارة يعذبون بالسعير المحرق لظواهرهم وبواطنهم . كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ، وتارة بالزمهرير الذي قد بلغ برده أن يرى اللخوم ويكسر العظام ، وتارة بالجوع المفرط والعطش المفظع ، وإذا استغاثوا لذلك أغيثوا بعذاب آخر ، ولون من الشقاء ينسى ما سبقه ، فيغاثون بطعام ذى غصة ؛ بشجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم وتمرها في غاية المرارة والنتن والحرارة ، إذا وصلت بطونهم غلت فيها كفى الحميم الذي يؤقد عليه في النار ، وإن يستغيثوا للشراب يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، إذا قرب إليها فلا يدعهم العطش مع ذلك أن يتناولوها ؛ فإذا وصلت إلى بطونهم قطعت أمعاءهم ولا يزالون في عذاب متنوع شديد ، لا يفتر عنهم العذاب ساعة ، ولا يرجون رحمة ولا فرجاً ، يتمنون المات ليستريحوا ، فينادون مالكا رئيس خزنة النار : يا مالكا ليقتض علينا ربك . فيقول لهم إنكم ما كثرتم ، فلا تلوموا إلا أنفسكم لما أسلفتموه من الجرائم « لقد جئناكم بالحق ولكن أكثرتم للحق كارهون » وينادون أهل الجنة مستغيثين بهم : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فيقول لهم أهل الجنة : إن الله حرمهما على الكافرين ، وينادون ربهم فيقولون : يا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين « ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون » فيجيبهم الله اخشوا فيها ولا تكلمون .

فحينئذ يأسون من كل خير ومن كل فرج وراحة ويتيقنون أنه الخلود الدائم والعذاب الأبدي والشقاء المستمر . . فنسأل الله الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ به من النار وما قرب إليها من قول وعمل .

(فصل)

١٤ - « وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون »

الايان بالملائكة أحد أصول الايمان ، ولا يتم الايمان بالله وكتبه ورسله إلا بالايمان بالملائكة وقد وصفهم الله بأكمل الصفات ، وأنهم في غاية القوة على عبادة الله والرغبة العظيمة فيها ، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ؛ وأنهم لا يستكبرون عن عبادته ، بل يرونها من أعظم نعمه عليهم ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

ففي هذا بيان كمال محبتهم لربهم وقوة انايتهم اليه ونشاطهم التام في طاعته ، وأنهم لا يعصونه طرفة عين ، وهم الوسائط بينه وبين رسله ، وخصوصاً جبريل أفضاهم وأعظمهم وأقواهم وأرفعهم عند الله منزلة ؛ فانه ذو قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما هو على الغيب بضنين وانه لتتزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين) وكما أنهم الوسائط بينه وبين عباده في تبليغ الوحي والشرائع إلى الانبياء ، فهم الوسائط في التدبيرات القدريّة ، فان الله وصفهم بأنهم المدبرات أمراً ، فكل طائفة منهم قد وكله على عمل هو قائم به باذن الله ، فمنهم الموكلون بالغيث والنبات ، والموكلون بحفظ العباد مما يضرهم ، وبحفظ أعمالهم وكتابتها ؛ والموكلون بقبض الارواح وبتصوير الاجنة في الارحام وكتابة ما يجري عليها في الحال والمآل ؛ والموكلون على الجنة والنار ، ومنهم حملة العرش ، ومن حوله من الملائكة المقربين ، إلى غير ذلك مما وصفوا به في الكتاب والسنة .

فيجب الايمان بهم اجمالاً وتفصيلاً ، وكثير من سور القرآن فيها ذكر الملائكة والخبر عنهم فعلياً أن تؤمن بذلك كله ، ولا تكاد تجد أحداً ينكر وجود الملائكة إلا الزنادقة المنكرين لوجود ربهم ، ومن تستر بالاسلام منهم فانه ينكر الملائكة حقيقة ، وينكر خبر الله ورسوله عنهم ، ويفسر الملائكة تفسيراً ونحريفاً خبيثاً فيزعم أن الملائكة هي القوى الخيرية والصفات الحسنة الموجودة في الانسان ، وأن الشياطين هي القوى الشريرة فيه ، وغرضهم من هذا التحريف دفع الشبهة عنهم ، وقد ازدادوا بهذا التحريف شراً إلى شرهم ، وراج هذا التحريف الخبيث على بعض الذين يحسنون الظن بهؤلاء الزنادقة ، وليس عندهم بصيرة في أديان الرسل ، وإن أظهرنا تعظيمهم ، فان زنادقة الفلاسفة أعظم في قلوبهم من الرسل ، وكفى بالعبد ضلالاً وغياً أن يصل إلى هذه الحال ، ونعوذ بالله من مضلات الفتن .

ولم تزل بهم هذه الجراءة والخضوع لأقوال جهلة الزنادقة حتى فسروا الملائكة بذلك التحريف وحتى زعم بعضهم أن سجود الملائكة لآدم ليس حقيقة ، وإنما ذلك تسخير الله للآدميين جميع ما في الأرض من القوى والمعادن وغيرها ، فأنكر ما هو معلوم بالضرورة بخبر الله الصريح في كتابه وخبر رسوله ، وقال هذه المقالة التي فيها مع تكذيب الله ورسوله تسوية كفار الآدميين وفجرتهم وأولهم وآخرهم بآدم ، ومضمون ذلك بل صريح قولهم إن الملائكة سجدت لجميع الآدميين برّهم وفاجرهم ، فأين قول الناس في موقف القيامة : يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته .

ولولا أن مثل هذه التحريفات والتكذيب لله ورسوله موجود في كتب من يشار إليهم بالعلم لم يكن بنا حاجة إلى دفع هذا القول الجريء الذي يعلم كل مسلم لم تغيره العقائد الباطلة بطلانه ، ولتقتصر على هذا المقدار من الإشارة إلى العقائد المتعلقة بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر والجزاء وإن كان القرآن معظمه في تقرير هذه الأصول العظيمة لشدة الحاجة والضرورة إليها في كل وقت وحال ، ولكن حصل والله الحمد التنبيه الذي يحصل به المقصود ويعين على غيره والله أعلم

فصل

(في ذكر الفوائد والثمرات المترتبة على التحقق بهذه العقائد الجميلة)

اعلم أن خير الدنيا والآخرة من ثمرات الإيمان الصحيح ، وبه يحيى العبد حياة طيبة في الدارين وبه ينجو من المكروه والشرور ، وبه تخف الشدائد وتدرك جميع المطالب ، ولتشر إلى هذه الثمرات على وجه التفصيل ، فإن معرفة فوائد الإيمان وثمراته من أكبر الدواعي إلى التزود منه . فمن ثمرات الإيمان أنه سبب رضا الله الذي هو أكبر شيء ، فما نال أحد رضا الله في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان وثمراته ، بل صرح الله به في كتابه في مواضع كثيرة ، وإذا رضى الله عن العبد قبل اليسير من عمله ونماه ، وغفر الكثير من ذلله وعماه .

ومنها : أن ثواب الآخرة ودخول الجنة والتنعيم بنعيمها والنجاة من النار وعقابها ، إنما يكون بالإيمان ، فأهل الإيمان هم أهل الثواب المطلق ، وهم الناجون من جميع الشرور .

ومنها : أن الله يدفع ويدافع عن الذين آمنوا شرور الدنيا والآخرة ، فيدفع عنهم كيده شياطين الإنس والجن ، ولهذا قال تعالى « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » ولما ذكر إنجاءه ذا النون قال (وكذلك ننجي المؤمنين) أي من الشدائد والمكروه إذا وقعوا فيها والإيمان بنفسه وطبيعته يدفع الأقدام على المعاصي ، وإذا وقعت من العبد دفع عقوباتها بالمبادرة

إلى التوبة كما قال ﷺ : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . إلى آخر الحديث . فبين أن
الايان يدفع وقوع الفواحش ؛ وقال تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا
فإذا هم مبصرون)

ومنها : أن الله وعد المؤمنين القائمين بالايان حقيقة بالنصر وأحقه على نفسه ، فمن قام بالايان
ولوازمه وتماماته فله النصر في الدنيا والآخرة ؛ وإنما ينتصر أعداء المؤمنين عليهم إذا ضيعوا
الايان وضيعوا حقوقه وواجباته المتنوعة

ومنها : أن الهداية من الله للعلم والعمل والمعرفة الحق وسلوكه ، هي بحسب الايمان والقيام
بحقوقه ، قال تعالى (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) ومعلوم أن اتباع رضوان الله
الذي هو حقيقة الاخلاص ، هو روح الايمان وساقه الذي يقوم عليه ، وقال تعالى (ومن يؤمن بالله
يهدي قلبه) فهذه هداية عملية ، هداية توفيق وإغانة على القيام بوظيفة الصبر عند حلول المصائب
إذا علم أنها من عند الله فرضى وسلم وانقاد .

ومنها : أن الايمان يدعو إلى الزيادة من علومه وأعماله الظاهرة والباطنة ؛ فالمؤمن بحسب
إيمانه لا يزال يطلب الزيادة من العلوم النافعة ومن الأعمال النافعة ظاهراً وباطناً ، وبحسب قوة
إيمانه يزيد إيمانه ورغبته وعمله ؛ كما قال تعالى « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا »
الآية . « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً
وعلى ربهم يتوكلون . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون »

ومنها : أن المؤمنين بالله وبكلمه وعظمته وكبريائه ومجده ، أعظم الناس يقيناً وطمانينة وتوكلًا
على الله وثقة بوعده الصادق ورجاء لرحمته وخوفاً من عقابه ، وأعظمهم اجبالاً لله ومراقبة ،
وأعظمهم اخلاصاً وصدقاً ، وهذا هو صلاح القلوب ، لا سبيل إليه إلا بالايان .

ومنها : أنه لا يمكن العبد أن يقوم بالاخلاص لله ولعباد الله ونصيحتهم على وجه الكمال إلا
بالايان ، فإن المؤمن تحمله عبودية الله وطلب التقرب إلى الله ورجاء ثوابه والخشية من عقابه على
القيام بالواجبات التي لله والتي لعباد الله .

ومنها : أن المعاملات بين الخلق لا تتم وتقوم إلا على الصدق والنصح وعدم الغش بوجه من
الوجوه ، وهل يقوم بها على الحقيقة إلا المؤمنون ؟

ومنها : أن الايمان أكبر عون على تحمل المشقات والقيام بأعباء الطاعات وترك الفواحش
التي في النفوس داع قوى إلى فعلها ، فلا تتم هذه الأمور إلا بقوة الايمان .

ومنها : أن العبد لا بد أن يصاب بشيء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والنفوس
والثمرات ؛ وهو بين أمرين : إما أن يجزع ويضعف حلته فيفوته الخير والثواب ويستحق على ذلك

العقاب ، ومصيبته لم تقلع ولم تخف ، بل الجزع يزيدها ، وإما أن يصبر فيحظى بشواها ، والصبر لا يقوم إلا على الإيمان ، وأما الصبر الذي لا يقوم على الإيمان كالتجلب ونحوه ، فما أقل فائدته ، وما أسرع ما يعقبه الجزع ، فالمؤمنون أعظم الناس صبراً وقيماً وثباتاً في مواضع الشدة ومنها : أن الإيمان يوجب للعبد قوة التوكل على الله لعلمه وإيمانه أن الأمور كلها راجعة إلى الله ومندرجة في قضائه وقدره ، وأن من اعتمد عليه كفاه ، ومن توكل على الله فقد توكل على القوى العزيز القهار ، ومع أنه يوجب قوة التوكل ، فإنه يوجب السعي والجد في كل سبب نافع لأن الأسباب النافعة نوعان : دينية ودنيوية .

فالأسباب الدينية : هي إيمان ، وهي من لوازم الإيمان .
والأسباب الدنيوية قسمان : سبب معين على الدين ويحتاج إليه الدين ، فهو أيضاً من الدين ، كالسعي في القوة المعنوية والمادية التي فيها قوة المؤمنين .
وسبب لم يوضع في الأصل معيناً على الدين ، ولكن المؤمن لقوة إيمانه ورغبته فيما عند الله من الخير يسلك إلى ربه وينفذ إليه مع كل سبب وطريق ، فيستخرج من المباحات بنية وصدق معرفته ولطف علمه باباً يكون به معيناً على الخير مجاً للنفس مساعداً لها على القيام بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة ، فيكون هذا المباح حسناً في حقه ، عبادة لله لما صحبه من النية الصادقة حتى أن بعض المؤمنين الصادقين في إيمانهم ومعرفتهم ربما نوى في نومه وراحاته ولذاته التقوى على الخير وتربية البدن لفعل العبادات وتقويته على الخير ، وكذلك في أدويته وعلاجاته التي يحتاجها ، وربما نوى في اشتغاله في المباحات أو بعضها الاشتغال عن الشرور بما نوى بذلك جذب من خالطه وعاشره بمثل هذه الأمور على فعل خير أو انكفاف عن شر ، وربما نوى بمعاشرته الحسنة ادخال السرور والانبساط على قلوب المؤمنين ، ولا ريب أن ذلك كله من الإيمان ولوازمه ولما كان الإيمان بهذا الوصف ، قال تعالى في عدة آيات من كتابه « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »

ومنها : أن الإيمان يشجع العبد ويزيد الشجاع شجاعة ، فإنه لاعتماده على الله العزيز الحكيم ولقوة رجائه وطمعه فيما عنده تهون عليه المشقات ، ويقدم على المخاوف واثقاً بربه راجياً له راهباً من نزوله من عينه نخوفه من الخلقين ، ومن الأسباب لقوة الشجاعة أن المؤمن يعرف ربه حقاً ويعرف الخلق حقاً ، فيعرف أن الله هو النافع الضار المعطى المانع ، الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يدفع السيئات إلا هو ، وأنه الغني عن جميع الوجوه . وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وألطف به من كل أحد ، وأن الخلق بخلاف ذلك كله ، ولا ريب أن هذا داع قوى عظيم يدعو إلى قوة الشجاعة وقصر خوف العبد ورجائه على ربه ، وأن ينتزع من قلبه خوف الخلق ورجاءهم وهيبتهم

ومنها أن الايمان هو السبب الأعظم لتعلق القلب بالله في جميع مطالبه الدينية والدنيوية ،
والايمان القوى يدعو إلى هذا المطلب الذى هو أعلى الامور على الاطلاق ، وهو غاية سعادة العبد ،
وفى مقابلة هذا يدعو إلى التحرر من رق القلب للمخلوقين ، ومن التعلق بهم ، ومن تعلق بالخالق ،
دون المخلوق فى كل أحواله حصلت له الحياة الطيبة ، والراحة الحاضرة ، والتوحيد الكامل ،
كما أن من عكس القضية نقص إيمانه وتوحيده ، وانفتحت عليه المهوم والغوم والحسرات .
ولا ريب أن هذين الأمرين تبع لقوة الايمان وضعفه ، وصدق وكذبه ، وتحققه خفية أو
دعواه والقلب خال منه .

ومنها أن الايمان يدعو إلى حسن الخلق مع جميع طبقات الناس كما قال النبى صلى الله عليه
وسلم « أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » وجماع حسن الخلق أن يتحمل العبد الأذى منهم
ويبذل إليهم ما استطاع من المعروف القولى والبدنى والمالى ، وأن يخالفهم بحسب أحوالهم بما
يجبون إذا لم يكن فى ذلك محذور شرعى ، وأن يدفع السيئة بالتي هى أحسن ، ولا يقوم بهذا الأمر
إلا المؤمنون الكمل قال تعالى (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) وإذا
ضعف الايمان أو نقص أو انحرف ، أثر ذلك فى أخلاق العبد انحرافاً بحسب بعده عن الايمان .

ومنها أن الايمان الكامل يمنع من دخول النار بالكيفية كما منع صاحبه فى الدنيا من عمل
المعاصى ، ومن الاصرار على ما وقع منه منها ، والايمان الناقص يمنع الخلود فى النار وإن دخلها
كما تواترت بذلك النصوص بأنه يخرج من النار من كان معه مثقال حبة خردل من إيمان .

ومنها أن الايمان يوجب لصاحبه أن يكون معتبراً عند الخلق أميناً ، ويوجب للعبد العفة
عن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ، وفى الحديث « المؤمن من أمنه الناس على دماءهم وأموالهم »
وأى شرف دنيوى أبلغ من هذا الشرف الذى يبلغ بصاحبه أن يكون من الطبقة العالية من الناس
لقوة إيمانه وتعام أمانته ، ويكون محل الثقة عندهم وإليه المرجع فى أمورهم ، وهذا من ثمرات
الايمان الجليلة الحاضرة .

ومنها أن قوى الايمان يجد فى قلبه من ذوق حلاوته ولذة طعمه واستحلاء آثاره ، والتلذذ
بخدمته وبه وأداء حقوقه وحقوق عباده التى هى موجب الايمان وأثره مايزرى بلذات الدنيا كلها
بأسرها ، فانه مسرور وقت قيامه بواجبات الايمان ومستحباته ، ومسرور بما يرجوه ويؤمله من
ربه من ثوابه وجزائه العاجل والآجل ، ومسرور بأنه ربح وقته الذى هو زهرة عمره وأصل
مكسبه ، ومحشو قلبه أيضاً من لذة معرفته بربه ومعرفته بكماله وكمال بره ، وسعة جوده وإحسانه
ولذة محبته . والاناة اليه الناشئة عن معرفته بأوصافه ، وعن مشاهدة إحسانه ومنته ، فالؤمن

يقتلب في لذات الايمان وحلاوته المتنوعة ، ولهذا كان الايمان مسلياً عن المصيبات مهوياً للطاعات ، وممانعاً من وقوع المخالفات ، جاعلاً إرادة العبد وهواه تبعاً لما يحبه الله ويرضاه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

ومنها أن الايمان هو السبب الوحيد للقيام بذروة سنام الدين وهو الجهاد البدني والمالي والقولي جهاد الكفار بالسيف والسنان ، وجهاد الكفار والمناققين والمنحرفين في أصول الدين وفروعه بالحكمة والحجة والبرهان ، فكلما قوى إيمان العبد علماً ومعرفة وإرادة وعزيمة قوى جهاده ، وقام بكل ما يقدر عليه بحسب حاله ومرتبته ، فزال الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة ، وإذا ضعف الايمان ترك العبد مقدوره من الجهاد القولي والعلم بالحجة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وضعف جهاده البدني لعدم الحامل له على ذلك ، ولهذا قال تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فصادق الايمان يحمله صدقه على القيام بهذه المرتبة التي هي مرتبة الطبقتين العاليتين بعد النبيين : طبقة الصديقين المجاهدين بالعلم والحجة والتعليم والنصيحة ، وطبقة الشهداء الذين قاتلوا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا من دون قتل ، وهذا كاه من ثمرات الايمان ومن تمامه وكماله ، وبالجملة فخير الدنيا والآخرة كله فرغ عن الايمان ومرتب عليه ، والهلاك والنقص إنما يكون بقصد الايمان أو نقصه والله المستعان .

فصل

في ذكر بعض الآيات الحاثية على القيام بحقوق الله وحقوق الخلق

قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) . والآيات التي في سورة الاسراء (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً) إلى قوله (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جحيم ملوماً مدحوراً) .

هذه الآيات الكريمة فيها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والدخول تحت رفق عبوديته التي هي غاية شرف العبد ، والالتزام بأوامره واجتناب نواهيه محبة له وذلاً له ، وإخلاصاً لله وإجابة له في جميع الحالات وفي جميع العبادات الظاهرة والباطنة ، وفيها النهي عن الشرك به شيئاً سواء كان

أكبر بأن يصرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله ، أو شركاً أصغر مثل وسائل الشرك كالخلف بغير الله والرياء ونحو ذلك مما يتندرع به إلى الشرك ، بل الواجب المتين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، والتدبير الكامل الشامل الذى لا يشركه ولا يعينه عليه أحد

ثم بعدما أمر بالقيام بحق الله المقدم على كل حق ، أمر بالقيام بحقوق ذوى الحقوق من الخلق الأهم فالأهم فقال (وبالوالدين إحساناً) أى أحسنوا إليهم بالقول الكريم ، والخطاب اللطيف ، وبالفعل بالقيام بطاعتها ، واجتناب معصيتها والحذر من عقوقها والانفاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من جهةها (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما تولاك كريمة) ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) والأمر بالاحسان إلى الوالدين وإطلاقه يدخل فيه كل ماعده الناس إحساناً ، وذلك يختلف باختلاف الأوقات والأحوال والأشخاص ، وفيه النهى عن ضد الاحسان إليهما وهو أمران : الاساءة والعقوق الذى هو إيصال الأذى القولى والفعلى إليهما ، وترك القيام ببعض حقوقها الواجبة ، والأمر الثانى ترك الاحسان وترك الاساءة ، فان ذلك داخل فى العقوق ، فلا يسع الولد أن يقول إذا قت بواجب والدى وترك معصيتها فقدت بحقوقها ، فيقال بل عليك أن تبذل لهما من الاحسان الذى تقدر عليه ما يحملك فى مرتبة الأبرار البارين بوالديهم ، وقوله (كما ربياني صغيراً) بيان لبعض الأسباب الموجبة للبر ، وأن الوالدين اشتركا فى تربية بدنك وروحك بالتغذية والكسوة والحضانة والقيام بكل المؤن والتعلم والارشاد والالزام بطاعة الله والآداب والأخلاق الجميلة ، وفى هذا دليل على أن كل من له عليك حق تربية بقيام بمؤنة نفقة وكسوة وغيرها أن له حقاً عليك بالاحسان والبر والدعاء وأعلى من ذلك من له حق عليك بتربية عقلك وروحك تربية علمية تهذيبية أن له الحق الأكبر عليك ، وهذا من جملة فضائل أهل العلم المعلمين العاملين ومن حقوقهم على الناس ، فانهم ربما فاقوا فى هذه التربية تربية الوالدين بأضعاف مضاعفة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقوله (وبذى القريب) أى أحسنوا إلى أقاربكم القريب منهم والبعيد بالقول والفعل ، وأوصلوا لهم من الهدايا والصدقات والبر والاحسان المتنوع ما يشرح صدورهم وتيسر به أمورهم ، وتكونوا بذلك وأصلين وللأجر من الله حائزين .

واليتامى وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار ، فمن رحمة أرحم الراحمين أمر الناس برحمتهم والحنو عليهم والاحسان إليهم وكفالتهم وجبر خواطرم وتأديتهم ، وأن يربوهم أحسن تربية كما يربون أولادهم ، سواء كان اليتيم ذكراً أو أنثى ، قريباً أو غير قريب .

(والمساكين) وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يموتون فأمر تعالى بسد خلعتهم ، ودفع فاقهم ، والخص على ذلك ، وقيام العبد بما أمكنه من ذلك من غير

ضرر عليه) (والجار ذى القربى) أى الجار القريب الذى له حق الجوار وحق القرابة (والجار الجنب) الذى ليس بقريب ، فعلى العبد القيام بحق جاره مطلقاً ، مسلماً كان أو كافراً ، قريباً أو بعيداً ، بكف أذاه عنه ، وتحمل أذاه ، وبذل ما يهون عليه ويستطيعه من الاحسان ، وتمكينه من الانتفاع بجداره أو طريق ماء على وجه لا يضر الجار ، وتقديم الاحسان إليه على الاحسان على من ليس بجار ، وكلما كان الجار أقرب باباً كان آكد لحقه ، فينبغى للجار أن يتعاهد جاره بالصدقة والهدية والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال تقرباً إلى الله وإحساناً إلى أخيه صاحب الحق .

(والصاحب بالجنب) قيل هو الرفيق فى السفر ، وقيل هو الزوجة ، وقيل هو الرفيق مطلقاً فى الحضر والسفر ، وهذا أشمل فانه يشمل القولين الأولين ، فعلى صاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه من مساعدته على أمور دينه ودنياه ، والنصح له والوفاء معه فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وأن يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد .

(وابن السبيل) وهو الغريب فى غير بلده سواء كان محتاجاً أو غير محتاج ، فحث الله على الاحسان إلى الغرباء لكونهم فى مظنة الوحشة والحاجة وتعذر ما يتمكنون عليه فى أوطانهم فيتصدق على محتاجهم ويحبر خاطر غير المحتاج بالأكرام والهدية والدعوة والمعاونة على سفرد (ومملكت أيمانكم) أى من الرقيق والبهائم بالقيام بكفائتهم وأن لا يحملوا مالا يطيقون ، وأن يعاونوا على مهماتهم ، وأن يقيم بتقويمهم وتأديبهم النافع فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه المتواضع لعباد الله المتقاد لأمر الله وشرعه الذى يستحق الثواب الجزيل والثناء الجليل ، ومن لم يقم بذلك فانه عبد معرض عن ربه ، عات على الله ، متكبر على عباد الله معجب بنفسه ، فخور بأقوانه على وجه الكبر والعجب واحتقار الخلق ، وهو فى الحقيقة السافل المحتقر ، ولهذا قال (إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) فهو لاء ما بهم من الأوصاف القبيحة تحملهم على البخل بالحقوق الواجبة ويأمرون الناس بأقوالهم وأفعالهم بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله أى من العلم الذى يهتدى به الضالون ويسترشد به الجاهلون ، فيكتمونه عنهم ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق فهو لاء جمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعى فى خسارة أنفسهم ، والسعى فى خسارة غيرهم ، وهذه هى صفات الكافرين ، ولهذا قال (وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً) أى كما استهانوا بالحق وتكبروا على الخلق واستهانوا بالقيام بالحقوق ، أهانهم الله بالعذاب الأليم والخزى الدائم .

وقال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) أى احذر هذين الخلتين الرذيلتين: البخل بالواجبات وفى بذل المال فيما ينبغى بذله فيه ، والتبذير النفقة فيما لا ينبغى أو زيادة على ما ينبغى (فتتعد) إن فعلت ذلك (ملوماً) أى تلام على ما فعلت من الاسراف لأن كل عاقل

يعرف أن الاسراف مناف للعقل الصحيح كما أنه مناف للشرع ، فان الله جعل الأموال قايما لمصالح الخلق ، فكما أن منعها وإمساكها عن وضعها فيما جعلت له مذموم ، فكذلك بذلها في الأمور الضارة أو الزيادة غير اللائقة في الأمور العادية وغيرها مذموم ، لانه إتلاف للمال بغير مصلحة وانحراف في حسن التصرف والتدبير، وضعف التدبير وعدم انتظامه مذموم في كل شيء ، كما ان حسن التدبير محمود ونافع لفاعله وانيره (محسوراً) أى فارغ اليد فلا يبقى ما في يدك من المال ، ولا خلفه مدح وثناء .

وهذا الامر بائنا ذى القربى وغيرهم مع القدرة ، فأما مع العدم أو تعذر النعمة الحاضرة فأمر تعالى أن يردوا رداً جميلاً فقال (وأما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) أى تعرضن عن إعطائهم حاضراً ، ولسكنك ترجو فيما بعد ذلك تيسير الامر من الله ، قل لهم قولاً ميسوراً أى لطيفاً برفق ووعد بالجميل عند الوجود ، واعتذار بعدم الامكان في الوقت الحاضر لينقلبوا عنك مطمئنة قلوبهم ، عاذرين راجين كما قال تعالى (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) وهذا من لطف الله بالعباد ، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه ، لان انتظار ذلك عبادة ، وسبب لحصوله ، فان الله عند ظن عبده به ، وكذلك وعدهم أن يعطوهم إذا وجدوا عبادة حاضرة لمن وعدوا لأنهم بفعل الخير والحسنة خير ، ولهذا ينبغي للعبد أن يفعل ما يقدر عليه من الخير وينوى فعل ما لم يقدر عليه إذا قدر ليشاب على ذلك ، واعمل الله يسره له . وفي قوله (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) فيه الحث على تعليق القلب والرجاء والطمع بالله وصرف التعاق بالخلوتين ، فالوقوف في حال الوجود والغنى قلبه متعلق بحمد الله وشكره والثناء عليه لا يذنى ولا يبتر النعمة وفي حال الفقر والفقر صابر راض راج من الله فضله وخيره ورحمته ، وهذا من أجل عبادات القلوب المقربة إلى علام الغيوب .

(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) الآية ، وذلك أن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها فنهى الوالدين عن هذا الخلق الذى هو من أرذل الأخلاق وأسقطها قتل أولادهم خشية من الفقر والإملاق ففيه عدة جنایات قتل النفس الذى هو من أعظم الفساد ، وأشنع من ذلك قتل الأولاد الذين هم فلذ الأكباد وسوء الظن برب العالمين ، وجهالهم وضلالهم البليغ ، إذ ظنوا أن وجودهم يضيق عليهم الأرزاق ، فتكفل لهم بقيامه برزق الجميع ، فأين هذا الخلق الشنيع من أخلاق خواص المؤمنين الذين كلما كثرت أولادهم وعوائلهم ، قوى ظنهم بالله ورجوا زيادة فضله وقاموا بمؤتمتهم مطمئنة نفوسهم ، حامدين ربهم أن جعل رزقهم على أيديهم ، ومثنين على ربهم إذ أقدرهم على ذلك ، وراجين ثواب ذلك عنده ، ومشاهدين لمنة الله عليهم بذلك ، قال ﷺ « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم ورغبتهم إلى الله .

والنهي عن قربان الزنا يشمل التهي عنه وعن جميع دواعيه ومقدماته ، كالنظر المحرم ، والخلو بالاجنبية ، وخطاب من يخشى الفتنة بخطابه ونحو ذلك ، ووصف الزنا بأقبح الأوصاف ، بأنه فاحشة ، أى جريمة عظيمة تستفحش شرعاً وعقلاً ، لأن فيه انتهاك حرمة الشرع والتهاون به وفيه افساد المرأة وافساد الأنساب واختلاط المياه ، وفيه اضرار بأهلها وبزوجها وبكل من يتصل بها ، وفيه من المفسد شئ كثير .

وأمر تعالى بإيفاء المكاييل والموازين والمعاملات كلها بالقسط من غير بخس ولا نقص ولا غش ولا كتمان ؛ وفى ضمن ذلك الأمر بالصدق والنصح فى جميع المعاملات ، فانه بذلك يصلح الدين والدنيا ولذلك قال (ذلك خير وأحسن تأويلاً) أى هو خير فى الحاضر وأحسن عاقبة فى الآجل يسلم به العبد من التبعات ، وتحل البركة فى هذه المعاملة .

وقوله (ولا تقف ما ليس لك به علم) الآية . أى ولا تتبع ما ليس لك به علم ، بل تثبت فى كل ما تقوله وتفعله ، فان التثبت فى الأمور كلها دليل على حسن رأى وقوة العقل ، وبه تتوضح الأمور ويعرف بعد ذلك هل الاقدام خير أم الاحجام ؛ لأن التثبت لا بد أن يعمل فكره ويشاور فى الأمور التى عليه أن يتثبت فيها ، والفكر والمشاورة أكبر الأسباب لاصابة الصواب والسلامة من التبعة ومن الندم الصادر من العجلة ومن عدم استدراك الفارط . ولهذا قال (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) أى لا بد أن تستل عن حركة هذه الجوارح وهل هى حركات نافعة بأن وضعت فيما يقرب إلى الله ، أم ضارة بأن وجهت لمعصية الله ، فليتعاهد العبد بحفظها عن الأمور الضارة ليمد لهذا السؤال جواباً ، فمن استعملها بطاعة الله فقد زكاها ونماها وأثمرت له النعم المقيم ، ومن استعملها فى ضد ذلك فقد دساها وأسقطها وأوصلته إلى العذاب الأليم .

وقوله (ولا تمس فى الأرض مرحاً) أى لا تتكبر على الحق ولا على الخلق ، فان التكبر من أرذل الأخلاق ، والتكبر المعجب بنفسه لن يبلغ ما يظنه وتطمح له نفسه من الخيالات الفاسدة أنه فى مقام رفيع على الخلق ، بل هو ممقوت عند الله وعند خلقه ، مبغوض محقر قد نزل بخلق هذا إلى أسفل سافلين ، ففاته مطلوب من كبره وعجبه ، وحصل على نقيضه ، ومن مضار الكبر أنه صح الحديث عن النبي ﷺ أنه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر ، والنار مثوى المتكبرين ، والكبر هو بطر الحق ، وغطت الناس ، أى احتقارهم وازدرائهم ، وهذه الأوامر الحسنة والارشادات فى هذه الآيات من الحكمة العالية التى أوحاها الله لرسوله ﷺ وهى من أعظم محاسن الدين ، فالدين هو دين الحكمة التى هى معرفة الصواب والعمل بالصواب ومعرفة الحق والعمل بالحق فى كل شئ .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » الى آخر السورة

العبودية لله نوعان : عبودية لرؤية الله وملكه ، فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم ، فكأنهم عبيد لله مربوبون مدبرون ، وعبودية لآلهيته ورحمته ، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه ، وهي المراد هنا ، ولهذا أضافها إلى اسمه (الرحمن) تنبيهاً على أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال برحمته بهم ولطفه وإحسانه ، فذكر صفاتهم أكمل الصفات ، وبالتصاف بها يكون العبد متحققاً بعبوديته الخاصة النافعة المثمرة للسعادة الأبدية ، فوصفهم بأنهم (يمشون على الأرض هونا) أى ساكنين متواضعين لله وللخلق ، فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده (وإذا خاطبهم الجاهلون) أى خطاب جهل ، فانه أضاف الخطاب لهذا الوصف (قالوا سلاماً) أى خاطبهم خطاباً يسمون فيه من الاتم ولا يقابلون الجاهل بجهله ، وهذا ثناء عليهم بالرزانة والحلم العظيم والعفو عن الجاهل ومقابلة المسيء بالاحسان

« والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً » أى يكثر من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له كما قال تعالى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » الآية
« والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم » أى ادفعه عنا بالعصاة من أسبابه ومفردة ما وقع منا مما هو مقتض للعذاب « إن عذابها كان غراماً » أى ملازماً لأهلها ملازمة الغريم لغريمه « انها ساءت مستقراً ومقاماً » وهذا منهم على وجه التضرع لربهم ، وبيان شدة حاجتهم اليه ، وأنه ليس في طاعتهم احتمال هذا العذاب وليتذكروا منة الله عليهم ، فان صرف الشدة يعظم وقعه بحسب شدتها وفضاعتها
« والذين إذا أنفقوا » أى النفقات الواجبة والمستحبة لم يسرفوا أى يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير واهمال الحقوق الواجبة ، ولم يقتروا فيدخلوا في باب الشح والبخل ، وكان انفاقهم بين الاسراف والتقتير (قواماً) تقوم به الاحوال ؛ فانهم يبدلون في الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة ، وفيما ينبغى من الامور النافعة على المحتاجين ، وفي المشاريع الخيرية ، وفي الامور الضرورية والكالمية الدينية والديوية من غير ضرر ولا اضرار ، وهذا من اقتصادهم وعقلهم وحسن تدبيرهم .

« والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر » لا دعاء عبادة ولا دعاء مسئلة بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين خفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه « ولا يقتلون النفس التي حرم الله » وهي نفس المسلم والكافر المعاهد « إلا بالحق » كقتل النفس بالنفس والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة « ولا يزنون ومن يفعل ذلك » المذكور من الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله والزنا (يلق أثاماً)

يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه « أى العذاب «مهانا» .
فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت فى الكتاب والسنة واجماع الأمة ، وكذلك لمن أشرك بالله ، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة ، لكونها كلها من أكبر الكبائر ، وأما خلود القاتل بغير حق والزانى ، فى العذاب ، فقد دلت النصوص القرآنية وتواترت الأحاديث النبوية أن جميع المؤمنين - وإن دخلوا النار - فسيخرجون منها ولا يخلد فيها مؤمن ، فان الايمان الكامل يمنع من دخولها ، ومطابق الايمان ولو مثقال ذرة يمنع من الخلود فيها كما تقدم .

ونص الله على ثلاثة هذه الأشياء لأنها أكبر الكبائر ، وفسادها كبير ، فالشرك فيه فساد الأديان بالكلية ، والقتل فيه فساد الأبدان ، والزنا فيه فساد الأعراض « إلا من تاب » عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقطع عنها فى الحال ، وندم على فعلها وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود (وآمن) بالله إيمانًا صحيحًا يقتضى فعل الواجبات ، وترك المحرمات « وعمل عملاً صالحاً » فيدخل فيه جميع الصالحات من واجب ومستحب « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » بأن يوقعهم للخير ، فتبدل أقوالهم وأفعالهم التى كانت مستعدة لفعل السيئات بتبدل حسنات ، فيتبدل شركهم إيمانًا ومعصيتهم طاعة ، وتبدل نفس السيئات التى عملوها ، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وندما واناية وطاعة تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية ، وورد فيه حديث الرجل الذى حاسبه الله ببعض ذنوبه ، فعدها عليه ، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة إلى آخر الحديث « وكان الله غفوراً » لمن تاب يغفر ذنوبه كلها « رحيماً » بعباده إذ دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ، ثم وقفهم لها ثم قبلها منهم ، ومن تاب وعمل صالحاً ، فانه يتوب إلى الله متاباً ، أى فليعلم أن توبته فى غاية الكمال ، لانها رجوع إلى الطريق الموصل الى الله الذى هو عين سعادة العبد وفلاحه ، فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الاغراض الفاسدة .

والمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة ، وأن تكون على أكمل الوجوه وأجلها لتحصل نه نمراتها الجلية (والذين لا يشهدون) أى لا يحضرون الزور ، أى القول المحرم والفعل المحرم ، فيجتنبون جميع المجالس المشتعلة على كل قول وفعل محرم ، كالخوض فى آيات الله بالباطل ، والجدل الباطل ، والغيبة والنميمة ، والسب والقذف ، والاستهزاء وشرب الخمر ، والفناء المحرم ، وفرش الحرير والصور ونحو ذلك ، وإذا كانوا لا يشهدون الزور ، فانهم من باب أولى لا يفعلونه ولا يقولونه وشهادة الزور داخلة فى قول الزور « وإذا مروا باللغو » وهو الكلام الذى لا فائدة فيه دينية ولا دنيوية ، ككلام السفهاء ونحوهم « مروا كراماً » أى نزهاً أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه ورأوه سفهاً منافياً لمكارم الاخلاق .

وفى قوله (وإذا مروا باللغو) إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه ، ولكن يحصل ذلك بغير قصد ، فيكرمون أنفسهم عنه (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم) التى أمروا بالاستماع لها والاهتداء بها (لم يخروا عليها صما وعمياناً) أى لم يقابلوها بالاعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف القلب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق ، وإنما حال هؤلاء الأخيار عند سماعها كما قال تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانتقاد والتسليم لها ، وتجد عندهم آذاناً سامعة ، وقلوباً واعية ، فيزداد بها إيمانهم ، ويتم بها يقينهم ، وتحدث لهم فرحاً ونشاطاً واعتباطاً ، لما يعلمون أنها أفضل المنن الواصلة إليهم من ربهم (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا) أى قرنائنا من أصحاب وأخلاء وأقران وزوجات (وذرياتنا قررة أعين) أى تقر بهم أعيننا ، وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من علو هممهم ومراتبهم ، أن مقصودهم بهذا الدعاء لذرياتهم ، أن يطلبوا منه صلاحهم ؛ فإن صلاح الذرية عائد إليهم وإلى والديهم لأن النفع يعود على الجميع ، بل صلاحهم يعود إلى نفع المسلمين عموماً ، لأن بصلاح المذكورين صلاحاً لكل من له تعلق بهم ، ثم يتسلسل الصلاح والخير (واجعلنا للمتقين إماماً) أى أوصلنا ياربنا إلى هذه الدرجة العالية درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين ، وهى درجة الامامة فى الدين ، وأن يكونوا قدوة للمتقين فى أقوالهم وأفعالهم ، يقتدى بأقوالهم وأفعالهم ، ويطمئن إليها ثقة المتقين بعلمهم ودينهم ، ويبتدى المهتدون بهم ، ومن المعلوم أن الدعاء بحصول شئ دعاء به وبما لا يتم إلا به ، وهذه الدرجة درجة الامامة فى الدين لا تتم إلا بالصبر واليقين .

كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فهذا الدعاء يستلزم من حصول الأعمال الصالحة والصبر على طاعة الله ؛ وعن معصيته وعلى أقداره المؤلفة ومن العلم النافع التام الراسخ الذى يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً وعطاء جزيلاً ، ولما كانت هممهم وأعمالهم عالية كان الجزاء من جنس العمل ، فجازاهم من جنس عملهم فقال (أولئك يجزون الغرفة) أى المنازل العالية الرفيعة الجامعة لكل نعيم وروحى وبدنى بسبب صبرهم على القيام بهذه الأعمال الجليلة (ويلقون فيها تحية وسلاماً) من ربهم ومن الملائكة الكرام ومن بعضهم على بعض ويسلمون من جميع المنقصات والمكدرات .

والحاصل أن الله وصفهم بالوقار والسكينة والتواضع له ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق والعفو عن الجاهلين والاعراض عنهم ، ومقابلة إساءتهم بالاحسان وقيام الليل والإخلاص فيه والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها وأنهم يخرجون الواجبات والمستحبات فى النفقات على وجه الاقتصاد ، وإذا كانوا مقتصدين فى النفقات التى جرت عادة أكثر الخلق

بالفرط فيها أو الإفراط ، فافتصادهم وتوسطهم في غيرها من باب أولى ، ووصفهم بالسلامة من كبائر الذنوب وفواحشها ، وبالتوبة مما يصدر منهم منها .

ومنها الاخلاص لله في عبادته ؛ وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها ؛ وأنهم يتزهون عن اللغو والآقوال الرديئة التي لا خير فيها ولا نفع ، وذلك يستلزم كمال إنسانيتهم ومروءتهم وكاملهم ورفعة نفوسهم عن كل أمر رذيل ، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانها والعمل بها والاجتهاد في تنفيذ أحكامها ، وأنهم يدعون ربهم بأكمل دعاء ينتفعون به ، وينتفع به من يتعلق بهم ، وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم ، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم ، لأن من حرص على شيء ، ودعا الله في حصوله لا بد أن يكون مجتهداً في تحصيله بكل طريق ؛ مستعيناً بربه في تسهيل ذلك ، وأنهم دعوا الله في حصول أعلى الدرجات الممكنة لهم ، وهي درجة الامامة والصدقية ، فله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب وأزكى تلك النفوس ، والله فضل الله عليهم ولطفه بهم الذي أوصلهم إلى هذه المقامات والمنازل ، والله الحمد من جميع عبادته إذ بين لهم أوصافهم وحثهم عليها وأعان السالكين ويسر الطريق لمن سلك رضوانه ، والله الموفق المعين

(خذ العفو واءمّر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)

هذه الآية الكريمة جامعة لمعانى حسن الخلق مع الناس وما ينبغي للعبد سلوكه في معاملتهم ومعاشرتهم ، فأمر تعالى « بأخذ العفو » وهو ما سمحت به أنفسهم وسهلت به أخلاقهم من الأعمال والاخلاق ، بل يقبل ما سهل ولا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم ولا مالا يطيقونه ، بل عليه أن يشكر من كل أحد ما قبله به من قول وعمل وخلق جميل وما هو دون ذلك ، ويتجاوز عن قصيرهم ويقض طرفه عن قصصهم ، وعما أتوا به وعاملوه به من النقص ولا يتكبر على صغير لصغره ولا ناقص العقل لنقصه ولا الفقير لفقره بل يعامل الجميع باللطف وما تقتضيه الحال الحاضرة ، وبما تشرح له صدورهم ويوقر الكبر ويحنو على الصغير ويجامل النظير .

« واءمّر بالعرف » وهو كل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل لل قريب والبعيد ، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم ديني أو دنيوي أو نصيحة أو حث لهم على خير من عبادة الله وصلة رحم وبر الوالدين ، وإصلاح بين الناس أو رأي يصيب أو معاونه على بر وتقوى أو زجر عن قبيح ، أو إرشاد إلى مصلحة دينية أو دنيوية . أو تحذير من ضد ذلك .

ولما كان لا بد للعبد من أذية الجاهلين له بالقول أو بالفعل أمر الله بالأعراض عنهم وعدم مقابلة الجاهلين بجهالهم ، فمن آذاك بقوله أو فعله فلا تؤذه ، ومن حرمك فلا تحرمه ، ومن قطعك

فصله ، ومن ظلمك فاعدل فيه ، فبذلك يحصل لك من الثواب من الله ، ومن راحة القلب وسكونه ومن السلامة من الجاهلين ، ومن انقلاب العدو صديقاً ، ومن التوبة من مكارم الأخلاق أعلاها أكبر حظ وأوفر نصيب ، قال تعالى « ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ولنتقصر في هذا الموضوع على هذه الآيات ، ففيها الهدى والشفاء والخير كله .

فصل

في أحكام الشرع الفروعية المتنوعة في الصلاة والزكاة ، مع ما ينضم إليهما من المعاني الأخرى قال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)

هذا الأمر من الله لعباده بالصلاة التي أمر بها في آيات متعددة ، ويأتي الأمر بها في القرآن بلفظ الإقامة كـ هذه الآية ، ومثل « وأقيموا الصلاة » ونحوها . وهو أبلغ من قوله افعلوها ، فإن هذا أمر بفعلها ، وبتمكين أركانها وشروطها ومكملاتها ظاهراً وباطناً ، وبجمعها شريعة ظاهرة قائمة من أعظم شعائر الدين ، وفي هذه الآية زيادة عن بقية الآيات ، وهي الأمر بها لأوقاتها الخمسة أو الثلاثة ، وهذه هي الفرائض وإضافتها إلى أوقاتها من باب إضافة الشيء إلى سببه الموجب له « فدلوك الشمس » أي زوالها واندفاعها من المشرق نحو المغرب ، فيدخل في هذا صلاة الظهر وهو أول الدلوك ، وصلاة العصر وهو آخر الدلوك « إلى غسق الليل » أي ظلمته ، فدخل في ذلك صلاة المغرب وهو ابتداء الغسق ، وصلاة العشاء الآخرة ، وبها يتم الغسق والظلمة « وقرآن الفجر » أي صلاة الفجر ، وسماها قرآناً لمشروعية اطاللة القراءة فيها ، ولفضل قراءتها لكونها مشهودة يشهدها الله وتشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار ، ففي هذه الآية الكريمة فوائد :

منها ذكر الأوقات الخمسة صريحاً ؛ ولم يصرح به في القرآن في غير هذه الآية - وأتت ظاهرة في قوله « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » الآية . وفيها أن هذه المأمورات كلها فرائض لأن الأمر بها مقيّد في أوقاتها ، وهذه هي الصلوات الخمس وقد تستتبع ما يتبعها من الرواتب ونحوها .

ومنها أن الوقت شرط لصحة الصلاة وسبب لوجوبها ؛ ويرجع في مقادير الأوقات إلى تقدير النبي ﷺ كما يرجع إليه في تقدير ركعات الصلاة وسجوداتها وهيئاتها .

وفيهما أن العصر والظهر بجمعان للمعذور ، وكذلك المغرب والعشاء ، لأن الله جمع وقتها فهو وقت واحد للمعذور ، ووقتان لغير المعذور .

وفيهما فضيلة صلاة الفجر وفضيلة إطالة القرآن فيها ، وأن القراءة فيها ركن ، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها دل ذلك على فضيلته وركنيته ، وقد عبر الله عن الصلاة بالقراءة وبالركوع وبالسجود وبالقيام ، وهذه كلها أركانها المهمة .

قوله (ومن الليل فتهجد به) أى صلّ به فى أوقاته (نافلة لك) أى لتكون صلاة الليل زيادة لك فى علو المقامات ورفع الدرجات بخلاف غيرك ، فانها تكون كفارة لسيئاته

ويحتمل أن يكون المعنى أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين ، وأما صلاة الليل فانها فرض عليك وحدك دون المؤمنين لكرامتك على الله ، إذ جعل وظيفتك أكثر من غيرك ومنّ عليك بالقيام بها ليكثر ثوابك ويرتفع مقامك ، وتنال بذلك المقام المحمود ، وهو المقام الذى يحمد فيه الأولون والآخرون ؛ مقام الشفاعة العظمى ، حين يستشفع الخلائق بأكابر الأنبياء ، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ليرحمهم الله من هم الموقف وكرهه ويفصل بينهم ، فيشفعه الله ويقيم مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون ، وتكون له اليد البيضاء على جميع الخلق ﷺ تسليماً كثيراً وادخلنا فى شفاعته ، ومنّ علينا بالسعى فى أسباب شفاعته التى أهمها اخلاص الأعمال لله ، وتحقيق متابته فى هديه وقوله وعمله .

« ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شئ قدير »

لما أمر الله تعالى رسوله خصوصاً والمؤمنين عموماً باستقبال بيته الحرام ، أخبر أن كل أهل دين لهم وجهة يتوجهون إليها فى عباداتهم ، وليس الشأن فى القبل والوجاهات المعينة ، فانها من الشرائع التى تختلف باختلاف الأزمنة ، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى أخرى ، ولكن الشأن كل الشأن فى امتثال طاعة الله على الإطلاق والتقرب اليه وطلب الزلفى عنده .

فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية ، وهو الذى إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها الخسارة فى الدنيا والآخرة ، كما أنها إذا اتصفت به فهى الراجحة على الحقيقة ، وهذا أمر متفق عليه فى جميع الشرائع ، وهو الذى خلق الله له الخلق وأمرهم به ، والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعلها ، فإن الاستباق إليها يتضمن الأمر بفعلها وتكميلها وإيقاعها على أكمل الأحوال والمبادرة إليها ، ومن سبق فى الدنيا إلى الخيرات فهو السابق فى الآخرة إلى الجنات

فالسابقون أعلى الخلق درجة ، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل من صلاة وصيام وزكاة وصدقة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعدد وقاصر ، فهذه الآية تحت على الاتيان بكل ما يكمل هذه العبادات من ركن وواجب وشرط ومستحب ومكمل ومتعم ظاهراً وباطناً كالمبادرة في أول الوقت وفعل السنن المكملات والمبادرة إلى ابراء الذمم من الواجبات وفعل جميع الآداب المتعلقة بالعبادات فله ما أجمعها من آية وأنفعها ؛ ولما كان أقوى ما يحث النفوس الى المسارعة إلى الخيرات ما رتب الله عليها من الثواب ، وما يخشى بتفويتها من الحرمان والعقاب قال (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير) فيجمع الله العباد يوم القيامة بقدرته ويجازيهم بما أسلفوه من الأعمال خيرها وشرها .

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ، فان ختمتم فرجالاً أو ركباناً » إلى آخر الآية .

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات عموماً ، وعلى الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر خصوصاً ، لفضلها وشرفها وحضور ملائكة الليل والنهار فيها ، ولكونها ختام النهار ، والمحافظة على الصلوات عناية العبد بها من جميع الوجوه التي أمر الشارع بها وحث عليها من مراعاة الوقت وصلاة الجماعة والقيام بكل ما به تكمل وتم ، وأن تكون صلاة كاملة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، ويزداد بها إيمانه ، وذلك إذا حصل فيها حضور القلب وخشوعه الذي هو لبها وروحها ، ولهذا قال (وقوموا لله قانتين) أى مخلصين خاشعين لله ، فان القنوت هو دوام الطاعة مع الخشوع ؛ ومن تمام ذلك سكون الأعضاء عن كل كلام لا تعلق له بالصلاة .

وفيها أن القيام في صلاة الفريضة ركن إن كان المراد بالقيام هنا الوقوف ، فان أريد به القيام بأفعال الصلاة عموماً دل على الأمر باقامتها كلها وأن تكون قائمة تامة غير ناقصة .

(فان ختمتم فرجالاً أو ركباناً) أى فصلوا الصلاة رجالاً أى ماشين على أرجلكم أو ساعين عليها ، أو ركباناً على الابل وغيرها من المركوبات ، وحذف المتعلق ليعم الخوف من العدو والسبع ومن فوات ما يتضرر بفواته أو تفويته ، وفي هذه الحال لا يلزمه استقبال القبلة ، بل قبلته حيثما كان وجهه .

ومثل ذلك إذا اشتبهت القبلة في السفر ، ومثل ذلك صلاة النافلة في السفر على الراحة ، وكل هذا داخل في قوله (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) فهذه صلاة المعذور بالخوف ، فاذا حصل الأمن صلى صلاة كاملة ، ويدخل في قوله (فاذا أمنتم فاذكروا الله) تسكيل الصلوات ؛ ويدخل فيه أيضاً الاكثار من ذكر الله شكراً له على نعمة الأمن وعلى نعمة

التعليم ، وفي الآية الكريمة فضيلة العلم وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الاكثار من ذكر الله وفيه تنبيه على أن الاكثار من ذكر الله سبب لنيل علوم أخر لم يكن العبد ليعرفها ، فان الشكر مقرون بالمزيد ، وقد ذكر الله صلاة الخوف في سورة النساء في قوله (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) فأمر بها على تلك الصفة تحصيلاً للجماعة لها وقياماً للألفة وجمعاً بين القيام بالصلاة والجهاد حسب الامكان وبالقيام بالواجبات مع التحرز من شرور الأعداء ، فسبحان من جعل في كتابه الهدى والنور والرشاد واصلاح الأمور كلها .

فصل

قال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقال (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بأخذه إلا ان تغمضوا فيه واعلموا ان الله غني حميد) وقال (وآتوا حقه يوم حصاده)

قد جمع الله في كتابه في آيات كثيرة بين الأمر باقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما مشتركتان في أنهما من أهم فروض الدين ومباني الاسلام العظيمة ، والايمان لا يتم إلا بهما ، ومن قام بالصلاة وبالزكاة كان مقبلاً لدينه ، ومن ضيعهما كان لما سواهما من دينه أضيع . فالصلاة فيها الاخلاص النام للمعبود وهي ميزان الايمان ، والزكاة فيها الاحسان إلى المخلوقين وهي برهان الايمان . ولهذا اتفق الصحابة على قتال مانعي الزكاة ، وقال أبو بكر رضي الله عنه « لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » فقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) هذا الأمر موجه للنبي ﷺ ومن قام مقامه أن يأخذ من أموال المسلمين صدقة وهي الزكاة ، وهذا شامل لجميع الأموال المتمولة من أنعام وحروث ونقود وعروض كما صرح به في الآية الأخرى (من طيبات ما كسبتم) من النقود والعروض والماشية المتماة (ومما أخرجنا لكم من الارض) من الحبوب والثمار ، وقد وضع النبي ﷺ النصب في هذه الانواع كلها ، وبين مقدار الواجب منها وأنها عشر الخارج من الارض مما يسقى بلا مؤنة ، ونصف عشره فيما سقى بمؤنة ، ورابع العشر من أموال التجارة وذلك إذا حال الحول في أموال التجارة ، وحصل الحصاد والجذاذ وقت حصول الثمار كما هو صريح الآية المذكورة .

وأمر تعالى باخراج الوسط فلا يظلم رب المال فيؤخذ العالى من ماله إلا أن يختار هو ذلك

ولا يحل له أن يتيمم الخبيث وهو الردىء من ماله فيخرجه ، ولا تبرأ بذلك ذمته إن كانت فرضاً ، ولا يتم له الأجر والثواب إن كانت نفلاً ، وبين تعالى الحكمة في ذلك وأنها حكمة معقولة ، فكما أنكم لاترضون ممن عليه حق لكم أن يعطيكم الردىء من ماله الذى هو دون حقكم إلا أن تقبلوه على وجه الكراهة والاضماض ، فكيف ترضون لربكم ولاخوانكم مالا ترضونه لأنفسكم فليس هذا من الانصاف والعدل .

وبين تعالى الحكمة في الزكاة وبيان مصالحها العظيمة فقال (تطهرهم وتزكيهم بها) فهذه كلمة جامعة يدخل فيها من المنافع للمعطى والمعطى والمال والامور العمومية والخصوصية شئ كثير . فقلوه (تطهرهم) أى من الذنوب ومن الاخلاق الرذيلة ، فان من أعظم الذنوب وأكبرها منم الزكاة ، وأيضاً اعطاؤها سبب لمغفرة ذنوب أخرى ، فانها من أكبر الحسنات ، والحسنات يذهب السيئات

ومن أشنع الاخلاق الرذيلة البخل . والزكاة تطهره من هذا الخلق الرذيل ، ويتصف صاحبها بالرحمة والاحسان والشفقة على الخلق وتطهر المال من الاوساخ والآفات ، فان للأموال آفات مثل آفات الابدان ، وأعظم آفات المال أن تخالطها الاموال المحرمة ، فهى للأموال مثل الجرب تسحقه وتحل به النكبات والنوائب المزعجة ، فاخراج الزكاة تطهير له من هذه الآفة المانعة له من البركة والنماء ، فيستعد بذلك للنماء والبركة وتوجيهه للامور النافعة ، وأما قوله (وتزكيهم بها) فالزكاة هى النماء والزيادة ، فهى تنمى المؤتى للزكاة ، تنمى أخلاقه وتحل البركة فى أعماله ويزداد بالزكاة ترقياً فى مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم ، وتنمى المال بزوال ما به ضرره وحصول ما فيه خيره وتحل فيه البركة من الله ، ولهذا قال النبي ﷺ « ما نقصت صدقة من مال » بل زيده وتنمى أيضاً المخرج اليه فتسد حاجته ، وتقوم المصلحة الدينية التى تصرف فيها الزكاة فالجهاد والعلم والاصلاح بين الناس والتأليف ونحوها ، وأيضاً تدفع عادية الفقر والفقراء ، فان أبواب الاموال اذا احتسكروها واحتجزوها ولم يؤدوا منها شيئاً للفقراء ، اضطر الفقراء وهم جمهور الخلق وثاروا بالشر والفساد على أبواب الاموال ، وبهذا ونحوه تسلطت البلاشفة على الخلق ، فالقيام بالدين الاسلامى على وجهه بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأداء حقوقه هو السد المانع شرها وقدرأ لهذه الطائفة التى بها فساد الاديان والدنيا والآخرة ، وأمر تعالى الآخذ منهم الزكاة أن يصل عليهم فيدعو لهم بالبركة ، فان فى ذلك تطميناً لخواطرهم وتسكيناً لقلوبهم وتنشيطاً لهم وتشجيعاً على هذا العمل القاضل ، وكما أن الامام والساعى مأمور بالدعاء للزكى عند أخذها فالفقير المحتاج اذا أعطيها من باب أولى أن يشرع له الدعاء للمعطى تسكيناً لقلبه ، وفى هذا اعانة على الخير .

ودل تغليب الآية الكريمة أن كل ما أعان على فعل الخير ونشط عليه وسكن قلب صاحبه

أنه مطلوب ومحبوب لله ، وأنه ينبغي للعبد مراعاته وملاحظته في كل شأن من شئونه ، فإن من تفتن له فتح له أبوابا نافعة له ولغيره بلا تعب ولا مشقة ، وأنه ينبغي ادخال السرور على المؤمنين ولما امر في آية البقرة بالنفقات قال « واعلموا أن الله غني حميد » غنى بذاته عن جميع المخلوقين وهو الغنى عن نفقات المنفقين وطاعات الطائعين ، وإنما أمرهم بها وحثهم عليها لمحض مصلحتهم ونفعهم ، وبمحض فضله وكرمه عليهم ، إذ تفضل عليهم بالأمر بهذه الأعمال والتوفيق لفعلها التي توصل أصحابها إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات . ومع كمال غناه وسعة عطاياه فهو الحميد فيما يشعره لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام ، وحميد في أفعاله التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة ، وحميد الأوصاف لأن أوصافه كلها محاسن وكالات لا يدرك العباد كنهها ولا يقدرونها حق قدرها . فلما حثهم على الاتفاق النافع نهاهم عن الامساك الضار ، وبين لهم أنهم بين داعيين : داعي الرحمن يدعوهم إلى الخير ويعدهم عليه الفضل والثواب العاجل والآجل ، وخلف ما أنفقوا . وداعى الشيطان الذي يحثهم على الامساك ويخوفهم إن أنفقوا افتقروا ، فمن كان مجيباً لداعى الرحمن وأنفق مما رزقه الله فليبشر بمغفرة الذنوب ، وحصول كل مطلوب ومن كان مجيباً لداعى الشيطان فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، فليختر العبد أى الامرين أليق به ، وختم الآية بالاخبار بأنه « واسم عليم » أى واسم الصفات كثير الهبات ، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين المخلصين الصادقين ، وعليم بمن هو أهل لذلك فيوفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات .

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)

المراد بالصدقات هنا الزكاة ، فهؤلاء الثمانية هم أهلها ، إذا دفعت إلى جهة من هذه الجهات أجزاء ووقعت موقعها ، وإن دفعت في غير هذه الجهات لم تجز ، وهؤلاء المذكورون فيها قسمان قسم يأخذ لحاجته كالفقراء والمساكين والرقاب وابن السبيل والغارم لنفسه ، وقسم يأخذ لنفعه العمومى والحاجة إليه ، وهم البقية . فأما الفقراء والمساكين فهم خلاف الأغنياء ، والفقير أشد حاجة من المسكين لأن الله بدأ به ، والأهم مقدم في الذكر غالبا ، ولكن الحاجة تجمع الصنفين « والعاملين عليها » وهم السعاة الذين يجيئونها ويكتبونها ويحفظونها ، ويقسمونها على أهلها فهم يعطون ولو كانوا أغنياء لأنها بمنزلة الأجرة في حقهم « والمؤلفة قلوبهم » وهم سادات العشائر والرؤساء الذين إذا أعطوا حصل في إعطائهم مصلحة للإسلام والمسلمين ، إما دفع شرهم عن المسلمين وإما رجاء إسلامهم وإسلام نظرائهم ، أو جبايتها ممن لا يعطيها أو يرجى قوة إيمانهم « وفي الرقاب » أى في فكها من الرق كإعانة المكاتبين وكبذلها في شراء الرقاب لعتقها

وفي فك الأسارى من المسلمين عند الأعداء «والغارمين» للإصلاح بين الناس إذا كان الصلح يتوقف على بذل مال فيعانون على القيام بهذه المهمة والمصلحة العظيمة وهي الإصلاح بين الناس ، ولو أغنياء ، ومن الغارمين من ركبهم ديون للناس وعجزوا عن وفائها فيعانون من الزكاة لوفائها (وفي سبيل الله) أى بذلها في إعانة المجاهدين بالزاد والمزاد والمركوب والسلاح ونحوها مما فيه إعانة المجاهدين ، ومن الجهاد التخلي لطلب العلم الشرعى والتجرد للاشتغال به (وابن السبيل) وهو الغريب المنقطع به في غير بلده فيعان على سفره من الزكاة

فإنه تعالى فرضها لهؤلاء الأصناف بحسب حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها ، فإن سد الكفايات وقيام المصالح العمومية النافعة من الفروض على المسلمين ، وهى على أهل الأموال شكر منهم لله تعالى على نعمته بالمال وتطهير لهم ولها ونماء وبركة واتصاف بصفات الأخيار ، وسلامة من نعوت الأشرار

فصل فى الطهارة بالماء والتيمم

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم - إلى قوله - لعلمكم تشكرون)

هذه الآيات جمع الله فيها أحكام طهارة الماء وطهارة التيمم والتنبيه على شروطها وبيان كيفيةاتها وذكر فوائد ذلك وثمراته الطيبة فبين فيها الأحكام وحكمها وأسرارها ، وهى أحكام كثيرة تستفاد من هذا الموضع

منها أن الطهارة من الحدثين شرط لصحة الصلاة لقوله (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) الخ ومنها أن ذلك عام للفرائض من الصلوات والنوافل ، فكل ما يسى صلاة فلا بد فيه من هذه الطهارة ومنها اشتراط النية للطهارة لقوله « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » أى لأجل الصلاة فإن المتطهر إما أن ينوى رفع ماعليه من الأحداث أو ينوى الصلاة ونحوها مما يحتاج إلى الطهارة ، أو ينويها

ومنها أن غسل هذه الأعضاء لا بد منه فى الحدث الأصغر ، فحد الوجه ما يدخل فى مساه وما تحصل به المواجهة ، وذلك من الأذن إلى الأذن عرضاً ، ومن منابت شعر الرأس إلى ما انحدر من اللحية والذقن طولاً مع مسترسل اللحية ، لأن هذا هو الذى تحصل به المواجهة ، وأما اليدين فقد حددهما الله الى المرفقين فقال العلماء إن « إلى » بمعنى مع المرفقين ، وأيدوا هذا بأن النبي صلى الله عليه وسلم أدار الماء على مرفقيه ، وكذلك يقال فى الرجلين إلى الكعبين ، وأما الرأس فإنه يتعين استيعاب مسحه فان الله امر بمسحه ، والباء للإصاق الذى يقتضى إصاق المسح بهذا المسوح ،

وليس للتبعض . ومنها أن الترتيب بين هذه الأعضاء الأربعة شرط ، لأن الله رتبها وأدخل عضواً ممسوحاً بين الأعضاء المغسولة ، ولا يعلم لهذا فائدة سوى الترتيب وعموم قوله ﷺ « ابدأ بما بدأ الله به » فهو وإن كان وارداً في الحج فإنه يعم كل شيء ، مع أن جميع الواصفين لوضوئه ﷺ ذكره مرتباً .

ومنها أن الموالاة شرط أيضاً ، ووجه ذلك أن الله تعالى ذكر الوضوء مقترناً ببعض الأعضاء ببعض بالواو الدالة على اجتماع هذه العبادة بوقت واحد ، فاذا فرقتها في وقتين لم تكن عبادة واحدة كما لو فرق الصلاة ، وبفعل النبي صلى الله عليه وسلم الدائم الذي كأنك تشاهده أنه كان يوالى بين أعضاء وضوئه ، وهذا أولى من استدلال كثير من أهل العلم بقصة صاحب اللمعة الذي أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يعيد الوضوء كله ، فهو وإن كان فيه بعض الدلالة على هذه المسألة ، لكن يحتمل أن أمره بالاعادة كأمر المسمى في صلاته أن يعيد ، لأنه رآه مغللاً بوضوئه غير متمم له .

ومنها بيان الطهارة الكبرى ، كيفيتها وذكر سببها ، فكيفيتها أن يطهر العبد جميع ظاهر بدنه بالماء لقوله (وإن كنتم جنباً فاطهروا) فلم يخصه بمضوء أو بأعضاء معينة ، بل جعل الله التطهير لجميع البدن ، فلي المتطهر أن يعم التطهير لجميع ظاهر بدنه وما تحت الشعور ، خفيفة أو كثيفة ، وأن يكون ذلك غسلًا لمسحاً .

ومنها أن طهارة الحدث الأكبر لا ترتب فيها ولا موالاة . ومنها أن من أسبابها الجنابة ، والجنابة قد عرفها المسلمون عن نبيهم صلى الله عليه وسلم أنها انزال المني يقظة أو مناماً وإن لم يكن جماع أو الجماع وإن لم يحصل انزال ، أو وجود الأمرين كليهما .

وقد بين الله أيضاً في سورة البقرة سبباً آخر للاغتسال وهو الحيض في قوله (ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) فأضاف التطهير فيها إلى البدن كله كالجنابة ، ويشمل ذلك النفاس ، وأما التطهير من اسلام الكافر وتطهير الميت فإنه يؤخذ من السنة .

ومنها ما استدل به كثير من أهل العلم في قراءة الجمر في قوله (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) أنها تدل على مسح الخفين الذي بينته السنة وصرحت به ، وأما قراءة النصب (في أرجلكم) فإنها معطوفة على المغسولات .

ومنها مشروعية التيمم ، وأن سببه أحد أمرين ، إما عدم الماء لقوله (فلم تجدوا ماء) أو التضرر باستعماله لقوله (وإن كنتم مرضى) فكل ضرر يعتري العبد إذا استعمل الماء ، فإنه يسوغ له العدول إلى التيمم ، وأنواع الضرر كثيرة ، وأما ذكر السفر فلأنه مظنة الحاجة إلى التيمم لفقد الماء كتمديد الرهن في السفر ، لا لأن السفر وحده مسوغ للتيمم كما ظنه بعض الناس وهو منافي

لقوله (فلم تجدوا ماء) ومنها أن التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض سواء كان له غبار أم لا ، إذا كان طيباً غير خبيث ، والخبيث هو النجس في هذا الموضع .

ومنها أن التيمم خاص بمضوئين ، بالوجه واليدين ، وأن اليدين عند الإطلاق وعدم التقييد هما الكفان كما في آية السركة ، وإذا قيدت كما في آية الوضوء إلى المرفقين تقيدت بذلك .

ومنها التذنيه على ما يوجب الطهارة الصغرى ، وهو الاتيان من الغائط ، يعنى خروج الخارج من أحد السبيلين وملامسة النساء لشهوة ، والسنة بينت الوضوء من النوم الكثير ، ولمس الفرج وأكل لحوم الابل على اختلاف من أهل العلم في ذلك .

ومنها أن التيمم كما أنه مشروع في الحدث الأصغر ، فكذلك في الحدث الأكبر ، لأن الله تعالى ذكره بعد سبب الطهارتين .

ومنها أنه في طهارة التيمم تستوى فيه الطهارة الصغرى بالكبرى في مسح العضوين فقط . ومنها أن الآية الكريمة تدل على أن طهارة التيمم تنوب وتقوم مقام طهارة الماء عند عدمه أو التضرر باستعماله ، لأن الله أنابه منابه وسماه طهارة .

وكذلك الأحاديث الكثيرة تدل على هذا ، وبهذا يعرف أن الصحيح أن طهارة التيمم لا تبطل بخروج وقت ولا دخوله ولا غير ذلك مما قاله كثير من أهل العلم . بل إنها تبطل بأحد أمرين : إما حصول ناقض من نواقض الطهارة ، وإما وجود الماء أو زوال الضرر المانع من استعمال الماء . ومنها أن الماء المتغير بالطهارات ، ولو تغيراً كثيراً ، أنه يجب تقديمه على طهارة التيمم ، لأن

قوله (فلم تجدوا ماء) نكرة في سياق النفي فيعم أى ماء سوى الماء النجس .

ومنها ما استدلل به كثير من أهل العلم أن من كان في موضع ليس فيه ماء وهو يشك في وجوده فيما يقاربه أن عليه أن يطلبه ويفتش فيما حوله قبل أن يعدل إلى التيمم ، لأن قوله (فلم تجدوا) لا يقال إلا بعد طلب ما يمكن طلبه فيه من دون مشقة ، وهو استدلال لطيف .

ومنها أنه لا بد في الطهارة من النية لقوله في طهارة الماء (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) إلى آخره وفي طهارة التيمم « فتييموا » أى اقصدوا « صعيداً طيباً » ومن لازم ذلك النية

ومنها أن هذه الأحكام التي شرعها الله لعباده إنما ذلك رحمة منه بعباده ليقوموا بالعبادات التي تتوقف سعادتهم وفلاحهم عليها ، وأنه يريد إتمام نعمته عليهم بالأوامر الشرعية التي لا مشقة فيها ولا حرج لينالوا الفضل العظيم من ربهم ، فمنه التفضل على عباده بالسبب والمسبب .

ومنها أن طهارة التيمم ، وإن لم يشاهد فيها نظافة حسية ، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال العبد لأمر الله ورسوله .

ومنها : القاعدة الكلية في قوله (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) وأن الحرج منفي شرعاً في جميع ما شرعه الله لعباده ، فأصل العبادات في غاية السهولة على المكافين ، ثم إذا عرضت فيها عوارض عجز أو مرض أو تعذر لبعض شروطها ، فإن الشارع يخففها تخفيفاً يناسب ذلك العارض .

ومنها : أن هذه الأحكام وغيرها من محاسن الدين الاسلامي ، لما فيها من المنافع للعباد في قلوبهم وأبدانهم وأخلاقهم ، والتقرب بها إلى الله ، والتوسل بها إلى ثوابه العاجل والآجل ، فجميع الأحكام من أكبر الأدلة على حسن دين الاسلام ، وأنه الدين الحق الذي فيه الصلاح والاصلاح ، وأن سعادة الدنيا والآخرة منوطة به ، مترتبة عليه ، فتأمل أحكام الله وما فيها من الحكم والأسرار والمنافع ودفع المضار ، نجد هذا مشاهداً فيها .

فصل في صلاة الجمعة والسفر والأذان

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانثشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازيين ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة ، والمبادرة إليها من حين ينادى لها ، والمراد بالسعي هنا : الاهتمام بها وعدم الاشتغال بغيرها ، لا المراد به العدو الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، عند المضي إلى الصلاة ، فالمشي إلى الصلاة بسكينة ووقار ، هو المراد بالسعي هنا (وذروا البيع) أي اتركوه في هذه الحالة التي أمرتم بالمضي فيها إلى الصلاة ، وإذا أمر بترك البيع الذي ترغب فيه النفوس ، وتحرص عليه ، فترك غيره من الشواغل من باب أولى ، كالصناعات وغيرها (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) حقائق الأمور وثمراتها ، وذلك الخير هو امتثال أمر الله ورسوله ، والاشتغال بهذه الفريضة ، التي هي من أهم الفرائض ، واكتساب خيرها وثوابها ، وما رتب الشارع على السعي لها والمبادرة والتقدم والوسائل ، والمتمات لها من الخير والثواب ، ولما في ذلك من اكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، فإن من أرذل الخصال الحرص والجشع الذي يحمل العبد على تقديم الكسب الدنيء على الخير الضروري ، ومن الخير أن من قدم أمر الله وآثر طاعته على هوى نفسه ، كان ذلك برهاناً لإيمانه ، ودليل رغبته ، وإنابته

إلى ربه ، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، ومن قدم هواه على طاعة مولاه ، فقد خسر دينه ، وتبع ذلك خسارة دنياه - وهذا الأمر بترك البيع موقت الى انقضاء الصلاة (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) لطلب المكاسب المباحة (وابتغوا من فضل الله) أى ينبغي للمؤمن الموفق وقت اشتغاله في مكاسب الدنيا ، أن يقصد بذلك الاستعانة على قيامه بالواجبات ، وأن يكون مستعيناً بالله في ذلك ، طالباً لفضله جاعلاً الرجاء والطمع في فضل الله نصب عينيه فان التعلق بالله والطمع في فضله من الايمان ومن العبادات ، ولما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله وطاعته أمر الله بالكثارة من ذكره ، فقال (واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) أى في حال قيامكم وعودكم وفي تصرفاتكم وأحوالكم كلها ، فان ذكر الله طريق الفلاح الذى هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب ، ومن المناسب في هذا أن يجعل المعاملة الحسنة والاحسان إلى الخلق نصب عينيه ، فان هذا من ذكر الله ، فكل ما قرب الى الله فانه من ذكره ، وكل أمر يحتسبه العبد فانه من ذكره ، فاذا فصح في معاملته وترك الغش تقرب في هذه المعاملة الى الله لأن الله يحبها ؛ ولأنها تمنع العبد من المعاملة الضارة وكلما سمح أحداً أو حابه في ثمن أو مئمن أو تيسير أو إنظار أو نحوه ، فانه من الاحسان والفضل ، وهو من ذكر الله . قال تعالى « ولا تنسوا الفضل بينكم » « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً » أى خرجوا من المسجد حرصاً على تلك التجارة واللهو ، وتركوا ذلك الخير الحاضر ، حتى انهم تركوا النبي ﷺ قائماً يخطب ، وذلك لحاجتهم لتلك العير التي قدمت المدينة ، وقبل أن يعلموا حق العلم ما في ذلك من الذم وسوء الأدب ، فاجتمع الأمرين حملهم على ما ذكر ؛ وإلا فهم رضى الله عنهم كانوا أرغب الناس في الخير ، وأعظمهم حرصاً على الأخذ عن الرسول وعلى توقيره وتبجيله وحلهم المعلومة في ذلك أكبر شاهد ، ولكن لكل جواد كبوة ، ثم إن الكبوة التي عوتب عليها العبد ؛ وتاب منها وأتاب وغفرها الله وأبدل مكانها حسنة ، لا يحل لأحد اللوم عليها ، قل لمن قدم اللهو والتجارة على الطاعة : ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، التي وإن حصل منها بعض المقاصد فان ذلك قليل منغص مفوت بخير الآخرة ، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق ؛ فان الله خير الرازقين ، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب ، ومن قدم الاشتغال بالتجارة على طاعة الله ، لم يبارك له في ذلك ، وكان هذا دليلاً على خلو قلبه من ابتغاء الفضل من الله ، واقطاع قلبه عن ربه وتعلقه بالأسباب وهذا ضرر محض يعقب الخسران . وفي هذه الآيات فوائد عديدة . منها : أن الجمعة فريضة على المؤمنين يجب عليهم السعي لها والاهتمام بشأنها ، وأن الخيرات المترتبة عليها لا يقابلها شيء .

ومنها مشروعية الخطبتين ، وأنهما فريضتان ، وأن المشروع أن يكون الخطيب قائماً ، لأن قوله (واسعوا الى ذكر الله) يشمل السعى الى الصلاة وإلى الخطبتين ، وأيضاً فإن الله ذم من ترك استماع الخطبة .

ومنها : مشروعية النداء يوم الجمعة وغيرها ، لأن التقييد بيوم الجمعة دليل على أن هناك نداء لبقية الصلوات الخمس ، كما قال تعالى (وإذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً)

ومنها : النهي عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة ، وذلك يدل على التحريم وعدم النفوذ .
ومنها : أن الوسائل لها أحكام المقاصد ، فإن البيع في الأصل مباح ، ولكن لما كان وسيلة لترك الواجب نهى الله عنه .

ومنها : تحريم الكلام والامام يخطب ، لأنه اذا كان الاشتغال بالبيع ونحوه ، ولو كان المشتغل بعيداً عن سماع الخطبة محرماً ، فمن كان حاضراً تعين عليه أن لا يشتغل بغير الاستماع ، كما أيد هذا الاستنباط الأحاديث الكثيرة :

ومنها : أن المشتغل بعبادة الله وطاعته إذا رأى من نفسه الطموح إلى ما يلهيها عن هذا الخير من اللذات الدنيوية والحظوظ النفسية شرع أن يذكرها ما عند الله من الخيرات ، وما لمؤثر الدين على الهوى ، وما يترتب من الضرر والخسران على ضده .

(وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، ان الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً)

أى اذا سافرتم في الأرض لتجارة أو عبادة أو غيرها ، فقد خفف الله عنكم ورفع عنكم الجناح وأباح لكم بل أحب لكم أن تقصروا الصلاة الرباعية الى ركعتين ، فان حصل مع ذلك خوف ، فلا حرج في قصر كيفية الصلوات كلها ، وهذا والله أعلم بالحكمة في تقييد القصر بالخوف ، لأنه من المعلوم المتواتر عن النبي ﷺ جواز القصر في السفر ، ولو كان ليس فيه خوف ، ولكن اذا اجتمع السفر والخوف ، كان رخصة في قصر العدد للرباعية والهيئة لغيرها ، فان وجد الخوف وحده ، ترتب عليه قصر الهيئات على الصفة التي ثبتت عن النبي ﷺ ، وإن وجد السفر وحده ، لم يكن فيه إلا قصر العدد ، ولهذا لما سئل النبي ﷺ عن هذا القيد قال : صدقة تصدق الله عليكم بها ، فاقبلوا صدقته ، أو يقال هذا القصر المذكور في الآية السكرية مطلق ، والسنة عن النبي (ص) تقييده وتبين المراد به .

﴿ ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾

أى ولا تصل على أحد مات من المناقبين ولا تقم على قبره بعد الدفن لتدعو له ، فإن الصلاة عليهم والوقوف على قبورهم للدعاء لهم شفاعتهم وهم لا تنفع فيهم الشفاعة (إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) خارجون عن دين الله بالكيفية ، ومن كان كافراً ومات على ذلك فما تنفعه شفاعته الشافعين ، وفي ذلك عبرة لغيرهم وزجر ونكال لهم ، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق فإنه لا يصلى عليه ولا يدعى له بالمغفرة ، وفي هذه الآية مشروعية الصلاة على المؤمنين والوقوف على قبورهم ، خصوصاً وقت دفنهم للدعاء لهم ، وإن هذا كان عادته صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ، وقد بينت السنة وجوب تجهيز الميت المسلم بالتغسيل والتكفين والصلاة عليه وحمله ودفنه كما هو معلوم .

« فصل فى الصيام وتوابه »

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) الى قوله (ولتكمّلوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون)

يخبر تعالى بمنته على عباده المؤمنين بفرضه عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة ، لأنه من الشرائع الكبار التي هي مصلحة للخلق في كل زمان ، وفي هذا حث للأمة أن ينافسوا الأمم في المسارعة اليه وتكميله وبيان عموم مصاحته وثمراته التي لا تستغنى عنها جميع الأمم ، ثم ذكر حكيمته بقوله (لعلكم تتقون) فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى ، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، فالصيام هو الطريق الأعظم للوصول إلى هذه الغاية التي فيها سعادة العبد في دينه ودنياه وآخرته ، فالصائم يتقرب إلى الله بترك المشتهيات تقدماً لمحبة ربه على محبة نفسه ، ولهذا اختصه الله من بين الأعمال حيث أضافه إلى نفسه في الحديث الصحيح ، وهو من أعظم أصول التقوى ، فإن الاسلام والايمان لا يتم بدونيه .

وفيه من حصول زيادة الايمان والتمرن على الصبر والمشقات المقربة إلى رب العالمين ، وأنه سبب لكثرة الطاعات من صلاة وقراءة وذكر وصدقة وغيرها ما يحقق التقوى ، وفيه من زرع النفس عن الامور المحرمة من أقوال وأفعال ما هو من أصول التقوى .

ومنها أن في الصيام من مراقبة الله بترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه ، لعلمه باطلاع ربه عليه ما ليس في غيره ، ولا ريب أن هذا من أعظم عون على التقوى .

ومنها أن الصيام يضيق مجارى الشيطان «فانه يجري من ابن آدم مجرى الدم» فبالصيام يضعف نفوذه وتقل معاصي العبد .

ومنها أن الغنى إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك وجهه على مواساة الفقراء المعدمين ، وهذا كله من خصال التقوى .

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام أخبر أنها أيام معدودات ، أى قليلة سهلة ، ومن سهولتها أنها في شهر معين يشترك فيه جميع المسلمين ، ولا ريب أن الاشتراك هذا من المهنات المسهلات ومن أطفاف المولى ومعونته للصائمين ، ثم سهل تسهلاً آخر فقال « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » وذلك للمشقة غالباً رخص الله لها في الفطر ، ولما كان لا بد من تحصيل العبد لمصلحة الصيام أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض وانقضى السفر وحصلت الراحة وفي قوله (فعدة من أيام أخر) دليل على أنه يقضى عدد أيام رمضان كاملاً كان أو ناقصاً ، وعلى أنه يجوز أن يقضى أياماً قصيرة باردة ، عن أيام طويلة حارة كالعكس .

وبهذا أجبنا عن سؤال ورد علينا : أنه يوجد مسلمون في بعض البلاد التي يكون في بعض الاوقات ليلاً نحو أربع ساعات أو تنقص ، فيوافق ذلك رمضان ، فهل لهم رخصة في الاطعام إذا كانوا يعجزون عن تسميها

فأجبنا : إن العاجز منهم في هذا الوقت يؤخره إلى وقت آخر يقصر فيه النهار ويتمكن فيه من الصيام كما أمر الله بذلك المريض ، بل هذا أولى ، وأن الذي يقدر على الصيام في هذه الأيام الطوال يلزمه ولا يحل له تأخيرها إذا كان صحيحاً مقبلاً ، هذا حاصل الجواب .

وقوله (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قيل هذا في أول الأمر وفي ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير معتادين للصيام ، وكان ابتداء فرضه حتماً فيه مشقة عليهم ، درجهم الرب الحكيم بأسهل ما يكون ، وخير المطيق للصوم بين أن يصوم ، وهو الأفضل الأكمل ، أو يطعم ويجزيه ، ثم لما تمرنوا على الصيام وكان ضرورياً على المطيقين فرضه عليهم حتماً . وقيل إن قوله (وعلى الذين يطيقونه) أى يتكفون الصيام ويشق عليهم مشقة لا تحتل ، كالكبير والمريض الميثوس من برئه فدية طعام مسكين عن كل يوم يفطره .

وقوله (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) أى الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان ، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم من الله فيه الفضل العظيم ، وهو إنزال القرآن الذي فيه هدايتكم لجميع مصالحكم الدينية والدنيوية ، وفيه بيان الحق وتوضيحه ، والفرقان بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ، فحقيق بشهر هذا فضله ، وهذا إحسان الله العظيم فيه عايكم أن يكون معظماً محترماً موسماً للعباد مفروضاً فيه الصيام ؛ فلما قرر فرضيته وبين حكمته في ذلك وفي تخصيصه قال (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أى من حضر الشهر وهو قادر تحتم عليه صيامه (ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) أعاد ذلك تأكيداً له ، ولئلا يظن أنه

أيضاً منسوخ مع ما نسخ من التخيير للقادر (يريد الله بكم اليسر) أى يريد الله أن يسر ويسهل عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ليسهل سلوكها ، ويعين عليها بكل وسيلة ليرغب فيها العباد ؛ وهذا أصل عظيم من أصول الشريعة ، بل الشريعة كلها تدور على هذا الأصل ، فإن جميع الأوامر لا تشق على المكافين ، وإذا حصل بعض المشاق والعجز خفف الشارع من الواجبات بحسب ما يناسب ذلك ، فيدخل فى هذا جميع التخفيفات فى جواز الفطر ، وتخفيفات السفر والأعذار لترك الجمعة والجماعة .

وقوله (ولتكمّلوا العدة) وذلك لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود ببعضه دفع هذا الوهم بقوله (ولتكمّلوا العدة) وأمر بشكره على إتمامه ، لأن من أكبر منن الله على عبده توفيقه لإتمامه وتكميله وتبيين أحكامه للعبيد (ولتكبروا الله على ما هداكم) هداية التعلم وهداية التوفيق والارشاد .

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ؛ وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون ﴾

هذا سؤال وجواب ، أى إذا سألك العباد عن ربهم ، وبأى طريق يدركون منه مطالبهم ، فأجيبهم بهذا الجواب الذى يأخذ بمجامع القلوب ، ويوجب أن يعلق العبد بربه بكل مطلوب دينى ودنىوى ، فأخبرهم أن الله قريب من الداعين ، ليس على بابه حجاب ولا بواب ، ولا دونه مانع فى أى وقت وأى حال ، فإذا أتى العبد بالسبب والوسيلة ، وهو الدعاء لله المقرون بالاستجابة له بالايان به والانقياد لطاعته ، فليبشر بالاجابة فى دعاء الطلب والمسئلة ، وبالثواب والاجر والرشد إذا دعا دعاء العبادة ، وكل القربات الظاهرة والباطنة تدخل فى دعاء العبادة ، لأن المتعبد لله طالب بلسان مقاله ولسان حاله من ربه قبول تلك العبادة والاثابة عليها .

وفى هذه الآية تنبيه على الاسباب الموجبة لاجابة الدعاء التى مدارها على الايمان بالله وتحقيقه بالانقياد لله امتثالاً لأمره واجتناباً لنهيهِ ، وتنبيه أيضاً على أن موانع الاجابة ترك تحقيق الايمان وترك الانقياد ، فأكل الحرام وعمل المعاصى من موانع الاجابة ، وهى تنافى الاستجابة لله ، وفيه تنبيه على أن الايمان بالله والاستجابة له سبب إلى حصول العلم ، لأن الرشد هو الهدى التام علماً وعملاً ، ونظير هذا قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » أى علماً تفرقون به بين الحق والباطل وبين كل ما يحتاج الى تفصيله .

﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم — إلى قوله — كذلك بين الله آياته للناس لعلمهم يتقون ﴾

كان أول ما فرض الصيام منع المسلمون من الأكل والشرب في الليل إذا ناموا ، فحصلت المشقة لكثير منهم ، فخفف الله ذلك وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع ، سواء نام أو لم ينام ، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به لو بقي الأمر على ما كان أولاً ، فعاب الله عليكم بأن وسع لكم أمراً لولا توسعته لكان داعياً إلى الانتم والاقدام على المعاصي . وعفا عنكم ما سلف من التخون .

فالآن بعد هذه الرخصة والسعة من الله (باشروهن) وطئاً وقبلة ولساً (وابتنوا ما كتب الله عليكم) أي اقصدوا في مباشرتكم لزوجاتكم اتقرب إلى الله بذلك ، واقصدوا أيضاً حصول الذرية واعفاف الفرج وحصول جميع مقاصد النكاح ، وابتنوا أيضاً ليلة القدر ، فإياكم أن تشتغلوا بهذه اللذة وتوابعها وتضيعوا ليلة القدر ، وهي مما كتبه الله لهذه الأمة ، وفيها من الخير العظيم ما يعد تفويته من أعظم الخسران ، فاللذة مدركة ، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك ، ولم يعوض عنها شيء (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) هذا غايه جواز الأكل والشرب والجماع في ليالي الصيام ، وفيه أن هذه الثلاثة إذا وقعت وصاحبها شاك في طلوع الفجر فلا حرج عليه ، ودليل على استحباب السحور ، وأنه يستحب تأخيرها أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد ، ودليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل لأن من لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر أن يدركه الفجر وهو جنب ، ولازم الحق حق ، ثم إذا طلع الفجر أتموا الصيام ، أي أمسكوا عن المفطرات إلى الليل ، وهو غروب الشمس

ولما كانت إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحة عامة لكل أحد ، استثنى تعالى المعتكف بقوله (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) أي وأنتم متصرفون بذلك ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف ، وهو لزوم المساجد لطاعة الله ، وإن الاعتكاف لا يصح إلا بمسجد ، ويستفاد من تعريف المساجد بالآلاف واللام أنها المساجد التي يعرفها المسلمون ، وأنها التي تقام فيها الصلوات الخمس وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف ، تلك المذكورات وهي تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوها من مفطرات الصيام ، وتحريم الوطء على المعتكف ونحو ذلك من المحرمات التي حدها لعباده ونهاهم عنها « فلا تقربوها » أي لا تفعلوها ولا تحوموا حولها وتفعلوا وسائلها ، والعبد مأمور بترك المحرمات والبعد عنها بترك كل وسيلة تدعو إليها .

وأما الأوامر فيقول الله فيها « تلك حدود الله فلا تعتدوها » فينها عن مجاوزتها ، كذلك البيان السابق والتوضيح التام من الله لعباده « يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » فان العلم الصحيح سبب للتقوى لأنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه ، وإذا بان لهم الباطل اجتنبوه ، ومن علم الحق فتركه والباطل فاتبعه كان أعظم لجرمه وأشد لاثمه .

(فصل فى الحج وتوابعه)

قال الله تعالى ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين ﴾ وقال ﴿ وآتوا الحج والعمرة لله ﴾ إلى آخر الآيات المتعلقة بالحج

لما قال الله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ؛ فيه آيات بينات ، مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً) وكان فى ذلك تنبيه على الحكم والأسرار والمصالح والبركات المتنوعة المحتوى هذا البيت العظيم عليها ، وكان ذلك داعياً إلى تعظيمه بغاية ما يمكن من التعظيم أوجب الله على العباد حجّه وقصده لاداء المناسك التى فعلها رسول الله ﷺ وعلمها أمته وأمرهم أن يأخذوا عنه مناسكهم ، فأوجبه على من استطاع اليه سبيلا ، بأن قدر على الوصول اليه بأى مركوب متيسر ويزاد يتزوده ويتم به السبيل ، وهذا هو الشرط الأعظم لوجوب الحج وهذه الآية صريحة فى فرضية الحج ، وأنه لا يتم للعبد اسلام ولا إيمان وهو مستطيع الإبحج ، وأن الله إنما أمر به العباد رحمة منه بهم وإيصالا لهم إلى أجل مصالحهم وأعلى مطالبهم ، وإلا فالله غنى عن العالمين وطاعتهم ، فمن كفر فلم يلتزم لشرع الله فهو كافر ولن يضر إلا نفسه

وأما آية البقرة فان الله أمر فيها بإتمام الحج والعمرة بأركانها وشروطها وجميع متماتها ، ولا فرق فى ذلك بين الفرض والنفل ، وبهذا تميز الحج والعمرة عن غيرها من العبادات ؛ وإن من شرع فيها وجب عليه إتمامها لله مخلصاً ، ويدخل فى الأمر بإتمامها أنه ينبغي للعبد أن يجتهد غاية الاجتهاد فى فعل كل قول وفعل ووصف وحالة بها تمام الحج والعمرة ، وذلك شئ كثير مفصل فى كتب أهل العلم ، وأن من دخل فيها فلا يخرج منها إلا بإتمامها والتحلل منها إلا بما استثناه الله وهو الحصر ، ولهذا قال (فان أحصرتم) أى منعتم من الوصول إلى البيت ومن تميم المناسك بمرض أو عدو أو ذهاب نفقة أو ضلتم الطريق أو غير ذلك من أنواع الحصر الداخلة فى عموم قوله (أحصرتم) فاذبحوا ما تيسر من الهدى وهو شاة أو سبع بدنة أو سبع بقرة يذبحها المحصر ويحلق رأسه ويحل من إحرامه بسبب الحصر ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما صدمهم المشركون عن البيت وهم محرمون عام الحديبية ، فان لم يتيسر الهدى على المحصر فهل يكفيه الحلق وحده ويحل ، كما فعله الصحابة الذين لم يكن معهم هدى ، وهو الصحيح ، أو ينوب عن الهدى صيام عشرة أيام قياساً على هدى التمتع كما قاله آخرون ثم يحل ؟ ثم قال تعالى (ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله)

وفى هذا أن المحرم يحرم عليه إزالة شئ من شعر بدنه تعظيماً لهذا النسك ، وقاس عليه أهل العلم

ازالة الأظفار بجامع الترفه ، ويستمر المنع من ذلك حتى يبلغ الهدى محله ، وهو وقت ذبحه يوم النحر ، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر ، ويجوز أن يقدم الحلق على النحر كما رخص في ذلك النبي ﷺ حين سئل عن قدم الحلق أو الرمي أو الذبح أو الطواف بعضها على بعض . فقال افعل ولا حرج .

ويستدل بالآية الكريمة على أن المتمتع كالقارن والمفرد لا يحل من عمرته إذا كان سائقاً للهدى حتى يبلغ الهدى محله ، قيل إنه إذا حل من عمرته بأن فرغ من الطواف والسعي بادر بالدخول بالحج بالنية ، وقيل إنه بسوقه للهدى صار قارناً ، وأن الهدى الذي استصحبه حيث أنه كان للنسكين كليهما مزج بين النسكين وصار صاحبه قارناً ، وهذا هو القول الصواب ، وإنما منع تعالى من الحل لمن ساق الهدى قبل محله ، لما في سوق الهدى وما يتبعه من كشف الرأس وترك أخذ الشعور ونحوها من الذل والخضوع لله والانكسار له والتواضع الذي هو روح هذا النسك وعين صلاح العبد وكماله ، وليس عليه في ذلك ضرر ، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من رأسه من مرض ينتفع بحلق رأسه أو قروح أو قمل أو نحو ذلك ، فانه يحل له أن يحلق رأسه ، ولكن يكون عليه فدية تخيير ، بخير بين صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين ، أو ذبح شاة ، وهذه تسمى فدية الأذى وألحق بذلك إذا قلم أظفاره ، أو لبس الذكر الخيط ، أو غطي رأسه ، أو تطيب المحرم من ذكر وأنثى ، فكل هذا فديته فدية تخيير بين الصيام أو الأطعام أو النسك

وأما فدية قتل الصيد فقد ذكر الله التخيير فيها بين ذبح المثل من النعم أو تقويمه بطعام فيطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره ، أو يصوم عن أطعام كل مسكين يوماً ، فهذه الأنواع فديتها تخيير .

وأما المتمتع والقارن ، فان هديهما هدى نسك ، غير هدى جبران ، وهو على الترتيب ، إن تيسر الهدى وجب الهدى ، فان لم يتيسر فعليه صيام عشرة أيام ، ثلاثة في الحج ولا يؤخرها عن أيام التشريق ، وسبعة إذا رجع - أي فرغ من جميع شئون النسك - ودل اطلاق إيجاب الصيام على أنه يجوز فيها التتابع والتفريق (ذلك) أي وجوب الهدى على المتمتع والقارن ، أو بدله لمن لم يجد من الصيام ، لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ، وهم الأقيمة ، لأن من الحكمة في إيجاب الهدى على الأفي أن لما حصل نسكين في سفرة واحدة كان هذا من أعظم نعم الله ، فكان عليه أن يشكر الله على هذه النعمة الجليلة ، ومن جملة الشكر إيجاب الهدى عليه .

وأما المقيمون في مكة أو كانوا في قربها بحيث لا يقال لهم مسافرون ، فليس عليهم هدى ولا بدله لما ذكرنا من الحكمة (واثقوا الله) في جميع أموركم بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، ومن ذلك امتثالكم لهذه الأمور في هذه العبادة الجليلة واجتنابكم لمخزوراتها (واعلموا أن الله

شديد العقاب) أى لمن عصاه ، وذلك موجب للتقوى ، فان من خاف عقاب الله انكشف عن السيئات ، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب ، وأما من لم يخف الله فانه لا بد أن يتجرأ على المحارم ويتهاون بالفرائض .

ثم أخبر تعالى ان الحج واقع فى أشهر معلومات عند المخاطبين ، بحيث لا تحتاج إلى تعيين كما احتاج الصيام لتعيين شهره ، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس ، وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التى لم تزل مستمرة فى ذريته معروفة بينهم ، والمراد بالأشهر المعلومات عند الجمهور: شوال وذو القعدة ، وعشر أو ثلاثة عشر من ذى الحجة ، فهى التى يقع فيها الاحرام بالحج غالباً ، وهى التى تقع فيها أفعال الحج ، أركانه وواجباته ومكملاته ، فمن فرض فيهن الحج أى عهده وأحرم به ، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً ولو كان قبل ذلك نفلاً .

واستدل بهذه الآية الشافعى ومن قال بقوله : انه لا يجوز الاحرام بالحج قبل أشهره ، ولو قيل إن الآية فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الاحرام بالحج قبل أشهره لكان قريباً ، لأن قولاً (فمن فرض فيهن الحج) دليل على أنه يقع الفرض فيهن وفى غيرهن ، وإلا لما كان فى التقييد فائدة « فلا رقت ولا فسوق ولا جدال فى الحج » أى يجب عليكم أن تعظموا حرمة الاحرام بالحج ، وخصوصاً الواقع فى أشهره ، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرقت ، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية ، خصوصاً التكلم فى أمور النكاح بمحضرة النساء « ولا فسوق » وهو جميع المعاصى ، ومنها محظورات الاحرام « ولا جدال » والجدال هو الماراة والمنازعة والمخاصمة لكونها تثير الشر وتوقع العداوة ، والمقصود من الحج الذل والانكسار لله والتقرب اليه بما أمكن من القربات والتزهد عن مقارفة السيئات ، فانه يكون بذلك مبروراً ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ؛ وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة فى كل زمان ومكان ، فانه يتأكد المنع منها فى الحج . واعلم أنه لا يتم التقرب الى الله بترك المعاصى حتى يفعل الأوامر فهذا أتبعه بقوا (وما فعلوا من خير يعلمه الله) أتى بمن المفيدة لتنصيب الموم فكل عبادة وقربة فانها تدخل فى هذا ، والاعمال بعلمه يتضمن الحث على أفعال الخير خصوصاً فى تلك البقاع الشريفة والحرمت المنيفة فانه ينبغى اغتنام الخيرات والمنافسة فيها من صلاة وصيام وصدقة وقرآن وطواف واحسان قولى وفعلى (وتزودوا) لهذا السفر المبارك فان التزود فيه الاستغناء عن الخلق وعدم التشوف لما عندهم واعانة المسافرين والتوسعة على الرفقة والانبساط والسرور فى هذا السفر وزيادة التقرب الى الله تعالى وهذا الزاد المراد به اقامة البنية بلغة ومتاع وأما الزاد الحقيقى المستمر نفعه لصاحبه فى دنياه وأخراه فهو زاد التقوى الذى هو زاد الى دار القرار وهو الموصل لكل لذة وأجل نعيم دائماً أبداً ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به الذى هو عرصة لكل شر وممنوع من الوصول الى دار المتقين وقد يتمكن

الموفق من جعل الزاد الحسى يجمع الزادين بأن يقصد به وجه الله والقيام بواجب النفس والرفقة ومن يتصل به ، والقيام بالاحسان المستحب وقصد امتثال أمر الله ، فالنية هى الأساس لكل خير التى تجعل الناقص كاملاً والعادة عبادة ، ثم قال « واتقون يا أولى الألباب » أى يا أهل العقول الزينة اتقوا ربكم الذى تقواه أعظم ما تأمر به العقول ، وتركها دليل على فساد العقل والرأى .

ولما أمر بتقواه أخبر أن ابتغاء فضله بالاشتغال بالتكسب فى التجارة فى مواسم الحج وغيرها ، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله معترفاً فيه بنعمة الله ، لا منسوباً إلى حذق العبد والوقوف مع السبب ونسيان المسبب ، فإن هذا هو الحرج بعينه فى كل وقت ، فكيف إذا قارن النسك الفاضل ، وفى قوله « فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » دلالة على أمور :

أحدها : أن الوقوف بعرفة من المشاعر الجليلة ، ومن أركان الحج ، فإن الإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف الذى هو ركن الحج الأعظم بعد الطواف .

الثانى : الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام ، وهو المزدلفة ، وذلك أيضاً معروف يكون الحاج ليلة النحر بائناً بها ، وبعد صلاة الفجر يقف فى المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً .

ويدخل فى ذكر الله عند المشعر الحرام ما يقم فى المشعر من الصلوات فرضها وتلقاها الثالث : أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة ، كما تدل عليه الفاء المفيدة للترتيب الرابع والخامس : أن عرفات ومزدلفة كليهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها .

السادس : أن مزدلفة فى الحرم كما قيده بالمشعر الحرام

السابع : أن عرفة بالحل كما هو مفهوم التقييد بمزدلفة « واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين » أى اذكروا الله كما من عليكم بالهداية بعد الضلالة ، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فهذه من أكبر النعم التى يجب شكرها ومقابلتها بالكثير من ذكر المنعم بالقلب واللسان « ثم أفيضوا » أى من مزدلفة من حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم إلى هذا الوقت والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم ، وهو رمى الجمار وذبح الهدايا والطواف والسعى والمبيت بمنى ليالى أيام التشريق ، وتكميل بقية المناسك .

ولما كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكره ، والمذكورات آخر المناسك ، أمر تعالى بعد الفراغ منها باستغفاره ، خشية الخلل الواقع من العبد فى أداء العبادة وتقصيره فيها ، وبالكثير من ذكره شكراً له على نعمة التوفيق لهذه العبادة العظيمة وتكميلها ، وهكذا ينبغى للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير ويشكره على التوفيق ، فهذا حقيق بأن الله يجبر له ما نقص منها ويتقبلها ويزيده نعماً أخرى ، لا من جهل حق ربه فرأى نفسه أنه قد كل حقوق

العبادة فأعجب بنفسه ومنّ بعبادته على ربه ، وتراعى له أنه قد جمعت له محلا ومنزلة رفيعة ،
فهذا حقيق بالمقت ويخشى عليه من رد العمل .

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق ، وأن الجميع يسألونه مطالبهم ، ويستدفعونه ما يضرهم ،
ولكن همهم ومقاصدهم متباينة ، فمنهم من يقول « ربنا آتنا في الدنيا » أى يسأل ربه من
مطالب دنياه وشهواته فقط « وما له في الآخرة من خلاق » لا رغبة له فيها ولا حظ له منها ،
ومنهم على الهمة من يدعو الله لمصلحة الدارين ، ويفتقر الى ربه في مهمات دينه ودنياه ، وكل
من هؤلاء وهؤلاء له نصيب من كسبهم وعملهم ، وسيجازيهم الله على حسب أعمالهم ونياتهم ،
جزاء دائراً بين الفضل والاحسان والكرم للمقبولين ، وبين العدل والحكمة لغيرهم ، وفي هذه
الآية دليل على أن الله تعالى يقبل دعوة كل داع مسداً كان أو كافراً برأ أو فاجراً ، ولكن ليست
اجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته وقربه منه إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين ، فمن
أجبت دعوته في هذه الأمور الدائم فنعما كان من البشرى ، وكان أكبر دليل على بره
وقربه من ربه .

والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد وما به تكمل حياته ،
من رزق هنيء واسع حلال ، وزوجة سالحة ، وولد تقرأ به العين ، ومن راحة وعلم نافع وعمل
صالح ، وما يقيم ذلك من المطالب النافعة المحبوبة والمباحة .

وأما حسنة الآخرة ، فهي السلامة من العقوبات التي يستقبلها العباد من عذاب القبر
والموقف وعذاب النار ، وحصول رضا الله والفوز بالنعيم المقيم والقرب من الرب الرحيم ،
فهذا الدعاء أجمع الادعية وأكملها وأولاها بالاثار ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر
من الدعاء به ويحث عليه

ولما أكمل الله تعالى أحكام النسك أمر بالاكثار من ذكره في الأيام الممدودات . وهي أيام
التشريق في قول جمهور المفسرين ، وذلك لمزيتها وشرفها وكون بقية المناسك تفعل بها ،
والكون الناس فيها أضيافاً لله ، ولهذا حرم صيامها ، فلذلك فيها مزية ليست لغيرها ، ولهذا
قال النبي صلى الله عليه وسلم « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله » ويدخل في ذكر الله
رمى الجمار والتكبير عند رميها ، والدعاء بين الجمرتين ، والذبح والتسمية فيه ، والصلوات التي
تفعل فيها من فرائض ونوافل ، والذكر المقيد بعد الفرائض فيها ، وعند كثير من أهل العلم
أنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر ، فجميع ما يقرب إلى الله داخل بذكره (فمن تعجل في
يومين) أى خرج من منى ونفر منها قبل غروب الشمس فلا إثم عليه ، ومن تأخر بأن بات بها
ليلة الثالث من أيام التشريق ليرى من غده فلا إثم عليه ، وهذا تخفيف من الله على عباده حين

أباح الأمرين مع أن التأخر أرجح لموافقته فعل النبي ﷺ وزيادة العبادات ، وقوله (لمن اتقى) هذا من الاحتراز العالى ، لأن نفي الحرج يوم العموم ، فقليل ذلك بهذا الشرط الذى هو شرط لنفي الحرج فى كل شئ ، (واتقوا الله) بامتنال أوامره واجتناب نواهيه (واعلموا أنكم اليه تحشرون) فجازيكم بأعمالكم ، فمن اتقاه وجد عنده جزاء المثقين ، ومن لم يتقه عاقبه عقوبة تارك التقوى ، فإن التقوى هى ميزان الثواب والعقاب فى القائم بها والمضيع لها ، فالعلم بالجزاء والایمان به هو أعظم الدواعى للقيام بالتقوى .

وإذ بوأنا لإبراهيم مكاناً نبيت أن لا تشرك بي شيئاً؛ وطهر بيتى للطائفين
والقائمين والركع السجود

يذكر الله تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته ، وعظمة بانيه ، وهو خليل الرحمن فقال « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » أى هيئناه له وأزلناه إياه ، بحيث جعل قسماً من ذريته هم سكانه وأمره الله بينيانه ، فبناه وأسس على تقوى الله ورضوانه هو وابنه اسماعيل بنية صادقة وخضوع لله وإخلاص ودعاء منهما أن يتقبل منهما هذا العمل الجليل ، فتقبله الله .

فهذه آثار القبول لهذا البيت فى كل وقت وجيل متواصلة ، ووصاه بأن لا يشرك به شيئاً ، بأن ينفي الشرك عنه وعن ذريته وعن من وصلت اليه دعوته « وطهر بيتى » أى من الشرك والمعاصى ، ومن الانجاس والأدناس ، وأضافه إلى نفسه ليكتسب شرفاً إلى شرفه ، ولتعظم محبته فى القلوب ، لا كونه بيت محبوبها الأعظم ، وتنصب وتهوى اليه الأفئدة من كل جانب وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه للطائفين به ، والقائمين عنده للعبادات المتنوعة « والركع السجود » أى المصلين ، أى طهره لهؤلاء الفضلاء الذين ليس لهم هم إلا طاعة مولاهم وما يقرهم اليه ، فهؤلاء لهم الحق ، ومن أكرامهم تطهير هذا البيت لهم وهيئته لما يريدونه عنده ، ويدخل فى تطهيره ، تطهيره من الأصوات اللاغية المرتفعة التى تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف والقراءة وغيرها ، وقدم الطواف لاختصاصه بهذا البيت ، ثم الاعتكاف لاختصاصه بمجنس المساجد (وأذن فى الناس بالحج) أى أعلمهم به وأدعهم اليه ، وبلغ دانيهم وقاصيهم فرضه وفضيلته ، فانك إذا دعوتهم عن أمر الله أتوك حجاً اجاً وعماراً « رجالاً » أى مشاة على أرجلهم من الشوق « وعلى كل ضامر » أى نافقة ضامر تقطع المهامه والمفاوز وتواصل السير حتى تأتى إلى أشرف الأماكن « من كل فج عميق » أى مكان وبلد بعيد ، وقد فعل الخليل صلى الله عليه وسلم ذلك ، ثم من بعده ابنه محمد صلى الله عليه وسلم فدعيا الناس إلى حج هذا البيت ، وأبدىا وأعادا فيه فحصل ما وعد الله به ، أناه الناس رجالاً وركبانا من مشارق الارض ومغاربها ؛

ثم ذكر فوائد زيارة بيت الحرام مرغبا فيه فقال (ليشهدوا منافع لهم) أى لينالوا بوصولهم لبيت الله فى الانسك منافع متنوعة دينية ، ومنافع دنيوية كالتكسب وحصول الارباح ، وهذا أمر مشاهد يعرفه كل أحد ، فجميع العلوم والعبادات الدينية التى تفعل فى تلك البقاع الفاضلة ، وما جعل الله لها من التضعيف داخل فى هذه المنافع ، وجميع المنافع الدنيوية التى لا تعد ولا تحصى داخل فى ذلك فصدق الله وعده ، وأنجز ما قاله ، وكان ذلك آية وبرهانا على توحيد: وصدق رسله

وقوله (وذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) وهذه تجمع الأمرين : الدينية والدنيوية أى ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكراً لله على ما رزقهم منها ويسرها لهم ، فإذا ذبحتموها (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) أى شديد الفقر ، والآية الأخرى (القانع) وهو الفقير الذى لا يسأل الناس (والمعتر) الفقير السائل. وفى هذا الأمر بالأكل والاهداء والصدقة فإن الأمر يشمل أكل أهلها منها وإهداءهم للأغنياء (ثم ليقتضوا قنهم) أى يستكملوا بقية إنساكهم ويزيلوا عنهم محظورات الاحرام وما ترتب عليها من الشعث ونحوه (وليوفوا نذورهم) التى أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا فنفس عقد العبد للاحرام يجاب منه على نفسه (وليطوفوا بالبيت العتيق) أى القديم أقدم المساجد على الاطلاق ، المعتق من تسلط الجبابة عليه ، وتخصيص الطواف به دون غيره من المناسك لفضله وشرفه ، ولكونه المقصود وما قبله وما بعده وسائل وتوابع ، ولأنه يتعبد به لله مع الانسك ووحده وأما بقية الانسك فلا تكون عبادة إلا إذا كانت تابعة للنسك

فصل فى آيات تتعلق بالجهاد وتوابعه

قال الله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) الآيات كان المسلمون فى أول الأمر مأمورين بكف الأيدي عن قتال الكفار ، وإنما جهادهم بالدعوة لحكمة ظاهرة ، فلما اضطهدوا واضطرمم الأعداء إلى ترك بلادهم وأوطانهم وقتلوا من قتلوا وحبسوا من حبسوا ، وجدوا فى العداوة البليغة بكل طريق ، وهاجر المسلمون بسبب ذلك إلى المدينة وقواهم الله على قتال الأعداء ، وقد رماهم الأعداء عن قوس واحدة ، فحينئذ أذن الله لهم فى القتال ولهذا قال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) لمنعهم من دينهم وإخراجهم من ديارهم ومطاردتهم لهم فى كل مكان (وإن الله على نصرهم لقدير) وهذا مع أمره لهم بفعل الأسباب ومقاومة الأعداء بكل مستطاع أمر لهم بالتوكل عليه واستنصاره والطلب منه

ثم ذكر صفة عدوانهم فقال (الذين أخرجوا من ديارهم) بالأذية والفتنة بغير حق إلا أن ذنبهم إيمانهم بالله واعترافهم بأنه ربهم وإلههم ، وأنهم أخلصوا له الدين وتبرؤا من عبادة الخلقين

وهذا كما قال تعالى (وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) وهذا ظاهر في حكمة الجهاد وعظم مصلحته ، وأنه من الضروريات في الدين فإن المقصود به إقامة دين الله والدعوة إلى عبادته التي خلق الله المكلفين لها ، وأوجبها عليهم ودفع كل من قاوم الأمر الضروري ومقاومة الظالمين المعتدين على دين الله وعلى المؤمنين من عباده كما قال تعالى (وقالوا هم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ولهذا قال (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) فلو لا مدافعة الله للناس بعضهم ببعض بأسباب متعددة وطرق متنوعة قدرية وشرعية وأعظمها وأجها وأزكاها الجهاد في سبيله لاستولى الكفار الظالمون وحوتوا أديان الرسل فقتلوا المؤمنين بهم وهدموا معابدهم ، ولكن ألطف الله عظيمته ، وأياديه جسيمة ، وبهذا وشبهه يعرف حكمة الجهاد الديني ، وأنه من الضروريات لا كقتال الظلمة المبني على العداوات والجشع والظلم والاستعباد للخلق ، بل الجهاد الاسلامي مرماء وغرضه الوحيد إقامة العدل وحصول الرحمة واستعباد الخلق لخالقهم ، وأداء الحقوق كلها ونصر المظلومين وقمع الظالمين ، ونشر الصلاح والاصلاح المطلق بكل وجه واعتبار ، وهو من أعظم محاسن دين الاسلام

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ؛ واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط)

هذه الآيات تضمنت الأمر بجهاد الأعداء ، والارشاد إلى الأسباب التي ينبغي للجيوش والمجاهدين الأخذ بها ، فمن أعظمها وأهمها أمران : الصبر وهو الثبات التام وإبداء كل مجهود في تحصيل ذلك ، والثاني التوكل على الله والتضرع اليه والاكثار من ذكره ، فتي اجتمع الأمران على وجه الكمال والتكامل فقد آتى المجاهدون بالأسباب الوحيدة للنصر والفلاح فلم يبشروا بنصر الله وليثقوا بوعده فيدخل بالأمر بالصبر والثبات تمرين النفوس على ذلك فإنه من يتصبر يصبره الله ، وتعلم الرمي والركوب والفنون العسكرية المناسبة للزمان ، فإن التعاليم وتعلم أمور الجهاد من أكبر العون على الثبات والصبر ، ومن ذلك الحث على الشجاعة والسعى في أسبابها والترغيب في فضائل الجهاد وما فيه من الثمرات العاجلة والآجلة وما في تضييعه من ضياع الدين والدنيا واستيلاء الأعداء والذل والدمار ، فإن النفوس الآبية والههم العلية لا ترضى لأنفسها بغير هذا الخلق الفاضل الذي هو أعلى الأخلاق وأنفعها قال تعالى (إن تكونوا تآلمون فانهم يآلمون كما تآلمون وترجون من الله ما لا يرجون) فحنهم على الصبر بتآلمهم وطمئنتهم في الأجر والثواب وإدراك المقامات العالية

وقال أيضا في ذم الناكثين وترغيب الثابتين الصابرين (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطنًا يعطي الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وقال عن المنافقين ونكولهم عن مشقة الجهاد (وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون) أى لو كان عندهم فقه نافع في تنزيل الأشياء منازلها وتقديم ما ينبغي تقديمه لآثروا مشقة الجهاد على راحة القعود الضار عاجلاً وآجلاً

وفي هذا انه بحسب فقه العبد وعلمه وقيمه يكون قيامه بالجهاد وصبره عليه وثباته ، ومن دواعي الصبر وهو من الفقه أيضاً أنه إذا علم المجاهد انه على الحق ويجهاد أهل الباطل ان هذا أعلى الغايات وأشرفها وأحقها وأن الحق منصور وعاقبته حميدة

ومن دواعي الصبر الثقة بالله وبوعده فان الله وعد الصابرين العون والنصر ، وانه معهم في كل أحوالهم ومن كان الله معه فلو اجتمع عليه من بأقطارها لم يخف إلا الله ، وما يعين على الصبر والثبات . (الأمر الثاني) وهو التوكل على الله وقوة الاعتماد عليه والتضرع إليه في طلب النصر والاكتثار من ذكره كما قال تعالى هنا حيث رتب على هذا الفلاح (واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) . وقال تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وقال تعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة)

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله) أى تقوموا بدينه وبالحق الذي جاء به رسوله مخلصين لله قاصدين أن تكون كلمة الله هي العليا ينصركم ويثبت أقدامكم وقال تعالى (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فأخبره بأنه المتفرد بنصرهم وأن غيره لا يملك من النصر شيئاً وأمرهم بالتوكل عليه أمرهم بأقوى الأسباب النافعة في هذا المقام العظيم ، وقال تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه أليس الله بكاف عبده) أى الذي قام بعبوديته فبحسب توكلهم عليه وقيامهم بعبوديته يحصل لهم النصر والكفاية التامة

ومن أسباب النصر والصبر والثبات اتفاق القلوب وعدم التفرق والتنازع ، فان ذلك محلل للقوة موجب للفشل وأما اجتماع الكلمة وقيام الألفة بين المؤمنين واتفاقهم على إقامة دينهم وعلى نصره فهذا أقوى القوى المعنوية التي هي الأصل والقوة المادية تبع لها ، والسكال الجمع بين الأمرين كما أمر الله بذلك في هذه الآية وفي قوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم) الآية

ومن أسباب الثبات والنصر حسن النية وكمال الاخلاص في إعلاء كلمة الحق فلهذا حذر

تعالى من مشابهة الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، فهمؤلاء لما لم يعمدوا على ربهم وأعجبوا بأنفسهم وخرجوا أشرين بطرين ، وكان قتالهم لنصر الباطل باءوا بالخبية والفشل والخذلان ، ولهذا أدب خيار الخلق لما حصل من بعضهم الاعجاب بالكثرة في غزوة حنين حيث قال القائل : لن تغاب اليوم عن قلة . فقال « يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » فلما زال هذا الأمر عنهم وعرفوا ضعفهم وعاقبة الاعجاب « انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها » الآية

ومن الأسباب التي أرشد الله اليها في القتال : الثبات والصبر وحسن التدبير ، والنظام الكامل في جميع الحركات العسكرية ، قال تعالى « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم »

وكان صلى الله عليه وسلم يرتب الجيش وينزلهم منازلهم ، ويجعل في كل جنبه كفؤها ، ويسد الثغرات التي يخشى أن يتسرب منها العدو ، يحفظ المكامن ، ويبعث العيون لتعرف أحوال العدو ، ويستعين بمشاورة أصحابه كما أمر الله بذلك ، خصوصاً في هذا الأمر المهم ، وتعرف أسرار العدو وبث العيون ووضع الجواسيس السريين الذين لا يكاد يشعر بهم ، كما أن من المهم التحرز من جواسيس العدو وعمل الأسباب لأخذ الحذر من ذلك بحسب ما يليق ويناسب الزمان والمكان

ومن المهم أيضاً أن تفعل جميع الأسباب الممكنة في اخلاص الجيوش وقتالها عن الحق ، وأن تكون غايتها كلها واحدة لا يزعزعها عن هذا الغرض السامي فقد رئيس ، أو انحراف كبير أو تزعزع مركز قائد أو توقف في صمودها في طريقها النافع على أمور خارجية ، فانه متى كانت هذه الغاية العالمية هي التي يسعى لها أهل الحل والعقد ، ويعملون لها التعليمات القولية والفعلية ، كانت الجيوش التي على هذا الوصف مضرب المثل في الكمال وسداد الأحوال وحصول المقاصد الجليلة ، ولهذا أرشد الله المؤمنين يوم أحد إلى هذا النظام العجيب ، فقال تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين)

ففيهم على أنه وإن كان محمد هو الامام الأعظم والرسول المعظم ، فانه لا ينبغي لكم أن يفتقدوه في عزيمتكم وانحلال قوتكم ، بل أنتم تقاتلون الله ، وعلى الحق الذي بعث به رسوله ، ولدفع الباطل والشرور ، فاجعلوا هذه الغاية نصب أعينكم وأساس عملكم ، وامضوا قدماً في سبيل الله غير هائبين ولا متأثرين إذا أتت الأمور على خلاف مرادكم ، فان الأمور هكذا تكون : تارة لك وتارة عليك ، والكمال كل الكمال أن يكون العبد عبداً لله في الحالين ، في السراء والضراء ، في حال اتیان الأمور على ما يحب ، أو ضد ذلك ، وهذا الوصف هو كمال الفرد وكال الجماعات والله الموفق

ومن الأمور المهمة جداً أن يكون الرئيس رجلاً برعيتيه ، ناصحاً محباً للخير ساعياً فيه جهده ، كثير المراودة والمشاورة لهم ، خصوصاً لأهل الرأي والحجى منهم ؛ وأن تكون الرعية مطيعة منقادة ليس عندهم منازعات ولا مشاغبات ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) أى إذا حصل النزاع فى أى أمر من الأمور ، خصوصاً فى الأمور المتعلقة فى سياسة الحرب ، ردت إلى هذا الأصل الذى يطمئن إليه المؤمنون ، ويلجأ إليه كبارهم وصغارهم ، لعلمهم أنه فرض على جميعهم ، ولعلمهم أن حكم الله ورسوله هو الخير والصالح ، وأن الله يعلم من مصالحهم مالا يعلمون ويرشدكم إلى كل ما به ينتفعون .

ومن الأمور المهمة جداً سلوك طريق الحق والعدل فى قسمة الغنائم ، وأن لا تكون ظالمة مستبدّاً بها الأقوياء ، محروماً منها الضعفاء ، أو تكون فوضى ، فإن هذين الأمرين مع ضررها فى الدين ، وأن هذا لا يخل ولا يجوز ، وهو من أعظم المحرمات ، فإنها يضران غاية الضرر فى الجيوش فى وقوع العداوات وحصول الجشع والطمع وكون وجهتها تكون متباينة ، فبذلك ينحل النظام ويقع الفشل ويكون هذا الأمر أعظم سلاح للأعداء على المسلمين

ومن الأمور المهمة جداً أيضاً ، وهى عون كبير فى الحروب ، السعى بقدر الاستطاعة فى إيقاع الانشقاق فى صفوف الأعداء ، وفعل كل سبب يحصل به تفريق شملهم وتفرق وحدتهم ؛ ومهادنة من يمكن مهادنته منهم ، وبذل الأموال للرؤساء إذا غلب على الظن أن ينكف شرمهم عن المسلمين فكم حصل بهذا الطريق من نكاية العدو مالا يحصل بالجيوش الكثيرة ، ولهذا قال (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فقاتلوكم) فذكر الله هذه المصلحة العظيمة فى الكف عن أمثال هؤلاء الموصوفين .

وللموقنين من الرؤساء وقواد الجيوش فى هذه الأمور مقامات معروفة صار لهم فيها اليد البيضاء على المسلمين .

فانظر إلى هذه التعاليم الإلهية التى هى النظام الكامل الوحيد فى جميع الأزمنة والامكنة ، واستدل بذلك على أن الاسلام الحقيقى هو الدين الحق الذى اليه مابجأ الخليقة وبه سعادتها وسلامتها من الشرور ، وأن النقص والهبوط بتضييع تعاليم هذا الدين الذى أكمله الله وأتم به النعمة على المؤمنين

فصل في البيوع وأنواع المعاملات

قال الله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) الآيات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ الآية ، وقال « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » الآية « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه -- إلى قوله -- واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم »

اشتملت هذه الآيات الكريمات على أحكام جمة وفوائد مهمة ، منها أن الأصل في البيوع والمعاملات والتجارات كلها الحل والاطلاق ، كما هو صريح هذه الآيات ، لافرق بين تجارة الادارة التي يديرها التجار بينهم ، هذا يأخذ العوض ، وهذا يعطى المعوض ، ولا بين التجارة في الديون الحال ثمنها المؤجل مثنى كالسلم ، وبيع السلع بأثمان مؤجلة لعموم قوله (إذا تداينتم بدين) ولا بين تجارة التربص والانتظار ، بأن يشتري السلع في أوقات رخيمها وينتظر بها الفرص من مواسم وغيرها ، ولا بين التجارة بالتصدير والتوريد من محل إلى آخر ، ولا بين التجارة والتكسب أفراداً ومشاركين ، فكل هذه الأنواع وما يتبعها قد أباحها الشارع وأطلقها لعباده رحمة بهم وقياماً لمصالحهم ودفعاً للأضرار عنهم ، وكلها جائزة بما يقترن بها ويتبعها من شروط ووثائق ونحوها إذا سلمت من المحاذير الشرعية التي نبه الله عليها ورسوله ، يدخل في هذا العموم جميع أجناس المبيعات وأنواعها وأفرادها من عقارات وحيوانات وأمتعة وأواني وأشربة وأكسية وفرش وغيرها وكلها لا بد أن تقترن بهذا الشرط الذي ذكره الله ، وهو التراضى بين المتعاضدين ، الرضا الصادر عن معرفة ، وأما السفية والمجنون ومن لا يعتبر كلامه ، فوليّه يقوم مقامه في معاملاته

وأعظم المحاذير المانعة من صحة المعاملات : الربا والغرر والظلم .

فالربا الذي حرمه الله ورسوله يدخل فيه ربا الفضل ، وهو بيع المكييل بالمكييل من جنسه متفاضلاً ، وبيع الموزون بالموزون من جنسه متفاضلاً ، ويشترط في هذا النوع في حله ما شرط الشارع ، وهو التماثل بين المبيعين بمعياره الشرعى ، مكيلاً كان أو موزوناً ، والتقبض للعوضين قبل التفرق . وربا النسئثة : وهو بيع المكييل بالمكييل إلى أجل ، أو غير مقبوض - ولو من غير جنسه - وبيع الموزون بالموزون إلى أجل أو بلاقبض ، ويستثنى من هذا السلم .

وأشد أنواع هذا النوع قلب الديون في الذمم ، وهو الذي ذكره بقوله (لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة) وذلك إذا حل ما في ذمة المدين ، قال له الغريم : إما أن تقضيني ديني ، وإما أن تزيد ما في ذمتك ، فيتضاعف ما في ذمة المعسر أضعافاً مضاعفة بلا نفع ولا انتفاع ، وذلك أن

المعسر قد أوجب الله على غريمه إنظاره كما قال تعالى (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) وسواء كان قلب الدين المذكور صريحاً أو يتحيل عليه بحيلة ليست مقصودة ، وإتمايراد بها التوصل إلى مضاعفة ما في ذمة الغريم ، فهذا الذي قد توعده الله بهذا الوعيد الشديد ، وأن الذين يأكلون الربا لا يقومون من قبورهم إلى بعثهم ونشورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، أى من الجنون فيقومون مرعوبين منزعين قد اختلت حركاتهم لما يعلمون ما أمامهم من القلاقل والأهوال المزعجة والعقوبات لأكلة الربا ، وقد آذنتهم الله بمحاربته ومحاربة رسوله إذا لم يتوبوا ومن كان محارباً لله ورسوله فانه مخذول وإن عواقبه وخيمة ، وإن استدرج في وقت فأخر أمره الحق والبوار ، قال تعالى (يحق الله الربا ويربى الصدقات ، وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله) فالرأى يأخذه الأمن والغرور الحاضر ولا يدري ما خبيء له في مستقبل أمره ، وأن الله سيجمع له بين عقوبات الدنيا والآخرة ، إلا إن تاب وأناب ، فإذا تاب فله ماسلف وأما العقود الحاضرة فالزيادة لا تحل ، وعليه أن ينزل على رأس ماله ، كما قال تعالى (وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون) بأخذ الزيادة ، ولا تظلمون بأخذ بعض رؤوس أموالكم ومن أنواع الربا القرض الذى يجزى نفعاً ، فان القرض من الاحسان والمرافق بين العباد ، فإذا دخلته المعاوضة وشرط المقرض على المقرض رد خير منه بالصفة أو المقدار أو شرط نفعاً أو محاباة فى معاوضة أخرى ، فهو من الربا لأنه فى الحقيقة دراهم بدرام مؤخرة ، والربح ذلك النفع المشروط ، فالتعالى وعظ المؤمنين عن تعاطى الربا كله والمعاملة به ، وأن يكتفوا بالمكاسب الطيبة التى فيها البركة وصالح الدين والدنيا ، وفيها تزكو الاخلاق ويحصل الاعتبار وحسن المعاملة والصدق والعدل وأداء الحقوق والسلامة من جميع التبعات .

ومن المحاذير فى المعاملات محذور الميسر والغرر ، فان الله حرم فى كتابه الميسر وقرنه بالخمر وذكر مضار ذلك ومفاسده ، والميسر يدخل فى المعاملات كما يدخل فى المغالبات ، فكما أن المراهقات والمقامرات وتوابعها من الميسر ، فالبيع التى فيها غرر ومخاطرات وجهالات داخله فى الميسر ، ولهذا قال ﷺ كلمة جامعة نهى عن بيع الغرر ، فيدخل فى ذلك بيع الحمل فى البطن ، وبيع الآبق والشارد والشيء الذى لم ير ولم يوصف ، ودخل فيه بيع الملامسة والمنابذة وجميع العقود التى فيها جهالة بينة ، وذلك لأن أحد المتعاملين إما أن ينعم ، وإما أن يفرم ، وهذا مخالف لمقاصد المعاوضات التى يقصد أن يكون العوض فى مقابلة العوض على وجه يستوى فيه علم المتعاضين ، فإذا جهل الثمن أو المثمن ، أو كان الأجل فى الديون غير مسمى ولا معلوم دخل هذا فى بيع الغرر والميسر الذى زجر الله عنه .

ومن المحاذير المنهى عنها فى المعاملات ، الظلم والنفس والتدليس وبخس المكاييل والموازين

وبخس الحقوق أخذاً وإعطاءً ، بأن يأخذ أكثر مما له ، أو يعطى أقل مما عليه ، فهذا من أعظم المحرمات ، وقد توعد الله عليه بالعقوبات في الدنيا والآخرة ، وأهلك أمة عظيمة بسبب هذه المعاملة الخبيثة ، وهذه المعاملات المحرمة تدخل في قوله (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) كما يدخل فيه الغصب والسرقة ونحوهما .

وفي آية الدين من الفوائد سوى ما تقدم ، الأمر بكتابة المعاملات والأشهاد عليها ، وأن يكون الكاتب عدلاً عارفاً بالكتابة وبما ينبغي أن يكتب ، وهذا الأمر للنسب والاستحباب عند جمهور العلماء ، إلا إذا وجب حفظ المال وكان على دين مؤجل أو غير مقبوض ، فإنه لا يتم حفظه إلا بذلك ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وفيها أن الكاتب لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق إن كان رشيداً ووليه إن كان عاجزاً ضعيفاً ، كالمجنون والصغير والسفيه ، وأن على صاحب الحق أن يقر بالحق كله من غير بخس ، أى نقص لعدده أو صفته

وتدل الآية أن الاقرار من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق في الذمم ، كما ثبتت فيها براءة الذمم المشتغلة بالحقوق إذا أقر من له الحق بالقباض أو الإبراء المعتبر ، وأنه لا يعذر من أقر لو ادعى الغلط أو الكذب ونحوه .

وفيها الإرشاد إلى حفظ الحقوق بالأشهاد والكتابة والرهن إذا احتيج اليه في سفر أو غيره وإن نصاب الشهادة في المعاملات كلها من عقود وفسوخ وثبوت وشروط وإبراء ونحوها رجлан مرضيان إن أمكن ، وإلا فرجل واحد وامرأتان ، وثبت في السنة قبول شهادة الواحد مع يمين صاحب الحق .

وفيها أن شهادة الفساق والمجهولين غير مقبولة ، وأن الاعتبار بمن يرضاه الناس ويعتبرونه . وفيها أن شهادة المرأتين تقوم مقام شهادة الرجل لكمال حفظ الرجل وقوة ذاكرته ، كما نبه عليه بقوله (أن تضل إحداها فتذكر إحداها الأخرى)

وفيها دلالة أن من نسى شهادة فتذكرها ، أو ذكرها فتذكرها أن شهادته صحيحة . وفيها أنه لا يحل أن يشهد إلا بما علمه وتيقنه ، فإن شك فيه لم يحل له أن يشهد .

وفيها بيان الحكمة العظيمة في هذه الإرشادات من الرب في حفظ المعاملات ، وأن ذلك صلاح للعباد في معاملاتهم ؛ وأن تكون جارية على القسط ، وأنها تقطع الخصومات والمنازعات وتبزيء الذمم وتمنع الظالم من ظلمه ، فلماذا قال (ذلكم أسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) فكم حصل بهذه الوثائق التي أرشد الله اليها من مصالح عظيمة ، وكم اندفع بها من مفاسد وشُرور كثيرة ، فسبحان من جعل شرعه صلاحاً لدين العباد ودنياهم .

وفيها أن التجارة الحاضرة لا بأس بترك كتابتها لكون التقاض يغني غالباً عن ذلك ، ولمشقة

كثرة ذلك ، وأما الشهادة فلا ينبغي تركها خصوصاً في الأمور المهمة ، وقوله (ولا يضار كاتب ولا شهيد) يحتمل أنه مبنى للفاعل أو للمفعول ، والمعنى يشمل الأمرين ، فالكاتب والشهيد يجب عليه أن يعدل في كتابته وشهادته ؛ ولا يحل له أن يعيل مع أحدهما لغرض من أغراضه ، ولا يضارهما بأخذ أجره لا تحل له على شهادته ، أو يعاظم في شهادته وكتابته بماطلة تضرهما أو أحدهما ، وكذلك المعاملان لا يحل أن يضارا الكاتب والشهيد بأن يكلفاه ما لا يطيقه ، أو يتضرر به ، لأن الشاهد والكاتب محسنان ، حقهما أن يشكرا على ذلك ، فمضارتهما تنافي ذلك . وفيها أن تعلم الكتابة من الأمور المحبوبة لله ، وأنه نعمة من الله على من علمه الله الكتابة فمن شكر هذه النعمة - أن لا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله .

ويستفاد من المعنى المقصود أن الله شرع هذه الأمور حفظاً للحقوق أنه ينبغي تعلم كتابة الوثائق والاصطلاحات الجارية بين الناس في المعاملات ، حتى يكون الكاتب بهذه الصفة التي يحجر فيها المعاملات فينتفع الناس بحفظ حقوقهم ، فلا يكفي مجرد الكتابة من غير معرفة بهذه الأمور ، كما أنه لا بد أن يكون الكاتب معتبراً ثقة ليحصل الاعتماد على كتابته والطأينة اليها . ويستفاد من هذا أن الخط المعروف صاحبه وثقته أنه معتبر معمول به ليطمأن المقصود من الكتابة في حياة الكاتب وبعد موته .

وفيها وجوب أداء الشهادة وتعيينها على من تحملها ، وأن كتمان الشهادة من كبائر الذنوب وكما أن شهادة الزور بأن يشهد بثبوت ما ليس بثابت ، أو بالبراءة من الحق الثابت وهو كاذب من أكبر الكبائر ، فكذلك السكوت عن أداء الشهادة ، وكلا الأمرين ظلم لصاحب الحق بتفويت حقه ، وظلم أيضاً للنفس بوقوع الائم ، وظلم للظالم لاعانتته على الائم والمعدوان .

وفيها مشروعية الوثائق بالحقوق ، وهي أربعة : الشهادة والرهن - كما هو مذكور في هذا الموضع - والضمان والكفالة ، يؤخذ من الاعتبار على هذا المعنى ، ومن قوله (وأنا به زعيم) أى كفيل وضامن ، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ، وتقييد الرهن بالسفر لا يدل على أنه لا يكون رهن في الحضر ، بل قيد لأجل الحاجة اليه لعدم الكاتب غالباً .

وفيها ثبوت الولاية على القاصرين - لجنون أو صغر أو سفه - لقوله (فان كان صغيراً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يعمل هو فليعمل وليه بالعدل) فأقامه في التصرفات في ماله مقام المالك الرشيد وعليه أن يفعل في أموالهم ما هو الأصلح ، قال تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) ولا يدفع اليهم حتى يرشدوا ، ويعرف ذلك بالاختبار والتجربة كما قال تعالى (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم)

وفيها في قوله (ولا يضار كاتب ولا شهيد) من الفوائد التنبيه على أن كل من فعل احساناً

ومعروفاً أن عليه أن يتممه ويكمّله بالتسهيل والتيسير وعدم المضارة ، وأن للمحسنين على الناس أن يشكروا لهم معروفهم وأن لا يكافؤهم الضرر والمشقة جزاءاً لهم على احسانهم وترغيباً في الاحسان واستبدل بقوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم ، كما أن العلم سبب للتقوى ، وأوضح من هذا قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) أى علماً تفرقون به بين الحق والباطل ، وبين الحقائق المحتاج اليها .

وفيها أنه كما أنه من العلوم النافعة تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات والمعاملات ، فمنه أيضاً تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات ، فان الله حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم ، وكتبنا به العظيم فيه تبليان كل شيء .

وفيها أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ، بل بمجرد الاستئذان لقوله « فان أمن بعضكم ببعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته » ولكن في هذه الحال تتوقف الثقة على التقوى والخوف من الله وإلا فصاحب الحق مخاطر ، فهذا وعظ الله من عليه الحق أن يؤدي أمانته ، ويؤخذ من هذا أن من عاملك ورضى بأمانتك ووثق فيك أنه قد فعل معك معروفاً وراك موضع الثقة والأمانة ، فيتأكد عليك اداء الأمانة من الجهتين ، اداء لحق الله ووفاء بحق من وثق فيك ومكافأة له .

(فصل)

قال الله تعالى ﴿ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ وقال يوسف ﴿ اجعلنى على خزان الأرض إنى حفيظ علمى ﴾

يؤخذ من هاتين الآيتين أنه ينبغي أن يتخير في الاجارات والجمالات والأمانات والولايات كلها - كبيرة كانت أو صغيرة - من جمع الوصفين ، القوة على ذلك العمل ، والكفاءة والحفظ وتوابع ذلك من جميع ما تقوم به الأعمال . والأمر الثانى الأمانة ، فبالأمانة تتم به الثقة ويعلم نصحه وبذله الواجب ، وبالكفاءة والقوة يحصل العمل ويتم ويتقن ، فان وجد الجامع للوصفين على وجه الكمال فليستمسك بفرزه والا اكتفى بالأمثل فالأمثل ، ونقص الأعمال كلها من الاخلال بالوصفين أو أحدهما .

(فصل فى آيات المواريث)

قال الله تعالى ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين - إلى قوله - تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات ﴾ الآية . والتي فى آخر السورة « يستفتونك ، قل الله يفتيكم فى السكالات » إلى آخرها .

تضمنت هذه الآيات الكريمات أحكام الموارث في غاية البيان والتفصيل والايضاح وفي غاية الحكمة ، فتوصيته للعباد بأولادهم من كمال رحمته وعنايته ، وأنه أرحم بهم من والديهم ، ولذلك وصى الوالدين بالأولاد ، فالأولاد عند والديهم وصايا من الله وأمانات عندهم على الوالدين أن يربوهم تربية نافعة لدينهم ودنياهم ، فان فعلوا فقد قاموا بهذه الأمانة ، وإلا فقد ضيعوها وباءوا بانها وخسرانها ، فذكر الله ميراث الأولاد ، وأن لهم ثلاث حالات : إما أن يجتمع الذكور والاناث فحينئذ يتقاسمون المال أو ما أبقت الفروض على عدد رؤوسهم (للذكر مثل حظ الأنثيين) سواء كانوا أولاد صلب أو أولاد ابن ويؤخذ من هذا

الحالة الثانية : ان يكون الأولاد ذكوراً فقط ، فانهم يتقاسمون متساوين ، ومن ارتفعت درجته حجب من دونه من الاولاد إذا كان الرافع من الذكور .

الحالة الثالثة : إذا كن إناثاً ، فان كانت واحدة فلها النصف ، سواء كانت بنت صلب أو بنت ابن ، وإن كانتا اثنتين فأكثر فلها الثلثان ، ومن الحكمة في الاتيان بقوله (فوق اثنتين) التنبيه على أنه لا يزيد الفرض وهو الثلثان بزيادتهن على الثنتين ، كما زاد فرض النصف لما صرن أكثر من واحدة ، وقد نص الله على أن الأختين فرضهما الثلثان ، فالبناتان من باب أولى وأحرى فان كان البناتان بنات صلب لم يبق لبنات الابن شيء ، وصار البقية بعد فرض البنات للعاصب ، وإن كانت العالية واحدة أخذت النصف ، وباقي الثلثين وهو السدس لبنت أو بنات الابن .

هذا ميراث الأولاد قد استوعبته الآية استيعاباً ، وقد علمنا من ذلك أن لفظ الولد يشمل الذكر والأنثى من أولاد الصلب وأولاد الابن وان نزل ، وأما أولاد البنات فلا يدخلون في اطلاق اسم الأولاد في الموارث .

ثم ذكر الله ميراث الأبوين : الأم والاب . فجعل الله للأم سدساً وثلثاً ، جعل لها السدس مع وجود أحد من الاولاد مطلقاً ، منفردين أو متعددين ، أولاد صلب أو أولاد ابن ، وكذلك جعل لها السدس بوجود جمع من الاخوة والأخوات اثنتين فأكثر ، وجعل لها الثلث إذا فقد الشرطان المذكوران .

وأما ثلث الباقي في زوج أو زوجة وأبوين فثالث فإنه يؤخذ من قوله (وورثه أبواه) فإذا كان معهما أحد الزوجين خرجت عن هذا فلم يكن لها ثلث كامل ، أو يقال إن الله أضاف الميراث للأبوين - وهو الاب والأم - فيكون لها ثلث ما ورثه الأبوان ، ويكون ما يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغريم . فله أعلم .

وأما الأب فقد فرض الله له السدس مع وجود أحد من الأولاد ، فان كان الأولاد ذكوراً

لم يزد الأب على السدس وصار الأبناء أحق بالتقديم من الأب بالتعصيب بالاجماع .
 وإن كان الأولاد إنثاءً واحدة أو متعدداً ، فرض له السدس ولهن أو لها الفرض ، فان بقي
 شيء فهو لأولى رجل ، وهو الأب هنا ؛ لأنه أقرب من الاخوة وبنيهم ومن الاعمام وبنيهم ، فجمع
 له في هذه الحال بين الفرض والتعصيب ، وإن استغرقت الفروض التركية ، لم يبق للأب زيادة عن
 السدس ، كما لو خلف أبوين وابنتين ؛ فلكل واحد من الأبوين السدس ، وللبنتين الثلثان
 ومفهوم الآية الكريمة أنه إذا لم يكن أولاد ذكور ولا إناث ، أن الأب يرث بنير تقدير ،
 بل بالعصب ، بأن يأخذ المال كله إذا انفرد ، أو ما أبقى الفروض إن كان معه أصحاب فروض ،
 وهو اجماع ، وحكم الجد حكم الأب في هذه الأحكام إلا في العريبتين ؛ فان الأم ترث ثلثاً كاملاً
 مع الجد ؛ وأما ميراث الجدة السدس عند عدم الأم فهو في السنة .
 ثم ذكر الله ميراث الزوجين ، وأن الزوج له نصف ما تركت زوجته إن لم يكن لها ولد ،
 فان كان لها ولد فله الربع ، وأن الزوجة واحدة أو متعدداً لها الربع مما ترك الزوج إن لم يكن له
 ولد ، فان كان للزوج ولد منها أو من غيرها ذكر أو أنثى ، ولد صلب أو ولد ابن ، فلها أو
 لهن الثمن . .

ثم ذكر الله ميراث الاخوة من الأم ، وأنهم لا يرثون إلا إذا كانت الورثة كلاله ليس فيهم
 أحد من الفروع ولا الأب والجد ، فللواحد من الاخوة من الام أو الأخوات السدس ، وللأثنين
 فأكثر الثلث ، يستوى فيه ذكرهم وأنثاهم ، وهذه الفروض كلها ذكر الله انها من بعد الوصية
 إذا حصل الايصاء بها ، ومن بعد الدين . وقد قضى النبي ﷺ : أن الدين قبل الوصية . وقد اتفق
 العلماء على ذلك ، وشرط الله في الوصية أن لا تكون على وجه المضاربة بالورثة ، فان كانت كذلك
 فانها وصية إثم وجنف يجب تعديها ورد الظلم الواقع فيها .

وأخبر تعالى أن هذه التقديرات والفرائض حدود الله قدرها وحددها ، فلا يحل مجاوزتها
 ولا الزيادة فيها والنقصان ، بأن يعطى وارث فوق حقه ، أو يحرم وارث أو ينقص عن حقه
 ثم ذكر في آخر السورة ميراث الاخوة لغير أم وأخواتهم بأن الانثى الواحدة لها النصف ،
 وللثنتين فأكثر الثلثان ، وإن اجتمع رجال ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، ويقال فيهم كما
 يقال في الأولاد إذا كانوا ذكوراً تساوا وإذا كانوا أشقاء أو لأب ، فان وجد هؤلاء وهؤلاء
 حجب الأشقاء الاخوة للأب ، وإن كن نساء شقيقات وأخوات لأب واستغرق الشقيقات الثلثين
 لم يبق للأخوات للأب شيء ؛ فان كانت الشقيقة واحدة أخذت نصفها وأعطيت الاخت للأب
 أو الأخوات السدس تكملة الثلثين .

وما سوى هذه الفروض فان الورثة من اخوة لغير أم وبنينهم وأعمام وبنينهم وولاء يدخلون في قوله ﷺ في حديث ابن عباس الصحيح : الحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر . رواه مسلم ، فيقدم الاخوة ثم بنوهم ثم الأعمام ثم بنوهم ثم الولاء ؛ ويقدم منهم الأقرب منزلة ، فان استوت منزلتهم قدم الأقوى وهو الشقيق على الذي لأب . والله أعلم

(فصول تتعلق بالنكاح وتوابعه من الأحكام)

قال الله تعالى ﴿ وإن ختم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان ختم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تعولوا ، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فان طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً)

لما من البارى على عباده بالنكاح قدراً وأباحه شرعاً بل أحبه ورضيه وحث عليه لما يترتب عليه من المصالح الكثيرة ، رتب عليه أحكاماً كثيرة وحقوقاً متنوعة تدور كلها على الصلاح واصلاح أحوال الزوجين ودفع الضرر والفساد ، وهى من محاسن الشريعة ، والشريعة كلها محاسن وجلب للمصالح ودراً للمفاسد ، يقول تعالى هنا (وإن ختم أن لا تقسطوا) أى تقوموا بحق النساء اليتامى اللاتى تحت حجوركم وولايتكم لئلا يمتنعن منكم اياهن فاعدلوا إلى غيرهن (وانكحوا ما طاب لكم من النساء) أى ينبغي أن تختاروا منهن الطيبات فى أنفسهن اللاتى تطيب لكم الحياة بالاتصال بهن ، الجامعات للدين والحسب والعقل والآداب الحسنة وغير ذلك من الأوصاف الداعية لنكاحهن وفى هذه الآية الحث على الاختيار قبل الخطبة ، وأنه ينبغي أن لا يتزوج إلا الجامعة للصفات المقصودة بالنكاح ، فان النكاح يقصد لأمر كثيرة من أهمها كفاءة البيت والعائلة وحسن التدبير وحسن التربية ؛ وأهم صفة هذا النوع الدين والعقل .

ويقصد به احصان الفرج والسرور فى الحياة ، وعمدة هذا حسن الأخلاق الظاهرة وحسن الخلاق الباطنة .

ويقصد به نجابة الأولاد وشرفهم ؛ وأساسه الحسب والنسب الرفيع ، ولهذا أباح الشارع بل أمر بالنظر لمن يخطبها ليكون على بصيرة من أمره (مثنى وثلاث ورباع) أى من أحب أن يتزوج اثنين فليفعل ، أو ثلاثاً أو أربعاً فليفعل ، ولا يزيد على الأربع ، لأن الآية سيمتت للامتنان فلا يجوز الزيادة على غير ما سمي الله ، إجماعاً ، وذلك أن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة أو لا يحصل مقصوده أو مقاصده بها ، كما تقدم أن النكاح له عدة مقاصد ، فلهذا أباح الله له هذا العدد ، لأن فى الأربع غنية لكل أحد إلا ما ندر ، ومع هذا فإذا خاف من نفسه الجور والظلم بالزيادة على الواحدة فليقتصر على الواحدة أو على ملك يمينه التى لا يجب عاينه لها قسم كالزوجات (ذلك) أى

الاقتصار على واحدة من الزوجات ، أو ما ملكت اليمين ؛ أدنى أن لاتعملوا أى تظلموا وتجوروا ويستفاد من هذا المعنى أن تعرض العبد للأمر الذى يخاف منه الجور والظلم وعدم القيام بالواجب ، ولو كان مباحاً لا ينبغى له أن يتعرض له ، بل يلزم السعة والعافية ، فان العافية خير ما أعطى العبد ، ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن ، وخصوصاً الصداق الذى يكون شيئاً كثيراً دفعة واحدة يشق عليهم ، حثهم على إيتاء النساء صدقاتهن ، أى مهورهن (نحلة) أى عن حال طمأنينة وطيب نفس ، من غير مطل ولا بنحس منه شيئاً

وفيه أن المهر للمرأة ، وأنه يدفع اليها أو إلى وكيلها إن كانت رشيدة ؛ أو إلى وليها إن لم تكن رشيدة ، وأنها تملكه بالمقد لأنه أضافه اليها وأمر باعطائه لها ، وذلك يقتضى الملك (فان طبن لكم عن شيء منه) أى من الصداق (نفساً) باسقاط شيء منه أو تأخيرها أو الحباطة فى التعوض عنه (فكلوه هنيئاً مريئاً) لا تبعة عليكم فيه ولا حرج ، وهذا دليل على أن للمرأة الرشيدة التصرف فى مالها ، ولو بالتبرع ، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء إلا ما طابت نفسها به إذا كانت رشيدة ، ويؤخذ من الأمر بنكاح ما طاب من النساء تحريم نكاح الخبيثة التى لا يحل للمسلم نكاحها ، وهى الكافرة غير الكتابية ، وكذلك الزانية حتى تتوب كما نص الله على الثنتين .

وفى هذه الآية دليل على أنه لا بد فى النكاح من صداق ، وأنه يجوز فى الكثير واليسير للعموم ، وأنه لا يباح لأحد أن يتزوج بدون صداق ، وإن لم يسم فمهر المثل ، إلا النبي ﷺ فان له ذلك خاصة ، كما قال تعالى (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) وفى قوله (ولا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) دليل على اعتبار الولى فى النكاح ، وهو العاصب ويقدم منهم الأقرب فالأقرب ، فان تعذر الولى القريب والبعيد لعدم أو جهل أو غيبة طويلة ، قام الحاكم مقام الولى ، فالسلطان والحاكم ولى من لا ولى لها من النساء .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً - إلى قوله - ميثاقاً غليظاً)

كان أهل الجاهلية إذا مات أحدهم ورثت زوجته عنه كما يورث ماله ، فرأى قريبه كأخيه وابن عمه أنه أحق بها من نفسها ويحجرها عن غيره ، فان رضى بها تزوجها على غير صداق أو على صداق يحبه هو دونها ، وإن لم يرض بزواجها عضلها ومنعها من الأزواج الا بموض من الزوج أو

منها ، وكان منهم أيضاً من يعضل زوجته التي هي في حباله فيمتنعها من حقوقها ، ومن التوسعة لها لتفتدى منه ، فنهى الله المؤمنين عن هذه الأحوال القبيحة الجائرة (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها وزوجها ومن يتصل به ، فيجوز في هذه الحال أن يعضلها مقابلة لها على فعلها لتفتدى منه ، فان هذا الافتداء بحق لا بظلم ثم قال (وعاشروهن بالمعروف) وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية ، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته ببذل النفقة والكسوة والمسكن اللائق بحاله ويصاحبها محبة جميلة بكف الأذى وبذل الاحسان وحسن المعاملة والخلق ، وأن لا يعطلها بحقها ، وهي كذلك عليها ما عليه من العشرة ، وكل ذلك يتبع العرف في كل زمان ومكان وحال ما يليق به ، قال تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) وقوله (فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) أى ينبغى لكم يا معشر الأزواج أن تمسكوا زوجاتكم ولو كرهتموهن فان في ذلك خيراً كثيراً .

منها امثال أمر الله ورسوله الذى فيه سعادة الدنيا والآخرة .

ومنها أن إجباره نفسه ومجاهدته إياها مع عدم محبة زوجته تمرين على التخلق بالأخلاق الجميلة وربما زالت الكراهة وخلفتها المحبة ، وربما زالت الأسباب التي كرهها لأجلها وربما رزق منها ولداً صالحاً نفع الله به والديه في الدنيا والآخرة ، ولا بد لهذه الكراهة من أسباب من الزوجة ، فينبغى إذا كره منها خلقاً لحظ بقيمة أخلاقها ، وما فيها من المقاصد الأخر ، ويجعل هذا في مقابلة هذا ، وهذا عنوان الانصاف والرأى الأصيل ، فان النزق الطائش الذى ليس عنده انصاف يلاحظ بعض أغراضه النفسية ، فاذا لم يأت على ما يريد أهدر المحاسن والمناقب الأخر ، وهذا لا يكاد يصفوله خل في حياته ، لا زوجة ولا صاحب ولا حبيب ، بل هو سريع التقلب أما الرجل الحازم الوفى الزكى ، فانه يوازن بين الأمور ويقدم الحق السابق ويفى بالسوابق ويكون نظره للمحاسن أرجح من نظره للمساوى .

فان وصل إلى الدرجة العالية التي لا يصل اليها الأفراد من كمل الرجال جعل المحاسن نصب عينيه وأغضى عن المساوى . بالكافية ، وعفى عنها لله ولحق صاحب الحق ، فهذا قد كسب الأجر والراحة والخلق الذى لا يلحق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وهذا الصبر المأمور به إنما هو مع الامكان ، فان كان لا بد من الفراق ، ولم يبق للصبر والامساك موضع ، فالله قد أباح الفراق ، فلهذا قال (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج) أى فلا حرج عليكم ، ولكن إذا آتيتم إحداهن أى الزوجة السابقة أو اللاحقة (قنطاراً) وهو المال الكثير فلا تأخذوا منه شيئاً ، بل وفروه لمن

ولا تملأون ، وهذا يدل على جواز إعطاء النساء من المهور وغيرها المال الكثير ، وأنها بذلك تملكه ، واسكن الأكل والأفضل التسهيل في المهور اقتداء بالنبي ﷺ وتسهيلاً للنكاح ولطرقه وبراءة للذم ، ثم ذكر الحكمة في تحريم أخذ الزوج ما أعطاه لزوجته ، فقال (أناخذونه بهتاناً وإنما ميناو كيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) وبيان ذلك أن الأنثى قبل عقد النكاح محرمة على الزوج ، وهي لم ترض بهذا الحل إلا بالعقد والميثاق الغليظ الذي عقد على ذلك العوض المشروط ، فإذا دخل عليها وباشرها وأفضى إليها وأفضت إليه وباشرها المباشرة التي كانت قبل هذه الأمور حراماً فقد استوفى العوض ، فثبت عليه العوض تاماً ، فكيف يستوفى العوض ثم يرجع على العوض ؟ لا ريب أن هذا من المنكرات القبيحة شرعاً وعقلاً وفطرة .

« ولا تتكحوا ما نكح آبائكم من النساء » ثم عدد المحرمات إلى أن قال « وأحل لكم ما وراء ذلكم »

قد استوفى الباري المحرمات في النكاح في هذه الآيات في النسب والرضاع والمصاهرة . أما المحرمات بالمصاهرة ؛ فإذا تزوج الرجل امرأة ترتب على هذا الزواج أربعة أحكام : تحريم هذه الزوجة على أولاده وإن نزلوا نسبا ورضاعاً وتحريمها على آبائه وإن علوا نسبا ورضاعاً وحرمت عليه أمها في الحال ؛ وأما بنتها فإن كان قد دخل بزوجه حرمت أيضاً وصارت ربيبة لا فرق بين بنتها من زوج سابق له أو من زوج خلفه عليها .

وأما المحرمات بالنسب فتحرم الأمهات ، وهن كل أنثى لها عليك ولادة ، وهي التي تخاطبها بالأم والجدة وإن علت من كل جهة وتحرم البنات ، وهن كل أنثى تخاطبك بالابوة أو بالجدودة من بنات الابن وبنات البنات وإن نزلن ، وتحرم الأخوات شقيقات كن أو لأب أو لأم ، وبنات الأخوة وبنات الأخوات مطلقاً ، وتحرم العمات والخالات ، وهن كل أخت لأحد آبائك وإن علا أو أحد أمهاتك وإن علون . وما سوى ذلك من الأقارب حلال ، كبنات الأعمام وبنات العمات وبنات الأخوال وبنات الخالات ، ولهذا ذكر الله هذا الحل والتحريم المهم في موضعين ؛ في هذا الموضع صرح بالمحرمات السبع وقال (وأحل لكم ما وراء ذلكم) وفي سورة الأحزاب أتى بها بأسلوب آخر فقال في الحل (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك) أي فهن حلال ومن عداهن من الأقارب حرام .

وأما المحرمات بالرضاع فهن نظائر المحرمات بالنسب من جهة المرضعة وصاحب اللبن ، فالمرضعة أم للرضيع ، وأمها جدها ، وإخوتها وأخواتها أخواله وخالاته ، وأولادها إخوته وأخواته ، وهو عم لأولادهم أو خال ، وكذلك صاحب اللبن .

وأما الانتشار من جهة الطفل الراضع فلا ينتشر التحريم لأحد من أقاربه إلا لذريته فقط ،

وتقييد الآية في الريبة بقوله (اللاتي في حجوركم من نسائكم) بيان لأغلب أحوالها ، وليبيان أعلى حكمة تناسب حكمة التحريم ، وأنها إذا كانت في حرك بمنزلة بناتك لا يليق إلا أن تكون من محارمك .

وتقييدها الآخر بقوله (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) يخرج ابن التبنى لا يخرج ابن الرضاع في قول جمهور العلماء (والمحصنات من النساء) أى ذوات الأزواج ، فكل أنثى في عصمة زوج أو في بقية عدته لا تحل لغيره ، لأن الأيضاع ليست محل اشتراك ، بل قصد تمييزها التام ، ولهذا شرعت العدة والاستبراء ونحو ذلك .

وقوله (إلا ما ملكت أيما نكم) المراد بهذا الملك ملك السبي إذا سبيت المرأة ذات الزوج من الكفار في القتال الشرعى حلت للمسلمين ، ولكن بعد الاستبراء أو العدة ؛ فزوجها الحربي الذي في دار الحرب لم يبق له فيها حق ولا له حرمة ، فلماذا حلت للمسلمين كما حل لهم ماله ودمه ، لأنه ليس له عهد ولا مهادنة .

وقوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم) أى ما سوى ما نص الله على تحريمه سبع بالنسب وسبع بالرضاع وأربع بالصر ، فما عداهن فانه حلال ، إلا أنه حرم تعالى الجمع بين الاختين ، وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها ، وحرم على الأحرار نكاح المملوكات لما فيه من إرقاق الولد ، ولما فيه من الدناءة والضرر العائد للأولاد لتنازع الملاك وتنقلات الأرقاء ، لكن إذا رجحت مصلحة الإباحة فقد أباحه الله بشرط المشقة لحاجة متعة أو خدمة ، وأن لا يقدر على الطول للحرية ، وأن تكون الأمة مؤمنة باذن أهلها ، فعند اجتماع هذه الشروط كلها يحل للحر نكاح الاماء .

وقوله ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي يخافون نشوزهن فعضوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان علياً كبيراً ﴾

هذا خبر وأمر ، أى الرجال قوامون على النساء في أمور الدين والدنيا ، يلزمونهم بحقوق الله والمحافضة على فرائضه ، ويكفونهم عن جميع المعاصي والمفاسد ، وبتقويمهم بالأخلاق الجميلة والآداب الطيبة ، وقوامون أيضاً عليهن بواجباتهن من النفقة والكسوة والسكن وتوابع ذلك . (بما فضل الله بعضهم على بعض . وبما أنفقوا من أموالهم) أى ذلك بسبب فضل الرجال عليهن وإفضالهم عليهن ، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة : من كون الولايات كلها مختصة بالرجال والنسبة والرسالة ، وباختصاصهم بالجهاد البدني ووجوب الجماعة والجمعة ونحو ذلك ، وبما تميزوا به عن النساء من العقل والرزانة والحفظ والصبر والجلد والقوة التي ليست للنساء ، وكذلك

يده هي العليا عليها بالنفقات المتنوعة ؛ بل وكثير من النفقات الأخر والمشاريع الخيرية ، فإن الرجال يفضلون النساء بذلك كما هو مشاهد ، ولهذا حذف المتعلق في قوله (وبما أنفقوا من أموالهم) ليبدل على هذا التعميم ، فلم من ذلك أن الرجل كالوالى والسيد على امرأته ، وهي عنده أسيرة عانية تحت أمره وطاعته ، فليثق الله في أمرها ، وليقومها تقوياً ينفعه في دينه ودنياه ، وفي بيته وعائلته يجدد ثمرات ذلك عاجلاً وآجلاً ، وإلا يفعل فلا يلومن إلا نفسه ، وهن قسمان :

قسم هن أعلى طبقات النساء وخير ما حازهن الرجال ، وهن المذكورات في قوله (فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) أى مطيعات لله ولأزواجهن ، قد أدت الحقين وفازت بكفيلين من الثواب ، حافظات أنفسهن من جميع الريب ، وحافظات لأمانتهن ورعاية بيوتهن ، وحافظات للعائلة بالتربية الحسنة والادب النافع في الدين والدنيا ، وعليهن بذل الجهد والاستعانة بالله على ذلك فلهذا قال (بما حفظ الله) أى إذا وقعن لهذا الأمر الجليل فليحمدن الله على ذلك ، ويعلمن أن هذا من حفظه وتوفيقه وتيسيره لها ، فإن من وكل إلى نفسه ، فالنفس أمارة بالسوء ، ومن شاهد منة الله وتوكل على الله وبذل مقدوره في الأعمال النافعة ، كفاه الله ما أهمه ، وأصلح له أموره ، ويسر له الخير وأجراه على عوائده الجميلة .

والقسم الثانى : هن الطبقة النازلة من النساء ، وهن بضد السابقات في كل خصلة ، اللاتى من سوء أخلاقهن وقبح تربيتهن تترفع على زوجها وتعصيه في الأمور الواجبة والمستحبة ، فأمر الله بتقويهن بالأسهل فالأسهل ، فقال (واللاتى يخافون نشورهن فعضوهن) أى يدينواهن حكم الله ورسوله في وجوب طاعة الأزواج ، ورغبوهن في ذلك بما يترتب عليه من الثواب ، وخوفوهن بمعصية الأزواج ، وذكروهن ما في ذلك من العقاب ، وما يترتب عليه من قطع حقوقها وإباحتها هجرها وضربها ، فإن تقوى من بالوعظ والتذكير فذلك المطلوب وحصل الاتفاق الذى لا يشوبه مكدر ، فإن لم يفسد التذكير فاهجروهن في المضاجع ، بأن لا ينام عندها ولا يباشرها بجماع ولا غيره لعل الهجر ينجع فيها ، وذلك بمقدار ما يحصل به المقصود فقط ، فإن القصد بالهجر نفع المهجور وأدبه ، ليس الغرض منه شفاء النفس كما يفعله من لارأى له إذا خالفته زوجته أو غيرها ولم يحصل المقصود ، هجر هجراً مستمراً ، أىبقى متأثراً بذلك ، عاتباً على من لم يواته على ما يحب ، ووصلت به الحال إلى الحقد الذى هو من الخصال الذميمة ، فهذا ليس من الهجر الجميل النافع ، وإنما هو من الحقد الضار بصاحبه ، الذى لا يحصل به تقويم ولا مصلحة ، فإن نفع الهجر للزوجة وإلا انتقل إلى ضربها ضرباً خفيفاً غير مبرح ، فإن حصل المقصود ورجعت إلى الطاعة وترك المعصية ، عاد الزوج إلى عشرتها الجميلة ، ولا سبيل له إلى غير ذلك من أذيتها لأنها رجعت إلى الحق .

وهذا الدواء لسكل عاص ومجرم إن الشارع رغبه إذا ترك إجرامه عاد حقه الخاض والعام

كما في حق التائب من الظلم وقطع الطريق وغيرها ، فكيف الزوج مع زوجته .
وفي هذه الآية ونحوها فائدة نافعة ، وهي أنه ينبغي لمن عاد إلى الحق أن لا يذكر الأمور
السالفة ، فان ذلك أخرى للثبات على المطلوب ، فان تذكير الأمور الماضية ربما أثار الشر فانتكس
المرض وعادت الحال إلى أشد من الأولى .

﴿ وإن ختم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا أصلاحاً يوفق الله
بينهما إن الله كان علماً خبيراً ﴾

هذه حالة أخرى غير الحالة السابقة التي يمكن الزوج معالجتها ، وهذه إذا استطار الشر بين
الزوجين ، وبلغت الحال إلى الخصام وعدم الالتئام ، ولم ينفع في ذلك وعظ ولا كلام (فابعثوا
حكما من أهله وحكما من أهلها) عدلين عاقلين يعرفان الجمع والتفريق ، ويفهمان الأمور كما ينبغي ،
فان الحكم لا بد أن يتصف بهذه الأوصاف ، فيبحثان في الأسباب التي أدت بهما إلى هذه الحال
ويسئلان كلا منهما ما ينقم على صاحبه ، ويزيلان ما يقدران عليه من المعتبة بترغيب الناقم على
الأخر بالأغضاء عن الهفوات واحتمال الزلات ، وارشاد الآخر إلى الوعد بالرجوع ، وارشاد كل
منهما إلى الرضى والنزول عن بعض حقه ، فكم حصل بهذا الطريق من المصالح شيء كثير ، وإن
أمكنهما إلزام المتعصب على الباطل منهما بالحق فعلا ، ومهما وجدا طريقاً إلى الإصلاح والاتفاق
والمسالمة بينهما لم يعدلا عنها ، إما بتنازل عن بعض الحقوق ، أو ببذل مال أو غير ذلك ، فان
تعذرت الطرق كلها ورأيا أن التفريق بينهما أصلح لتعذر الملائمة فرقا بينهما بما تقتضيه الحال بعوض
أو بغير عوض ، ولا يشترط في هذا رضى الزوج ، لأن الله سماهما حكيمين لا وكيابين ، ومن قال
إنهما وكيلان اشترط في التفريق رضى الزوج ، ولكن هذا القول ضعيف ، ولحجة الباري للاتفاق
بينهما وترجيحه على الآخر قال (إن يريدوا أصلاحاً يوفق الله بينهما) أى بسبب الرأى الميمون
والكلام اللطيف والوعد الجميل الذى يجذب القلوب ويؤثر فيها (إن الله كان علماً) بالسرائر
والظواهر مطلقاً على الخفايا ، فمن كمال علمه وحكمته شرع لكم هذه الأحكام الجلية التي هي الطريق
الوحيد إلى القيام بالحقوق (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)

﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوراً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا
والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتقوا فأن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾

هذه حالة من أحوال الزوجين غير الأحوال السابقة لأن الحالتين السابقتين حالة نشور الزوجة
وحالة وقوع الخصام واستطارة الشر بينهما ، وهذه إذا كان الزوج هو الراغب عن زوجته ، إما
عدم محبة وإما طمعاً ، فأرشد الله في هذه الحال إلى الطريق الذى تستقيم به الأمور ، وهو طريق

الصلح من المرأة أو وليها ليعود الزوج إلى الاستقامة ، بأن تسمح المرأة عن بعض حقها اللازم لزوجها على شرط البقاء معه ، وأن يعود إلى مقاصد النكاح أو بعضها ، كأن ترضى ببعض النفقة أو الكسوة أو السكن ، أو تسقط حقها من القسم أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضررتها بإذنه فتم اتفاقاً على شيء من ذلك فلا حرج ولا بأس ؛ وهو أحسن من المقاصة في الحقوق المؤدية إلى الجفاء أو إلى الفراق ، ولهذا قال (والصلح خير)

وهذا أصل عظيم في جميع الأشياء ، وخصوصاً في الحقوق المتنازع فيها أن المصالحة فيها خير من استقصاء كل منهما على حقه كله ، لما في الصلح من بقاء اللفة والاتصاف بصفة السباح ، وهو جائز بين المسلمين في كل الأبواب - إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً -

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه ، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح ، فذكر تعالى المقتضى لذلك فقال (والصلح خير) والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه ، فإن كان مع ذلك قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه ، وذكر المانع بقوله (وأحضرت الأنفس الشح) أي جبلت النفوس على الشح ، وهو الاستئثار والتفرد في الحقوق وعدم الرغبة في بذل ما على الإنسان والحرص على الحق الذي له ، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً ؛ أي فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم وتقليله وتلطيفه وتستبدلوا به ضده ، وهو السباحة ببذل جميع الحقوق التي عليكم والاعتناء ببعض الحق الذي لك والاعضاء عن التقصير ، فتمت وفق العبد لهذا الخلق الطيب سهل عليه الصلح بينه وبين كل من بينه وبينه منازعة ومعاملة ، وتسهلت الطريق الموصلة إلى المطلوب ، ومن لم يكن بهذا الوصف تعسر الصلح أو تعذر ؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ما له كاملاً مكلاً ، ولا يهون عليه أن يؤدي ما عليه ، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر .

ثم قال (وإن تحسنوا وتتقوا) أي تحسنوا في عبادة الخالق ؛ والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ؛ وتحسنوا إلى المخلوقين بكل احسان قولى أو فعلى ؛ وتتقوا الله بفعل جميع الأمور وترك جميع المحظورات ، أو تحسنوا بفعل المأمور وتتقوا بترك المحظور (فإن الله كان بما تعملون خبيراً) فيجازيكم على قيامكم بالاحسان والتقوى ، أو على عدم ذلك بالجزاء بالفضل والعدل .

﴿ ولئن تستطيحوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾

يخبر تعالى أنه ليس في قدرة الأزواج العدل التام بين زوجاتهم ، فإن العدل التام يقتضى أن

يكون الداعى والحب على السواء ، والميل القلبي على السواء ، ويقتضى مع ذلك الايمان الصادق والرغبة فى مكارم الأخلاق للعمل بمقتضى ذلك ، وهذا متمذر غير ممكن ، فلذلك عذر الله الأزواج وعفا عنهم عما لا يقدرُونَ عليه ، ولكنه أمرهم بالعدل الممكن فقال (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) أى لا تميلوا إلى إحداهن عن الأخرى ميلاً كثيراً ، بحيث لا تؤدُونَ حقوقهن الواجبة ، بل افعَلُوا مستطاعكم من العدل ، فالنفقة والكسوة والقسم فى المبيت والفراش ونحو ذلك مقدور ، فعليكم العدل فيها بينهن ، بخلاف الحب والوطء وتوابع ذلك . فالعبد لا يملك نفسه فعذره الله ، وقوله (فتذروها كالمعلقة) يعنى أن الزوج إذا مال عن زوجته وزهد فيها ولم يَقم بحقوقها الواجبة ، وهى فى حباله أسيرة عنده صارت كالمعلقة التى لا زوج لها فتستريح ، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها ، وإن تصلحوا فيما بينكم وبين زوجاتكم بهجه من وجوه الصلح كما تقدم ، وبمجاهدة أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتساباً وقياماً بحق الزوجة . وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس فيما تنسازعتم به من الحقوق ، وتتقوا الله بامتثال أمره واجتناب نهيه ، فإن الله كان غفوراً رحيمًا .

❦ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ❦ وكان الله واسعاً حكيمًا ❦

يعنى إذا تعذر الاتفاق والالتئام فلا بأس بالفراق ، فقال (وإن يتفرقا) أى يفسخ أو طلاق أو خلع أو غير ذلك (يغن الله كلا) من الزوجين (من سعته) أى من فضله واحسانه العام الشامل ، فيغنى الزوج بزوجة خير له منها ، ويغنيها من فضله برزق من غير طريقه ، فانها وإن توهمت أنه إذا فارقها زوجها المنفق عليها القائم بمؤنتها ينقطع عنها الرزق ، فسوف يغنيها الله من فضله ، فإن رزقها ليس على الزوج ولا على غيره ، بل على المالك كفل القائم بأرزاق الخليقة كلها وخصوصاً من تعلق قلبه به ورجاه رجاءاً قلبياً طامعاً فى فضله كل وقت ، فإن الله عند ظن عبده به ، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً لها منه وأنعم (وكان الله واسعاً) أى واسع الرحمة كثير الاحسان (حكيماً) فى وضعه الأمور مواضعها .

وفى الآية تنبيه على أنه ينبغي للعبد أن يعلق رجاءه بالله وحده ، وأن الله اذا قدر له سبباً من أسباب الرزق والراحة أن يحمد الله على ذلك ويسأله أن يبارك فيه له ، فإن انقطع أو تعذر ذلك السبب فلا يتشوش قلبه ، فإن هذا السبب من جملة أسباب لا تحصى لا يتوقف رزق العبد على ذلك السبب المعين ، بل يفتح له سبباً غيره أحسن منه وأنعم ، وربما فتح له عدة أسباب فعليه فى أحواله كلها أن يجعل فضل ربه والطعم فى بره نصب عينيه وقبلة قلبه ، ويكثر من الدعاء المقرون بالرجاء ، فإن الله يقول على لسان نبيه « أنا عند ظن عبدي بى فان ظن بى خيراً فله ، وإن ظن بى شراً فله » وقال « إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي »

فصل

قال الله تعالى في أحكام الطلاق والعدد ﴿ الطلاق مرتان - الى قوله - واعلموا أن الله بكل شئ عليم ﴾ وقال ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ الآيات

ذكر الله أحكام الفراق كما ذكر أحكام النكاح والدخول فيه، تقدم أنه تعالى حث الزوج على الصبر على زوجته ما دام متمكناً من الصبر، وفي هذا ذكر الله أنه إذا كان لا بد له من الطلاق، فعليه أن يطلق زوجته لعدتها، أى لتستقبل عدتها، وذلك أن يطلقها مرة واحدة في طهر لم يجامعها فيه أو يطلقها وهي حامل قد تبين حملها، أو وهي آيسة أو صغيرة، لأنها في هذه الأحوال كلها تبتدىء بالعدة البينة الواضحة، فمن طلقها أكثر من واحدة، أو وهي حائض أو نفساء. أو في طهر قد وطئ فيه ولم يتبين حملها فإنه آثم متمد لحدود الله، وإذا طلقها هذا الطلاق المشروع فله أن يراجعها ما دامت في العدة كما قال تعالى (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا) وسواء رضيت أو كرهت

وهذا الطلاق الذى يتمكن فيه العبد من الرجعة، هو الطلاق بواحدة الى اثنتين بلا عوض، فإن طلقها الطلقة الثالثة فلا تحل له حتى تنقضى عدتها وتنكح زوجاً غيره نكاح رغبة لا نكاح تحليل، ويطأها ويطلقها رغبة في طلاقها وتنقضى عدتها منه فله أن ينكحها برضاها وببقية شروط النكاح من الولي ومن الصداق وغيره، فإن طلقها بعوض بلفظ الطلاق أو الخلع أو الفداء أو غيرها من الألفاظ، فقد أباح الله هذا الفداء عند الحاجة، وهي التى نص عليها بقوله (فإن ختم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) وسواء كان العوض بقليل أو كثير لمعوم الآية، فإذا فارقها على هذا الوجه حصل لها الفكك منه ولم يكن له عليها رجعة إلا اذا شاءت بنكاح جديد، وعند التراجع بين الزوجين إذا رغب كل منهما في الآخر، فليس لولى الانثى أن يعضلها ويمنعها أن تراجع بعلمها الأول أو الذى فارقها، بغضاً له أو نكايته له وغضباً عليه، أو طمعاً في بذلها أو بذله له شيئاً من المال؛ فكل هذا لا يحل للولى أن يفعله، بل عليه أن يسعى في التأليف بينها وبين زوجها، وأقل ما عليه أن لا يعارض في ذلك، وإذا كان منهاياً عن ذلك بعد الطلاق أو الفداء ونحوهما؛ فكيف في ابتداء الأمر، ولكن بشرط أن يكون الزوج كفؤاً وترضى المرأة فيه.

وأما اذا منعها من تزوج من ليس كفؤاً لها في دينه أو غيره من الصفات المعتبرة شرعاً فهو محسن، لأن منعها عما فيه ضررها احسان عليها. وهذا أحد الاسباب في اعتبار الولي للمرأة

في النكاح . وفي قوله في الرجعة (إن يريد إصلاحاً) وفي التراجع (إن ظنا أن يقيما حدود الله) اعتبار هذا الشرط في الرجعة والتراجع ، والا فلا تراجع ولا يتراجعا للضرر والبقاء على غير ما يحبه الله . وفي هذا أن الأفعال مبنية على مقاصدها ، وأن الأمر الذي يقصد فيه الخير والصالح لا بد أن يجعل الله فيه بركة ، كما أن الذي يقصد به غير ذلك ولو مكن منه العبد فانه ضرر حاضر ويخشى أن تكون عواقبه ذميمة .

ويستفاد من هذا معنى كلياً نافعاً ، وهو أنه ينبغي للعبد إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور مثل الأمور التي يترتب عليها حقوق كثيرة ، ومثل الولايات الكبار والصغار والأمور المهمة أن يتأنى وينظر في نفسه وعاقبة أمره ، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بقيامه بما فيها من الحقوق تقدم اليها متوكلاً على الله ، وإلا أحجم واغتم السلامة عن الدخول في الأمور الخطرة . وأمر تعالى الأزواج أن يمسكوا زوجاتهم بمعروف أو يسرحوهن بمعروف ، فإن أمسكها أمسكها بعشرة حسنة ، وإن فارقها فليكن على وجه الشرع بطأ نينة ، من غير مغاضبة ولا مشاتمة ولا عداوات تقع بينه وبينها ، أو بينه وبين أهلها .

ومن التسريح بالمعروف أن يعطيها شيئاً من المال تتمتع به وينجبر به خاطرها ، وتذهب عن زوجها شاكرة ، ولا يكون لهذا الفراق على هذا الوجه إلا العواقب الطيبة للطرفين .

ولما بين الباري هذه الأحكام الجليلة غاية التبيين ، وكان القصد بها أن يعلمها العباد ويعملوا بها ويقفوا عندها ولا يتجاوزوها ، فانه لم ينزلها عبثاً بل أنزلها بالعلم والصدق والحق النافع والجد نهى عن اتخاذها هزواً أى لعباً بها ، وهو التجري عليها وعدم الامتثال لواجبها ، مثل المضارة في الإمساك والارسال أو كثرة الطلاق وجمع الثلاث ، وقال (واذكروا نعمة الله عليكم) عموماً باللسان حمداً وثناء وبالقلب اعترافاً وإقراراً ، وبالاركان بأن يستعان بنعمه على طاعته ، وخصوصاً ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ، فإن في الكتاب والسنة من بيان الحق والهدى من الضلال والحلال من الحرام وجميع ما يحتاجه العباد في أمور دينهم ودنياهم ما يوجب للعباد أن يشكروه شكراً كثيراً ويقوموا بحقه ويخضعوا لأحكامه ، وختم الآيات بعموم علمه تنبيه على أن أحكامه قد شرعها العليم الحكيم صالحة للعباد في كل زمان ومكان .

وقد ذكر عدة المفارقة بحسب أحوالها في كتابه ، فذكر أن المفارقة بطلاق إن كانت تحيض باستكمال ثلاثة قروء من بعد وقوع الطلاق عليها ، وأن الأيسة والتي لم تحض لصغر ونحوه عدتها ثلاثة أشهر ، وأن المفارقة بموت زوجها تربص أربعة أشهر وعشراً ، وأن الحامل من المفارقات في الحياة وبعد المات عدتها بوضع الحمل .

وفي هذه العدد وتقديرها من الاسرار والحكم والمنافع للزوجين وغيرها ما هو من آيات الله

للمتأملين المستبصرين ، وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فتموهن وسرحوهن سراحا جميلا » ففي هذه الآية أن المفارقة في الحياة بطلاق ونحوه ليس لزوجها عليها عدة إذا لم يدخل أو يخل بها ، بل بمجرد ما يطلقها لها الزوج في الحال .

وفي هذا أن العدة تثبت بالدخول وكذلك الخلوة كما ثبتت عن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ومفهوم الآية أن الفراق بالموت تعتد له الزوجة المعقود عليها ولو قبل الدخول ، وكما يؤخذ من مفهوم هذه فانه يؤخذ من عموم قوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن) الآية

وفيها أن العدة من حقوق الزوج لتمكنه من الرجعة ولحفظ فراشه ومائه من الاختلاط ، وحق لها أيضا ، فان المعتدة نوعان : نوع حامل لها النفقة بكل حال . قال تعالى « وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » ونوع غير حامل . وهي أيضا نوعان : مفارقة بآئنة بموت أو فسخ أو خلع أو ثلاث أو عوض . فهؤلاء كلهن لا نفقة لهن ولا كسوة ولا مسكن الا على وجه المعروف والاحسان ، ومفارقة رجعية فما دامت في العدة فلها النفقة والكسوة والمسكن وتوابعها على الزوج وحكمها حكم الزوجة التي في حباله في كل حال الا في القسم فلا قسم لها ، لأن الله سماه بعلا لها في قوله « وبعلوتهن أحق بردهن في ذلك » ولأن له أن يرجعها الى الزوجية التامة رضيته أو كرهت مادامت في العدة .

وفي قوله « ولا يخل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » دليل على أمانتها على نفسها وقبول قولها في وجود الحيض وانقطاعه لأنه توعدا بكتمان ذلك ، وهذا دليل على أن قولها معتبر . وفي قوله « اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن » دليل على أنه لا يقع الطلاق الا بعد النكاح . وأن من علق طلاقا بنكاح امرأة لم ينعقد هذا التعليق ولم يقع عليها شيء اذا نكحها ، لأن النكاح لا يراد به خلاف مقصوده وهذا بخلاف تعليق عتق المملوك للغير بملكه اياه ، فانه صحيح ويعتق اذا ملكه . لأن تملك الرقيق يقصد به العتق ، وهو مقصود شرعى صحيح .

وقوله (فتموهن) فيه الامر بتمتع المفارقة بالطلاق قبل المسيس مطلقا . وفي آية البقرة الامر بالتمتع اذا لم يسم لها مهرأفان سمي لها مهرأفانه يتنصف اذا طلقها قبل الدخول ، ويكون نصف الصداق هو المتعة كما قال تعالى (لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، وتمتوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ، وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ؛ وأن تعفوا أقرب للتقوى) فحث على العفو في هذا الموضع الخاص لنفعه وعظم موقعه ، وقال (ولا تنسوا

الفضل بينكم) وهذا ارشاد عظيم نافع في جميع المعاملات أنه ينبغي العبد فيها أن لا يستغنى في كل شيء بل يجعل للفضل محلاً من عفو ومحابة وإعطاء أزيد مما في الثمة قدراً أو وصفاً، وقبول أدنى من الحق كمية وكيفية، فكم حصل بهذا الفضل - وإن كان طفيفاً - خير كثير وأجر كبير ومعروف وبركة وراحة فكر وطأنينة قلب.

وفي قوله (وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين) وهذا العموم يقتضي أن كل مطلقة لها على زوجها متعة، لكن إن كانت غير مدخول بها ولم يسلم لها مهر، فالمتعة واجبة كما تقدم بحسب يسار الزوج وإعساره، وإن كان قد سمي لها مهر، تنصف المهر وكان النصف الحاصل لها هو المتعة فإن لم يكن الأمر كذلك كانت المتعة حقاً معروفاً وإحساناً بحسب ما فيها من جبر خاطرها وقضاء نوائبها التي هي مظنة الحاجة إليها في تلك الحال، وكون ذلك عنواناً على التسريح بالمعروف. ودفعاً للشغبات والعداوات التي تحدث لكثير من الناس عند الطلاق، واحتمالاً لبراءة ذمته مما لعله لحقه لها من الحقوق، وتسهيلاً للرجعة أو للمراجعة إذا تغيرت الحال وأحدث الله بعد ذلك أمراً، ولها من الفوائد شيء كثير، ومدح الله هذه الأحكام الجليلة بقوله (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) فسمى هذه الأحكام آيات لأنها تدل أكبر دلالة على عنايته واطفئه بعباده، وأنه شرع لهم من الأحكام، الأحكام الصالحة لكل زمان ومكان ولا يصلح العبادة غيرها.

فصل في آيات في الإيلاء والظهار واللعان

قال تعالى «الذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر، فإِنْ فاءَ وان الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم» وقال «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها» الآيات. وقال في اللعان «والذين يرمون أزواجهم» الآيات.

من جملة الأحكام المنتشرة المتعلقة بالزوجة أنه قد يؤلى منها أو يظاهر منها، والفرق بين الإيلاء والظهار أن الإيلاء هو الحلف بالله على ترك وطء زوجته أبداً أو مدة طويلة تزيد على أربعة أشهر إذا كان قادراً على الوطء، فإذا فعل ذلك وحلف بهذا الحلف فلا يخلو، إما أن تطالبه الزوجة بحقه من الوطء أو لا تطالبه، فإن لم تطالبه ترك وشأنه، فإن وطئ في هذه المدة فقد حنث وعليه كفارة يمين وإلا فلا كفارة عليه، وإن طالبت بالوطء أمر بذلك وجعل له أربعة أشهر فإن فاء ورجع إلى الوطء فذلك هو المطلوب منه، وهو أحب الأمرين إلى الله، وإن أبى وامتنع ومضت الأربعة الأشهر وهو مصر على عدم وطئها وهي مقيمة على طلب حقها، أحسن على أحد الأمرين إما أن يفيء ويكفر كفارة يمين، وإما أن يطلق. فإن امتنع من كل منهما طلق الحاكم عليه.

وأما الظاهر : فإن يجرم زوجته ويقول لها : أنت على كظهر أمي أو نحوه من ألفاظ التحريم الصريحة . فهذا قد أتى منكراً من القول وزوراً ؛ وكذب أعظم كذب إذ شبهه من هي حلال بن هي أعظم المحرمات وهي الأم ، ولهذا قال (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً) ثم عرض التوبة فقال (وإن الله لعفو غفور) ثم ذكر طريقها بالكفارة ، فأمر المظاهر أن يعتق رقبة من قبل أن يمسه ، فإن لم يجد صام شهرين متتابعين من قبل المسيس أيضاً ، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينا ، فبعد هذه الكفارة تحل له الزوجة وتنحل يمينه ، وأما اللعان فإن الزوج إذا رمى زوجته بالزنا ولم يكن له على ذلك أربعة شهود ولم تعترف بل أقامت على الإنكار ، فعليه ما على من قذف المحصنات من جلد ثمانين جلدة إلا أن يلاعنها ، وذلك بأن يشهد أربع مرات أنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنا ويقول في الخامسة داعياً على نفسه ؛ وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فحينئذ يترتب عليها الحد أو الحبس حتى تفر ، إلا أن تقابل بلعان يدرأ عنها العذاب ، بأن تقول أربعاً : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا ، وتزيد في الخامسة وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، فعند ذلك يحصل الفراق الأبدي بينه وبينها .

والحكمة في تخصيص الزوج بسقوط حد القذف عنه إذا لعن أن الزوج محتاج ، وربما كان مضطراً إلى رميها لنفي ما يلحقه من أولاد غيره ولحقه وافساد فراشه . وأما القاذف إذا كان غير زوج إذا قذف غيره بالزنا ، فإن الله قال في حده (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا) الآية .

فصل في آيات الحدود

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ ﴾ إلى آخرها .

يتمن الله على عباده بأنه فرض عليهم القصاص في القتل ، أي المساواة فيه ، وأن يقتل القاتل عداً على الصفة التي قتل عليها المقتول ، إقامة للعادل بين العباد ، وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل ، حتى القاتل بنفسه ، أعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل ، وأنه لا يحل لهم أن يحولوا بينه وبين القاتل إذا تمت الشروط كما يفعل أهل الجاهلية ومن أشبههم من إنباء المحدثين .

ثم فصل ذلك بقوله (الحر بالحر) يدخل في منطوقها وفي منطوق قوله (أن النفس بالنفس)

أن الذكر يقتل بالأنثى ، كما تقتل الأنثى بالذكر ، فيكون هذا المنطوق مقدماً على مفهوم قوله (الأنثى بالأنثى) مع دلالة صريح السنة الصحيحة في قتل النبي ﷺ اليهودى بالجارية . وخرج من هذا العموم الأبوان وإن علوا فلا يقتلان بالولد لورود السنة بذلك ، مع أن في لفظ القصاص ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده ، ولأن ما في قلب الوالدين من الرحمة المانعة من صدور هذه الجريمة منها على ولدهما ما يحدث الشبهة ، إما أنه لا بد أن في عقلمها اختلالاً أو أذية شديدة أخرجته إلى قتل ولده ، أو لم يجرر أن القتل عمد محض .

وخرج من هذا العموم أن المسلم لا يقتل بالكافر لثبوت السنة بذلك ، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة ، وليس أيضاً من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه (والعبد بالعبد) ذكراً كان أو أنثى تساوت قيمتهما أو اختلفت ، ودل مفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد لكونه غير مساو له . وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في العمد العدوان ؛ وأن الدية بدل عنه ، فلماذا قال (فمن عفى له من أخيه شيء) أى عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية ، أو عفا بعض الأولياء . فانه يسقط القصاص وتجب الدية وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي ، فاذا عفا عنه وجب على ولي المقتول أن يتبع القاتل بالمعروف من غير أن يشق عليه ولا يحمله ما لا يطيق بل يحسن الاقتضاء والطلب ولا يجرجه ، وعلى القاتل أداء اليه باحسان من غير مطل ولا نقص ولا اساءة فعلية أو قولية ، فهل جزاء الاحسان اليه بالعتو إلا الاحسان بحسن القضاء ، وهذا مأثور به في كل ما ثبت في ذم الناس للانسان مأثور من له الحق بالاتباع بالمعروف ، ومن عليه الحق بالأداء باحسان كما قال ﷺ « رحم الله عبداً سمحاً إذا قضى ، سمحاً إذا اقتضى »

وفي قوله (عفى له من أخيه) ترقيق وحث على العفو إلى الدية وأكل من ذلك العفو مجاناً ، وفي قوله (أخيه) دليل على أن القاتل عمداً لا يكفر ، لأن المراد بالاخوة هنا أخوة الاسلام ؛ فلم يخرج بالقتل عنها ، ومن باب أولى سائر المعاصي التي هي دون القتل ، فان صاحبها لا يكفر ولكنه يستحق العقاب وينقص بذلك إيمانه إن لم يقب ، وإذا عفا أولياء المقتول أو بعضهم احتقن دم القاتل وصار معصوماً منهم ومن غيرهم . فلهذا قال (فمن اعتدى بعد ذلك) أى بعد العفو (فله عذاب أليم) أى في الآخرة ، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم لأنه قتل مكافئاً له فيجب قتله بذلك ، ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال (ولكم في القصاص حياة) أى تنحق بذلك الدماء ، وتنقمع به الأشقياء ، لأن من عرف أنه إذا قتل قتل لا يكاد يصدر منه قتل وإذا رأى القاتل مقتولاً انزجر غيره بذلك ، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل انكشاف الشر ما يحصل بالقتل ، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكابة والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار . ونكر الحياة لافادة التعظيم

ولما كان هذا الحكم لا يعرفه حقيقة المعرفة إلا أهل العقول الكاملة قال : (ولمكم في القصص حياة يا أولى الألباب لعلمكم تتقون) وهذا يدل على أنه يجب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم في تدبر ما في أحكامه من الحكم والمصالح الدالة على كماله وكمال حكمته وحده وعدله ورحمته الواسعة ، وإن من كان بهذا الوصف فقد استحق الثناء والمدح بأنه من ذوى الألباب الذين وجه إليهم الخطاب ، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً ، وقوله (لعلمكم تتقون) وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة أوجب له أن يتقاد لأمر الله ويخضع لشرعه طاعة لله ولرسوله .

قوله ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾

هذا حد الزاني غير المحصن من ذكر أو أنثى يجلد مائة جلدة ، جلدة تؤلمه وتجبره ولا تهلكه ، ويتعين أن يكون ذلك علناً لا سراً بحيث يشهده طائفة من المؤمنين ، لأن إقامة الحدود من الضروريات لقمع أهل الجرائم ، واشتهارها هو الذى يحصل به الردع والانزجار وإظهار شعائر الدين ، والاستتار به أو على أحد دون أحد فيه مفسد كثيرة . ووردت السنة بتغريب عام كامل عن وطنه مع الجلد ، كما تواترت السنة وأجمع المسلمون على رجم الزاني المحصن يرحم بالحجارة حتى يموت ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم ﴾

السارق هو من أخذ مال غيره المحترم بغير رضاه ، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب هذه العقوبة ، وهو أنه يجب قطع يده اليمنى كما هي قراءة بعض الصحابة ، واليد إذا أطلقت فهي الكف إلى الكوع فقط ، فإذا قطعت حسمت وجوباً في زيت أو ودك مغلى لتتسد العروق فيقف الدم ، ولكن السنة قيدت عموم الآية السكريمة بأمر كلهما ترجع إلى تحقيق السرقة للأموال . فمنها : لا بد أن يكون المسروق نصيباً ، وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساوى ذلك . ومنها : لا بد أن يكون المأخوذ منه حرزاً ، وحرز كل مال ما يحفظ به عادة ، فلو سرق من مال غير محرز فلا قطع عليه ، ويؤخذ هذا من لفظ السارق ، فانه الذى يأخذ المال على وجه لا يمكن التحرز منه ، فان عاد السارق قطعت رجله اليسرى ، فان عاد فقتل تقطع يده اليسرى ، ثم إن عاد قطعت رجله اليمنى ، وقيل يحبس حتى يموت ، وورد في ذلك آثار عن السلف مختلفة .

وقوله (جزاءً بما كسبا) من التجري على أموال الناس (نكالا من الله) أى ترهيباً منه للسارق ليرتدعوا إذا علموا أنهم يقطعون ، وهذا نظير قوله في القتل (ولمكم في القصص حياة) والله (عزيز حكيم) أى عز وحكم ، فقطع بحكمته يد السارق تنكيلاً للمجرمين وحفظاً للأموال .

وقد ذكر الله قبل هذا حد قطاع الطريق المحاربين في قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله) الآية . فقيل إن الامام مخير فيهم بين هذه الأمور ، وعليه أن يفعل ما تقتضيه المصلحة ويحصل به النكاية ، وقيل إن هذه العقوبة مرتبة بحسب الجريمة ، فإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع لهم بين القتل والصلب ، وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا ، قتلوا ولم يصلبوا ، وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا مالا ، نفوا من الأرض فلا يتركون يأوون إلى بلد ، أو يجلسون كما قاله بعضهم .

فصل في الأيمان ونحوها

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِالْأَلْفِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْذَرُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾

يقول الباري يا أيها الذين آمنوا اعملوا بمقتضى ايمانكم في تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله ، فلا تحرموا ما أحل الله لكم من المطاعم والمشارب وغيرها ، فإنها نعم تفضل الله بها عليكم فاقبلوها واشكروا الله عليها إذ أحلها شرعاً ويسرها قدراً ، ولا تردوا نعمة الله بكفرها أو عدم قبولها أو اعتقاد تحريمها أو الحلف على عدم تناولها ، فإن ذلك كله من الاعتداء ، ولهذا قال (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) بل يبغضهم ويمقتهم على ذلك (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) أي كلوا من رزقه الذي ساقه اليكم ويسره لكم بأسبابه المتنوعة ، إذا كان حلالا لا سرقة ولا غصباً ، ولا حصل في معاملة خبيثة ، وكان أيضاً طيباً نافعاً لا خبث فيه (واتقوا الله) في امتثال أوامره واجتناب نواهيه (الذي أنتم به مؤمنون) فإن الايمان لا يتم الا بذلك ، وهو يدعو الى ذلك .

ودلت الآية الكريمة أن العبد إذا حرم حلالا عليه من طعام وشراب وكسوة واستعمال وسرية ونحو ذلك ، فإن هذا التحريم منه لا يحرم ذلك الحلال ، لكن إذا فعله فعليه كفارة يمين ، لأن التحريم يمين كما قال تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) وهذا عام في تحريم كل طيب ، إلا أن تحريم الزوجة يكون ظاهراً فيه كفارة الظهار السابقة .

وكما أنه ليس له أن يحلف على ترك الطيبات فليس له أن يمتنع من أكلها ولو بلا حلف تنسكا وغلواً في الدين ؛ بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) ويشمل هذا الايمان التي حلف بها من غير نية ولا قصد ، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك ، (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان) أى بما عقدت عليه قلوبكم ، كما قال في الآية الأخرى (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) فإذا عقد العبد اليقين وحث ؛ بأن فعل ما حلف على تركه أو ترك ما حلف على فعله ، خيّر في الكفارة بين اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، وذلك يختلف باختلاف الناس والأوقات والأمكنة ، أو كسوتهم بما يعد كسوة ، وقيده ذلك بكسوة تجزى في الصلاة ، أو تحرير رقبة صغير أو كبير ، ذكر أو أنثى ، بشرط أن تكون الرقبة مؤمنة ، كما في الآية المقيدة بالايمان ، وأن تكون تلك الرقبة سائمة من العيوب الضارة بالعمل ، ففتى كفى واحد من هذه الثلاث انحلت يمينه .

وهذا من نعمة الله على هذه الأمة أنه فرض لهم تحلة أيمانهم ورفع عنهم الازام والجناح ، فمن لم يجد واحداً من هذه الثلاثة فعليه صيام ثلاثة أيام ، أى متتابعة مع الامكان ، كما قيدت في قراءة بعض الصحابة (واحفظوا ايمانكم) عن أن تحلفوا بالله وأنتم كاذبون ، وعن كثرة الايمان لاسيما عند البيع والشراء ، واحفظوها إذا حلفتم ، عن الحنث فيها ، إلا إذا كان الحنث خيراً من المضى فيها كما قال تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصالحوا بين الناس) أى لا تقولوا إننا قد حلفنا على ترك البر وترك التقوى وترك الصلاح بين الناس ، فتجعلوا أيمانكم مانعة لكم من هذه الأمور التي يحبها الله ورسوله ، بل احنثوا وكفروا وافعلوا ما هو خير وبر وتقى ، واحفظوا أيضاً أيمانكم إذا حلفتم وحنثتم بالكفارة ، فان الكفارة بها حفظ اليمين الذي معناه تعظيم المحلوف به ، فمن كان يحلف ويحنث ولا يكفر فما حفظ يمينه ، ولا قام بتعظيم ربه (كذلك يبين الله لكم الآيات) المبينة للحلال من الحرام الموضحة للأحكام (لعلكم تشكرون) فعلى العباد أن يشكروا ربهم على بيانه وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمون ، فان العلم أصل النعم وبه تم .

فصل فى آيات فى الاطعمه ونحوها والصيود وتوابعها

قال الله تعالى ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً . وقد فصل لكم ما حرم عليكم . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يحدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ﴾ الآية . وبعدها « يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين

تعلمون من مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ، ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه .. قل لا أجد فيها أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحماً خنزير ، فانه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، فان الله غفور رحيم)

دلت هذه الآيات الكريمات على أن الأصل في الأشياء الحل من طعام وشراب وغيرها ، لأن الله تعالى خلق لنا ما في الأرض جميعاً ننتفع به بكل وجوه الانتفاعات ، من أكل وشرب واستعمال . وفصل لنا ما حرم علينا ، فما لم يذكر في الكتاب والسنة تحريمه فهو حلال ، وأباح لنا كل طيب ، وحرم علينا كل خبيث .

فمن الخبائث المحرمة الميتة - سوى ميتة الجراد والسماك - وهي ما مات حتف أنفه أو ذكى ذكاته غير شرعية ، والدم المسفوح كما قيدته الآية الأخرى ، وأما الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح فانه طيب حلال (ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) بأن ذبح لغير الله من أصنام أو ملائكة أو انس أو جن أو غيرها من المخلوقات .

ومن الخبائث كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ، كما صح بذلك الحديث عن النبي ﷺ .

ومن الميتة (المنخنقة) أى التى تخنق بالحبال أو غيرها ، أو تخنق فتموت (والموقوذة) وهى التى تضرب بالحصى أو بالعصا حتى تموت . ومن هذا إذا رمى صيداً فأصاب الصيد بعرضه فقتله ، (والمتردة) وهى التى تسقط من موضع عال كسطح وجبل فتموت (والنطيحة) التى تنطحها غيرها فتموت بذلك ، وما أكله ذئب أو غيره من السباع ، وكل هذه المذكورات إذا لم تدرك ذكاتها فان أدركها حية فذكاها حلت . لقوله (إلا ما ذكيت) وسواء غلب على الظن بقاؤه أو تلفه إذا لم يذك أم لا .

ومن المحرمات الحشرات وخشاش الأرض من فأرة وحية ووزغ ونحوها من المستخبة شرعاً وطباً .

ومن المحرمات ما ذكى ذكاته غير شرعية ، إما أن الذابح غير مسلم ولا كتابى ، وإما أن يذبحها فى غير محل الذبح وهى مقدور عليها ، وإما أن لا يقطع حلقومها ومريئها ، وإما أن يذبحها بغير ما ينهر الدم أو بعظم أو ظفر ، وما أمر الشارع بقتله أو نهى عن قتله ، دل على تحريمه وخيئه .

وكل هذه الأشياء تحريمها فى حال السعة ، وأما إذا اضطر إليها غير باغ لا كلها قبل أن يضطر ولا تمتد إلى الحرام ، وهو يقدر على الحلال ، فانه إذا اضطر إليها غير باغ ولا عاد فان الله غفور

رحيم . من رحمته أباح المحرمات في حال الضرورة .
ومن رحمته وسع لعباده طرق الحلال ، فأباح الصيد إذا جرح في أى موضع من بدنه ، وأباح
صيد السهام إذا سعى الرامي عند رميها ، وأباح أيضا صيد الكلاب المعلمة والطيور المعلمة والتعليم
يختلف باختلاف الحيوانات ؛ قال العلماء : تعليم الكلب أن يسترسل إذا أرسل وينزجر إذا زجر
وإذا أمسك لم يأكل من صيده لقوله (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) أى
عنه أرسلها لقصد الصيد .

فصل فى جوامع الحكم والقضايا فى الاصول والفروع

قال الله تعالى (وأن احكم بينهم بما أنزل الله . لتحكم بين الناس بما أراك الله ، وإن حكمت
فاحكم بينهم بالقسط ، فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول . يا داود إنا جعلناك خليفة فى
الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ومن أحسن من الله حكما
لقوم يوقنون ، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً)

الحكم بين الناس بالحق والقسط ، هو الحكم بما أنزل الله ، وهو الرد إلى الله ورسوله ، فان
هذه الآيات يصدق بعضها بعضاً ؛ وتدل على أن الحق والعدل لا يخرج عما جاء به الرسول ، وأن
حكم الله ورسوله أحسن الأحكام على الإطلاق ، أى أعدلها وأقومها وأصلحها وأجسمها للشرور ،
وأعظم أحكام توصل بها إلى تحصيل المصالح ودرء المفسد ، وأن رد مسائل النزاع والاختلافات
الدينية والدنيوية إلى الله والرسول خير فى الحال وأحسن عاقبة ، وأن كلمات الله تمت وكملت من
كل وجه صدقاً فى اخبارها ، وعدلاً فى أحكامها وأوامرها ونواهيها ، فكل مسألة خارجة عن العدل
إلى الظلم ، وعن الصلاح إلى الفساد ، فليست من الشرع ، وقد جاء شرع الله محكم الأصول
والفروع موافقاً للمعقول الصحيح والاعتبار والميزان العادل .

وقد حكم الله ورسوله بأحكام متنوعة متفرعة عن هذا الأصل العظيم ؛ وتفصيل لمجملة ،
فحكم الله بأن اقرار من عليه الحق معتبر فى القليل والكثير ، كما تقدم التنبيه عليه فى آية الدين
وحكم بأن البينة على المدعى لاثبات حق ، أو المدعى براءة الذمة من الحقوق الثابتة ، وأن
اليمين على من أنكر ، وهاتان القاعدتان عليهما مدار جمهور القضايا ، اعتبار اقرار من عليه الحق
إذا كان جازئ التعريف ، وتكليف المدعين كلهم بالبينات

والبينة شرعاً اسم جامع لكل ما بين الحق ، والبيان مراتب بعضها يصل إلى درجة اليقين
وبعضها كالقرائن ، وشواهد الأحوال توصل إلى غلبة الظن ، والترجيحات كثيرة جداً .

وعند تساوى ترجيحات ومقادير الأشياء ومقياسها بالتوسط بينها ، إما بقسمتها متساوية وجعل الزيادة والنقص بحسب ذلك ، وإلا بالقرعة إذا تعذرت القسمة ، ومن أحكام الشارع العادلة الغاؤه المعاملات الظالمة الجائرة : كأنواع الفرر والظلم والميل على أحد المتعاملين بغير حق ومن أحكامه السكينة اعتباره التراضى بين المتعاملين فى عقود المعاوضات وفى عقود التبرعات وأنه لا يحل مال امرئ مسلم أو معاهد إلا بطيب نفسه .

ومن أحكامه السكينة منع الضرر والاضرار بغير حق فى كل معاملة وخلطة وجوار واتصال . ومن أحكامه السكينة أن على العمال تكميل أعمالهم بغير نقص ، وعلى من عمل لهم تكميل أجورهم

ومن أحكامه السكينة إيجابه الوفاء بالعقود والشروط التى يشترطها أحد المتعاقدين على الآخر فى أبواب العقود كلها مما لكل منهما أو لأحدهما فيه مصلحة ، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ، فهذا قد أهدره الشارع وألغاه وقال : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد .

ومن أحكامه السكينة اعتبار المقاصد والنيات فى أبواب المعاملات والأعمال ، كما تعبر فى باب العبادات ، وبهذا الأصل أبطل جميع الخيل التى يتوسل بها إلى فعل محرم أو إسقاط حق مسلم ونحوها .

ومن أحكامه السكينة أن جميع العقود اللازمة والجائرة : عقود المعاوضة وعقود التبرع وكذلك الفسوخ تنعقد بما دل عليها من الألفاظ التى يتعارفها المتعاقدان ، ومن الأفعال الدالة على ذلك .

ومن أحكامه السكينة أن تلف الشيء بيد الظالم كالغاصب ونحوه فيه الضمان فرط أو لم يفرط فإن ثبوت يده على وجه الظلم والعدوان ، وأن تلف الشيء تحت يد الأمين لا ضمان فيه إن لم يفرط أو يتعد .

ومن أحكامه السكينة أن الشيء المشكوك فيه يرجع فيه إلى اليقين فى العبادات والمعاملات فمن ادعى الأصل فقولاه مقبول ، ومن ادعى خلاف الأصل لم يقبل إلا ببينة ، وأن الأصل بقاء ما كان على ما كان ، والأصل براءة الذمة حتى يتيقن اشتغالها ، كما أن الأصل بقاء ما كان ثابتاً فى الذمة حتى يتيقن البراءة بوفاء أو إسقاط أو سقوط ، وأن الأصل فى عقود المسلمين الصحة والسلامة حتى تعرف أنه جرى ما يفسدها .

ومن أحكامه السكينة أن جميع الأحكام من أصول وفروع لا تتم وتكمل ويحصل مقتضاها إلا باجتماع شروطها وأركانها ومقوماتها وانتفاء موانعها ومفسداتها .

ومن أحكامه الكلية وجوب المائلة في المتلفات والمضونات بمثلها ان أمكن المثل ، وبالقمية إن تعذر المثل .

وكذلك الأعمال ، فمن عمل لغيره عملاً بموضع لم يسم ، أو سمي تسمية فاسدة ، أو جهلت التسمية أو عاوضه معاوضة تعذر معرفة العوض فيها ، فإنه يرجع في ذلك إلى أجرة المثل وعوض المثل .

ومن أحكامه الكلية وجوب العدل بين الأولاد والزوجات ، ووجوب العدل بين ذوى الحقوق الذين لامرية لواحد منهم على الآخر ، كالعمل الداخل على أهل الفروض بالسوية ، وكقسمة المال بين الغرماء إذا لم يف بمقوقمهم يعطون على قدر حقوقهم إذا لم يكن لأحدهم مزية رهن ونحوه وكاشتراك الملاك في الزيادة المترتبة عليها على قدر أملاكهم ، والنقص على قدر أملاكهم إذا اعتراها نقص ، وسواء كان النقص بحق تعلق بها أو بتلف أو خسارة أو وقع ظمناً فانهم يشتركون في الزيادة والنقص على قدر أملاكهم

ومن أحكامه الكلية اثبات الخيار في كل عقد ظهر في العوض المعين أو المعوض عيب ينقصه وأنه إذا لم يمكن الرد تمين الارش واسقاط النقص ، وعلى الصحيح لا فرق بين البيوع وغيرها فان هذا من قاعدة العدل

ومن أحكامه الكلية جعل المجهول كالمعوم ، ويندرج تحت هذا الأصل الاموال التي جعل ملاكها أنه يتصدق بها عنهم أو تبذل في المصالح نيابة عنهم ، وتملك اللقطة ومن مات لا وارث له بفرض ولا تعصيب ولا رحم تركته في بيت المال للمصالح العامة جعلاً للمجهول في ذلك كالمعوم ومن أحكامه الكلية الرجوع الى العرف إذا تعذر التعيين شرعاً ولفظاً ، كالرجوع للعرف في نفقة الزوجات والاقارب والاجراء ، وكالشروط العرفية في المعاملات إذا اطردت بين الناس وكالقبض والحرز ونحوها مما لا يمد ولا يحصى

ومن أحكامه الكلية أن الأصل في العبادات الحظر ، فلا يشرع منها الا ما شرعه الله ورسوله ، والأصل في المعاملات والاستعمالات كلها الاباحة ، فلا يحرم منها الا ما حرمه الله ورسوله وعلى هذا جميع أحكام العبادات والمعاملات وغيرها مما لا يمكن احصائه ، ولهذا من شرع في عبادة لم تنقل عن الشارع فهو مبتدع ، ومن حرم من العادات شيئاً لم يرد عن الشارع فهو مبتدع

ومن أحكامه الكلية حثه على الصلح والاصلاح بين من بينهم حقوق ، وخصوصاً عند اشتباهاها أو عنيبتا كرها ، وإذا تعذر استيفاء الحق كله أو تعسر ، فقد شرع في ذلك كله الصلح بالعدل وسلوك الحالة المناسبة لتلك القضية بما تمضي به الحال ، وفيه من الفوائد والثمار الطيبة مما لا يمد ولا يحصى

ومن أحكامه الكلية اعتبار العدالة في الشهود وأن يكونوا ممن يرضى من الشهداء ، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فالشارع اعتبر شهادة العدل المرضى من الشهداء وأسقط شهادة الكاذب والقاذف قبل التوبة ، وأمر بالثبوت في خبر الفاسق وكذلك المجهول ، لانه اعتبر المرضى العديل عند الناس ، فلا بد من تحقيق هذا الوصف ، وأما عدد الشهود ونصابها فذلك يختلف باختلاف المشهود به كما فصله أهل العلم .

ومن أحكامه الكلية أن من سبق إلى مباح فهو أحق به ، فيدخل في هذا سبق إلى الجلوس في المساجد والأسواق والأقنية ، ويدخل فيه سبق إلى النزول في المساكن والوقوف التي لا تتوقف على نظر ناظر ، ويدخل في ذلك سبق إلى المباحات من الصيد البرية والبحرية وإلى ما يستخرج من البحار والمعادن ، وإلى الاحتشاش والاحتطاب وغير ذلك ، وإلى احياء الموات وغيرها من المسائل المتنوعة الداخلة في هذا الأصل .

ومن أحكامه الكلية قبول قول الأمناء على ما في أيديهم مما هم عليه أولياء من قبل الشارع أو قبل المالك بالوكالة أو الوصاية أو النظارة للأوقاف ، فكل هؤلاء مقبول قولهم فيما يدعونه من داخل وخارج ومصرف ونحوه إذا كان ذلك ممكناً ، وهذا معنى تأمينهم وتوليهم وولايته . واعلم أن قبول قول هؤلاء في هذه الأمور لا يمنع محاسبتهم ، وطلب الوقوف على كيفية تلك المصارف الداخلية والخارجية ، وتبيين وجه النقص والتلف ونحو ذلك ، ليستظهر بذلك على صدقهم وكذبهم وأما تمكينهم من اطلاق سراحهم بحجة أنهم أمناء مقبول قولهم ، فهذا غلط على الشريعة وعلى الحقيقة ، فالشارع حاسب عماله واستدرك عليهم ، والحقيقة والوقوف عليها مطلوب باتفاق أهل الاعتبار ، فكم من أمين ظهرت خيانتة يقيناً حين استدرك عليه .

ومن أحكامه الكلية أن الواجب يسقط بالعجز عنه بالكلية ، وأنه إذا قدر على بعض الواجب وجب عليه ما يقدر عليه منه ، وسقط عنه ما يعجز عنه ، وهذا مطرد في العبادات والحقوق الواجبة وغيرها ، كما أن الضرورة تبيح المحظور وتقدر بقدرها .

ومن أحكامه الكلية أنه أقام البديل مقام مبداه في أحكام العبادات والمعاملات والحقوق وغيرها ، فمضى كان الشيء بديل وتعذر الأصل ، قام هذا مقامه ، وحكم له بأحكامه ، وأن التماثل تابع للأصل .

ومن أحكامه الكلية أن من وجب عليه أمر من الأمور فانه يجبر عليه بحق . وأن من أتلف شيئاً لدفع أذاه له دفعاً عن نفسه ، فلا ضمان عليه ، فان أتلفه للانتفاع به ضمنه . وأن ما ترتب على المأذون فيه من تلف فغير مضمون ، وما ترتب على غير المأذون فانه مضمون .

ومن أحكامه الكلية أن الاستثناءات والقيود والأوصاف الملحقة بالألفاظ تعتبر وتقيّد الكلام ويرتبط بها بشرط الاتصال لفظاً أو حكماً ، ويدخل في هذا ألفاظ العقود والفسوخ والوقف والوصايا والعقود والطلاق والأيمان والقرارات وغيرها

ومن أحكامه الكلية أن الشركاء في الأملاك والمنافع يلزمون بكل ما يعود إلى حصول المنافع الضرورية ودفع المضار ، ويجبر الممتنع منهما من ذلك من المصارف والنققات والضرائب التي تلحق الأملاك ثم فيها شركاء على كل منهم بقدر ملكه

ومن أحكامه الكلية أن المباشر لا تلاف الأموال أو المتسبب لذلك ضامن لها متعمداً كان أو ناسياً أو جاهلاً ، وأنه إذا اجتمع المباشر والمتسبب كان الضمان على المباشر إلا إن تعذر تضمينه لفقد أو امتناع أو عسر أو نحوه ، فيحال الضمان على المتسبب بغير حق

ومنها أن من أدى عن غيره ديناً واجباً بنية الرجوع ، فإنه يرجع ولو لم يأذن له في ذلك

ومنها أن الوصف في الشيء الذي بيد الغير ، وذلك الغير لا يدعيه لنفسه يئنة

ومنها أن من تعجل شيئاً قبل أوانه على وجه محرم عوقب بحرمانه

ومن أحكامه الكلية أنه إذا تزاخت المصالح قدم الأعلى منها ، وإن تزاخت المفاسد وكان لا بد من فعل أحدها ارتكب الأخف منها لدفع الأشد مفسدة ، وعلى هذا من مسائل الفقه مالا يعد ولا يحصى ، لأن الشارع شرع الشريعة لتحصيل المصالح أو تكميلها ولتقليل المفاسد وتعطيلها بحسب الامكان

ومنها أن إطلاق التشريك في الوصايا والهبات والقرارات وإيقاع العقود والفسوخ على الأعيان وغير ذلك ؛ كل ذلك يقتضى المساواة بين من شرك بينهم في شيء من ذلك ، إلا إن دل دليل على المفاضلة بينهم ، وكذلك في الأشياء المشتبهة التي يعلم أنها لهؤلاء الأشخاص ، ولا يعلم مقدار مال كل فاتهم يتساوون فيها ، وأدلة هذه الأصول من الكتاب والسنة ظاهرة ، وهي أصول جامعة عظيمة النفع ، ينتفع بها الحاكم والمفتي وطالب العلم ، وهي من محاسن الشريعة ومن أكبر البراهين على أن ما جاء به الرسول حق من عند الله محكم الأصول متناسب الفروع عدل في معانيه تابع للحكم والصالح في مبانيه ، فلنقتصر على هذه القواعد إذ غيرها تبع لها ، وهي تغني عن غيرها ولا يغني عنها سواها . والله أعلم

(فصول)

﴿ في ذكر ما قص الله علينا في كتابه من أخبار الأنبياء مع أقوامهم ﴾

قد قص الله علينا في كتابه قصصاً طيبة من أخبار أنبيائه ، ووصفها بأنها أحسن القصص . وهذا الوصف من الله العظيم يدل على أنها أصدقها وأبلغها وأنفعها للعباد ؛ فمن أهم منافع هذه القصص أن بها يتم ويكمل الايمان بالأنبياء صلى الله عليهم وسلم ، فانتا وإن كنا مؤمنين بجميع الأنبياء على وجه العموم والاجمال ، فالايان التفصيلي المستفاد من قصصهم ، وما وصفهم الله به من الصدق الكامل والأوصاف الكاملة التي هي أعلى الأوصاف ؛ وما لهم من الفضل والفواضل والاحسان على جميع نوع الانسان ، بل وصل احسانهم إلى جميع الحيوانات بما أبدوه للمكافين في الاعتناء بها والقيام بحقها ، فهذا الايمان التفصيلي بالأنبياء يصل به العبد إلى الايمان الكامل ، وهو من مواد زيادة الايمان .

فمن ذلك أن في قصصهم تقرير الايمان بالله وتوحيده واخلاص العمل له والايمان باليوم الآخر وبيان حسن التوحيد ووجوبه ، وقبح الشرك وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة .

وفي قصصهم أيضاً عبرة للمؤمنين يقتدون بهم في جميع مقامات الدين في مقام التوحيد والقيام بالعبودية وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة ، ومقابلة ذلك بالطاعة نية والسكون والثبات التام ، وفي مقام الصدق والاخلاص لله في جميع الحركات والسكنات واحتساب الاجر والثواب من الله تعالى ، لا يطلبون من الخلق أجراً ولا جزاءً ولا شكوراً إلا الأمور النافعة للخلق

وفيها أيضاً عبرة لانفاقهم على دين واحد وأصول واحدة ودعوة إلى كل خلق جميل وعمل صالح واصلاح ، وزجرهم عن كل ما يصاد ذلك .

وفيها أيضاً من الفوائد الفقهية والاحكام الشرعية والاسرار الحكيمة شيء عظيم لا غنى لكل طالب علم عنها

وفيها أيضاً من الوعظ والتذكير والترغيب والترهيب والفرج بعد الشدة وتيسير الأمور بعد تعسرها وحسن العواقب المشاهدة في هذه الدار ، وحسن الثناء والمحبة في قلوب الخلق ما فيه زاد للمؤمنين وسرور للعابدين وسلاوة للمحزونين ومواعظ للمؤمنين ، فليس المقصود من قصصهم أن تكون فقط سمرّاً ، وإنما الغرض الأعظم منها أن تكون تذكيراً وعبراً

واعلم قبل الشروع فيها أن كثيراً من قصصهم صلوات الله وسلامه عليهم أعادها الله في كتابه مرات عديدة بأساليب مناسبة لمقاماتها ، وربما يكون في موضع منها ما ليس في المواضع

الأخر من الزيادات والفوائد ، أو يأتي بها بألفاظ غير ألفاظ القصة الأخرى والمعاني متفقة أو متقاربة ، فعلى حسب أن هذا التعليق مختصر سوف آتى بهذه القصص وأجمع القصة في موضع واحد وأحرص على مادلت عليه ألفاظ الكتاب من سياقها من أولها إلى آخرها ، وأتبع كل قصة بما يفتح الله به من الفوائد الأصولية والفروعية والأخلاق والآداب والمواضيع المتنوعة ، راجياً من الله أن يوفقني بذلك للصواب اللفظي والاخلاص الباطني وموافقة رضاه ، وأن يجعل بذلك النفع العام انه جواد كريم

❦ فصل في قصة آدم أبي البشر عليه الصلاة والسلام ❦

لم يزل الله أولاً ليس قبله شيء ، ولم يزل فعالاً لما يريد ، ولا خلا وقت من الأوقات من أفعال وأقوال تصدر عن مشيئته وارادته بحسب ما تقتضيه حكمة الله الذي هو حكيم في كل ما قدره وقضاه ، كما هو حكيم في كل ما شرعه لعباده ، فلما اقتضت الحكمة الشاملة والعلم المحيط من الله والرحمة السابغة خلق آدم أبي البشر الذين فضلهم الله على كثير من خلق تفضيلاً ، أعلم الملائكة وقال (إني جاعل في الأرض خليفة) يخلف من كان قبلهم من المخلوقات التي لا يعلمها إلا هو (قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟) وهذا منهم تعظيم لربهم واجلال له عن أنه ربما يخلق مخلوقاً يشبه أخلاق المخلوقات الأولى ، أو أن الله تعالى أخبرهم بخلق آدم وبما يكون من مجرمي ذريته ، قال الله للملائكة (إني أعلم ما لا تعلمون) فانه محيط علمه بكل شيء ، وبما يترتب على هذا المخلوق من المصالح والمنافع التي لا تعد ولا تحصى .

فعرفهم تعالى بنفسه بكمال علمه ، وأنه يجب الاعتراف لله بسعة العلم والحكمة التي من جملتها أنه لا يخلق شيئاً عبثاً ولا لغیر حكمة ، ثم بين لهم على وجه التفصيل ، فخلقه بيده تشریفاً له على جميع المخلوقات ، قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها وطيبها وخبيثها ليكون النسل على هذه الطبائع ، فكان تراباً أولاً ثم ألقى عليه الماء فصار طيناً ، ثم لما طالت مدة بقاء الماء على الطين تغير ذلك الطين فصار حمأ مسنوناً ، طينا أسود ثم أبيضه بعدما صورده فصار كالفضة الذي له صلصلة وفي هذه الاطوار هو جسد بلا روح ، فلما تكامل خلق جسده نفخ فيه الروح فانقلب ذلك الجسد الذي كان جماداً حيواناً له عظام ولحم وأعصاب وعروق وروح هي حقيقة الانسان ، وأعد الله لكل علم وخير ، ثم أتم عليه النعمة ، فعلمه أسماء الأشياء كلها .

والعلم التام يستدعي الكمال التام ، وكمال الاخلاق ، فأراد الله أن يرى الملائكة كمال هذا المخلوق ففرض هذه التسميات على الملائكة وقال لهم (أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) في مضمون كلامكم الأول الذي مقتضاه أن ترك خلقه أولى ، هذا بحسب ما بدا لهم في تلك الحال ،

فمجزت الملائكة عليهم السلام عن معرفة أسماء هذه المسميات وقالوا (سيحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) قال الله (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم) شاهد الملائكة من كمال هذا الخلق وعلمه ما لم يكن لهم في حساب ، وعرفوا بذلك على وجه التفصيل والمشاهدة كمال حكمة الله ، وعظموا آدم غاية التعظيم ؛ فأراد الله أن يظهر هذا التعظيم والاحترام لآدم من الملائكة ظاهراً وباطناً ، فقال للملائكة (اسجدوا لآدم) احتراماً له وتوقيراً وتبجيلاً وعبادة منكم لربكم وطاعة ومحبة وذلاً ، فبادروا كلهم أجمعون ، فسجدوا وكان ابليس بينهم ، وقد وجه إليه الأمر بالسجود معهم ، وكان من غير عنصر الملائكة ؛ كان من الجن المخلوقين من نار السموم ، وكان مبطناً للكفر بالله ، والحسد لهذا الانسان الذي فضله هذا التفضيل ؛ فحمله كبره وكفره على الامتناع عن السجود لآدم كفراً بالله واستكباراً ، ولم يكفه الامتناع حتى باح بالاعتراض على ربه والقدح في حكمته ، فقال (أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين) فقال الله له : (يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ استكبرت أم كنت من العالين) فكان هذا الكفر والاستكبار والاباء منه وشدة النفار هو السبب الوحيد أن يكون مطروداً ملعوناً ، فقال الله له (فاخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين) فلم يخضع الخبيث لربه ولم يتب إليه ، بل بارزه بالعداوة وصمم التصميم التمام على عداوة آدم وذريته ؛ ووطن نفسه لما علم أنه حتم عليه الشقاء الابدي أن يدعو الذرية بقوله وفعله وجنوده إلى أن يكونوا من حزبه الذين كتبت لهم دار البوار فقال (رب أنظرني إلى يوم يبعثون) فيتفرغ لاعطاء العداوات حقها في آدم وذريته .

ولما كانت حكمة الله اقتضت أن يكون الآدمي مركباً من طبائع متباينة ، وأخلاقاً طيبة أو خبيثة ، وكان لابد من تمييز هذه الأخلاق وتصنيفها بتقدير أسبابها من الابتلاء والامتحان الذي من أعظمه تمكين هذا العدو من دعوتهم إلى كل شر ، أجابه فقال (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) فقال لربه معلنا معصيته وعداوته آدم وذريته (فما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) قال ابليس هذه المقالة ظناً منه لأنه عرف ما جبل عليه الآدمي .

(ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) فمكثه الله من الأمر الذي يريده ابليس في آدم وذريته ، فقال الله له (ادهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءاً موفوراً واستغفر من استطعت منهم بصوتك ، واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد) أي إن قدرت فاجعلهم منحرفين في تربية أولادهم إلى التزبية الضارة ، وفي صرف أموالهم المضارفة الضارة وفي الكسب الضار ، وأيضاً شارك منهم من إذا تناول طعاماً أو شرباً أو نكاحاً ولم يذكر

اسم الله على ذلك في الأموال والأولاد ، وعدم أى مرهم أن يكذبوا بالبعث والجزاء ، وأن لا يقدموا على خير ، وخوفهم من أوليائك وخوفهم عند الاتفاق النافع بالفحشاء والبخل . وهذا من الله لحكم عظيمة وأسرار . وانك أيها العدو المبين لا تبقى من مقدورك في إغوائهم شيئاً ، فالحديث منهم يظهر خبثه ويتضح شره ، والله لا يعأ به ولا يبالي به .

وأما خواص الذرية من الانبياء وأتباعهم من الصديقين والاصفياء وطبقات الأولياء والمؤمنين فإن الله تعالى لم يجعل لهذا العدو عليهم تسلطاً ، بل أقام عليهم سوراً منيعاً ، وهو حمايته وكفايته وزودهم بسلاح لا يمكن عدوهم مقاومتهم بكمال الايمان بالله وقوة توكلهم عليه (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) ومع ذلك فأعانهم على مقاومة هذا العدو المبين بأمر كثيرة: أنزل عليهم كتبه المحتوية على العلوم النافعة والمواعظ المؤثرة والترغيب الى فعل الخيرات والترهيب من فعل الشرور ، وأرسل اليهم الرسل مبشرين من آمن بالله وأطاعه بالثواب العاجل ، ومنذرين من كفر وكذب وتولى ، بالعقوبات المتنوعة ، وضمن لمن اتبع هداه الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، وأنه لا خوف عليه ولا حزن يعتريه ، وأرشدهم في كتبه وعلى السنة رسله إلى الأمور التي بها يحتمون من هذا العدو المبين ، وبين لهم ما يدعو اليه هذا الشيطان وطرقه التي يصطاد بها الخليقة .

وكما بينها لهم ووضحها فقد أرشدهم إلى الطرق التي ينجون بها من شره وفتنته وأعانهم على ذلك اعانة قدرية خارجة عن قدرتهم لأنهم لما بذلوا المجهود واستعانوا بالمعبود ، سهل لهم كل طريق يوصل إلى المقصود .

ثم أن الله تعالى أتم نعمته على آدم فخلق منه زوجته حواء من جنسه وعلى شكله ليسكن اليها وتم المقاصد المتعددة من الزواج والالتئام وتنبث الذرية بذلك ، وقال له ولزوجته : إن الشيطان عدو لكما فاحذراه غاية الحذر ، فلا يخرجكما من الجنة التي أسكنكما الله إياها ، وأباحكما أن تأكلا من جميع ثمارها وأن تتمتعما بجميع لذاتها إلا شجرة معينة في هذه الجنة فحرما عليهما فقال : (ولا تأكلا من هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وقال الله لآدم في تمتيعه بهذه الجنة (إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تضل فيها ولا تضحي) فمكثا في الجنة ما شاء الله على هذا الوصف الذى ذكره الله وعدوهما يراقبهما ويراصدهما وينظر الفرصه فيهما ، فلما رأى سرور آدم بهذه الجنة ورغبته العظيمة في دوامها ، جاءه بطريق لطيف في صورة الصديق الناصح ، فقال يا آدم هل أدلك على شجرة إذا أكلت منها خلدت في هذه الجنة ودام لك الملك الذى لا يبلى ، فلم يزل يوسوس ويزين ويسول ويعد ويمنى ويلقى عليهما من النصائح الظاهرة ، وهى أكبر الفسح حتى غرهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها وحرما عليهما ، فلما أكلا منها بدت لهما سوءاتهما بعد ما كانا مستورين

وطبقا يخضعان على أنفسهما من أوراق تلك الجنة ، أى يلزقان على أبدانها العازية ليكون بدل اللباس ، وسقط في أيديهما وظهرت في الحال عقوبة معصيتهما ، وناداهما ربهما (ألم أنهيكما عن تلك الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) فأوقع الله في قلوبهما التوبة التامة والانابة الصادقة (وتلقى آدم من ربه كلمات) وقال (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فتاب الله عليهما ومحي الذنب الذى أصابا ، ولكن الأمر الذى حذرهما الله منه ، وهو الخروج من هذه الجنة إن تناولا منها تحتم ومضى ؛ فخرجا منها إلى الأرض التى حشى خيرها بشراً وسرورها بكدرها .

وأخبرهما الله أنه لا بد أن يبتليهما وذريتهما ، وإن من آمن وعمل صالحا كانت عاقبته خيراً من حالته الأولى ، ومن كذب وتولى فأخر أمره الشقاء الأبدى والعذاب المسمى ، وحذر الله الذرية منه فقال (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) وأبدلهم الله بذلك اللباس الذى نزع الشيطان من الأيوين بلباس يوارى السوءات ، ويحصل به الجلال الظاهر فى الحياة ، ولباس أعلى من ذلك وهو لباس التقوى الذى هو لباس القلب والروح بالايان والاخلاص والانابة والتخلّى بكل خلق جميل والتخلّى عن كل خلق رذيل ، ثم بث الله من آدم وزوجه رجالا كثيراً ونساء ، ونشرهم فى الأرض واستخفهم فيها لينظر كيف يعملون .

فوائد مستنبطة من هذه القصة أصولية وفروعية وأخلاق وآداب

فمنها أن هذه القصة العظيمة ذكرها الله فى كتابه فى مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولا شك ؛ وهى من اعظم القصص التى اتفقت عليه الرسل ونزلت بها الكتب السماوية واعتقدها جميع أتباع الأنبياء من الأولين والآخرين ، حتى نبغت فى هذه الأزمان المتأخرة فرقة خبيثة زنادقة أنكروا جميع ما جاءت به الرسل ، وأنكروا وجود البارى ولم يثبتوا من العلوم إلا العلوم الطبيعية التى وصلت اليها معارفهم القاصرة .

فبناء على هذا المذهب الذى هو أبعد المذاهب عن الحقيقة شرعاً وعقلاً أنكروا آدم وحواء وما ذكره الله ورسوله عنهما ، وزعموا أن هذا الانسان كان حيواناً قرداً أو شبيهاً بالقرود حتى ارتقى إلى هذه الحال الموجودة ، وهؤلاء اغتروا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول من أصلها فاسدة ، وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة ، خصوصاً ما جاءت به الرسل ، وصدق عليهم قوله تعالى (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وهؤلاء أمرهم ظاهر لجميع المسلمين ولجميع المثبتين وجود البارى ، يعلمون أنهم أضل الطوائف ،

ولكن تسرب على بعض المسلمين من هذا المذهب الدهرى بعض الآثار والفروع المبنية على هذا القول ، إذ فسر طائفة من العصرين سجود الملائكة لآدم أن معناه تسخير هذا العالم للآدميين وأن المواد الأرضية والمعدنية ونحوها قد سخرها الله للآدمي ، وأن هذا هو معنى سجود الملائكة ولا يستريب مؤمن بالله واليوم الآخر أن هذا مستمد من ذلك الرأى الآفن ، وأنه تحريف لكتاب الله ، لا فرق بينه وبين تحريف الباطنية والقرامطة ، وأنه إذا أولت هذه القصة إلى هذا التأويل توجه نظير هذا التحريف لغيرها من قصص القرآن . وانقلب القرآن بعد ما كان تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة - رموزاً يمكن كل عدو للإسلام أن يفعل بها هذا الفعل ، فيبطل بذلك القرآن وتعود هدايته اضلالاً ، ورحمته نقمة . سبحانهك هذا بهتان عظيم .

والمؤمن في هذا الموضع يكفيه لا بطل هذا القول الخبيث أن يتلو ما قصه الله علينا من قصة آدم وسجود الملائكة ، فيعلم أن هذا مناف لما قصد الله ورسوله غاية المنافة ، وإن زخرفه أصحابه ولو له العبارات ونسبوه إلى بعض من يحسن بهم الظن ، فالؤمن لا يترك إيمانه ولا كتاب ربه لمثل هذه الترويجات المغررة أو المغرور أصحابها

ومنها فضيلة العلم وأن الملائكة لما تبين لهم فضل آدم بعلمه عرفوا بذلك كماله وأنه يستحق الاجلال والتوقير .

ومنها أن من الله عليه بالعلم عليه أن يعترف بنعمة الله عليه ، وأن يقول كما قالت الملائكة والرسول : سبحانهك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، وأن يتوقى التكلم بما لا يعلم ، فإن العلم أعظم المنن وشكر هذه النعمة بالاعتراف لله بها والثناء عليه بتعليمها وتعليم الجاهل ، والوقوف على ما علمه العبد والسكوت عما لم يعلمه .

ومنها أن الله جعل هذه القصة لنا معتبراً ، وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد ، فكبر ابليس وحسده لآدم صيره إلى ماترى ، وحرص آدم وزوجه حملهما على تناول الشجرة ، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما إلى الهلاك ، ولكن رحمة الله تكمل الناقص وتجبر الكسير وتنجى الهالك وترفع الساقط .

ومنها أنه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف ، ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالص وإنابة صادقة ، فما قص الله علينا صفة توبتهما إلا لنقتدى بهما فنفوز بالسعادة وننجو من الهلكة ، وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطان من توعدنا وعزمه الأكيد على اغوائنا بكل طريق إلا لنستعد لهذا العدو الذى تظاهر بهذه العداوة البليغة المتأصلة ، والله يحب منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنب طرقه وخطواته وفعل الأسباب التى يخشى منها الوقوع فى شباكه ، ومن عمل الحصون من الأوراد الصحيحة والأذكار القلبية والتعوذات المتنوعة ، ومن

السلاح المهلك له من صدق الايمان وقوة التوكل على الله ومراغمته في أعمال الخير ومقاومة وساوسه والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى القلب كل وقت بما يضادها ويبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة .

ومنها أن فيها دلالة لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين لله ما أثبتته لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات كلها ، لا فرق بين صفات الذات ولا بين صفات الأفعال .

ومنها اثبات اليمين لله كما هو في قصة آدم صريحاً : لما خلقت بيدي . فله يدان حقيقة ، كما أن ذاته لا تشبهها الذوات ، فصفاته تعالى لا تشبهها الصفات

﴿ قصة نوح صلى الله عليه وسلم ﴾

مسكت البشر بعد آدم قروناً طويلة وهم أمة واحدة على الهدى ، ثم اختلفوا وأدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة ، فكان قوم نوح قدماء منهم أناس صالحون فزنوا عليهم فجاءهم الشيطان فأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتسلوا بها وليتذكروا بها أحوالهم ، فكان هذا مبتدأ الشر ، فلما هلك الذين صوروهم لهذا المعنى جاء من بعدهم وقد اضمحل العلم ، فقال لهم الشيطان : إن هؤلاء وداً وسواعاً ويعوث ويعوق ونسراً ، قد كان أولوكم يدعونهم ويستشفعون بهم ، وبهم يسقون الغيث وتزول الأمراض ، فلم يزل بهم حتى انهمكوا في عبادتهم على رغم نصيح الناصحين ، ثم بعث الله فيهم نوحاً عليه السلام يرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه ، فقال (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ورغبهم في خير الدنيا والآخرة فقال (يا قوم إني لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعوه ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى) فلما باداهم بالأمر بالاخلاص لله وتسفيه آراءهم وتخويفهم بعقوبات الدنيا والآخرة قالوا (ما نراك إلا في ضلال مبين وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين) وطلبوا منه أن يطرد من كان معه من المؤمنين استكباراً منهم واستنكافاً على الحق وعلى الخلق ، فبين لهم أنه ليس به ضلال ، وإنما به نزول الضلالة عن الخلق ، وأنه رسول أمين على بينة من ربه وبراهين واضحة ، وأن المؤمنين لا يحل طردهم ، بل حتمهم الأكرام والاحترام ، وأنه لا يدعى لهم طوراً يزاحم فيه الرب فقال (ولا أقول لكم عندى خزائن الأرض ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً) فلم يزل يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاً ، فلم يزدحم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً واعراضاً وتواصياً منهم على الإقامة على ما هم عليه من عبادة غير الله والتمسك بها فقال نوح (رب انهم عصون واتبعوا ما لم يزدده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يعوث ويعوق ونسراً)

فلما رأى أن التذكير لا ينفع فيهم بوجه من الوجوه ، وأنه كلما جاء قرن كان أخبث مما قبله ، قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فأجاب الله دعوته وأمره أن يصنع الفلك برعاية منه وحسن نظر وتعليم من الله له هذه الصنعة التي امتن الله بها على العباد ، وصار نوح له الفضل والابتداء بهذه الصناعة التي حصل بها من المنافع الدينية والدنيوية في جميع الأوقات مالا يعد ولا يحصى ، وأخبره الله بتختم أغراقهم وأنه لا يخاطب ربه فيهم فانهم ظالمون ، وجعل يصنع الفلك ، وكلما مرّ عليه ملاً من قومه سخرُوا منه فقال لهم : إن تسخروا منا اليوم فانا نسخر منكم إذا وقع الهلاك بكم . وأوحى الله إليه أنه إذا جاء ذلك الوقت وفارالتنور أى جعلت الأرض كلها تتفجر عيوناً من كل جانب حتى المواضع البعيدة عن النار عادة ، وأمره أن يحمل من البهائم من كل زوجين اثنين ذكر وأنثى ليبقى نسلها لأنه يتعذر حملها كلها ، والحكمة تقتضى إبقاء هذه الحيوانات التي خلقها الله مسخرة لمصالح البشر ويحمل معه جميع من آمن من رجال ونساء ، والحال أنه ما آمن معه إلا قليل ، وأمره أن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول بالهلاك ، فلما أركب جميع من أمر بهم قال لهم : سمو الله كلما جرت وكلما رست . لأن الأسباب مهما عظمت فهي من لطف الله ، ولا تمام لها إلا بالله .

فحينئذ فجر الله الأرض عيوناً ، وأمر السماء أن تصب الماء المنهمر الكثير ، فالتقت مياه السماء بمياه الأرض ، وساحت على الأماكن المنخفضة ، ثم ارتفعت شيئاً فشيئاً على كل المرتفعات حتى خفيت قمم الجبال الشاهقة ، والسفينة تجرى بهم في موج كالجبال تضرب يميناً وشمالاً . وفي تلك الحال المزعجة رأى نوح ابنه الكافر الذي كان على دين قومه وقد اعتزل أباه حتى في هذه الحال فرآه مثل سائر قومه قد فر هارباً من المياه الجارفة ، فناداه نوح مترقهاً فقال (يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) فمادى به الغرور في تلك الحال التي تنشق فيها الغياهب إلا عن القلوب المحجوبة ، فقال (سأوى إلى جبل يعصمني من الماء) لم يخطر ببالهم أن المياه سترتفع فوق رؤوس الجبال ، فقال له نوح (لا عصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) فلا يعصم جبل ولا حصن ولا غير ذلك إلا من رحم الله ، ورحمته في تلك الحال متعينة في ركوب السفينة مع نوح (وحال بينهما الموج) فكان ذلك الابن من المفرقين .

فأغرق الله جميع الكافرين ونجى نوحاً ومن معه أجمعين ، وكان في ذلك آية على أن ما جاء به نوح من التوحيد والرسالة والبعث والدين حق ، وأن من خالفه فانه مبطل ، ودليل على الجزاء في الدنيا لأهل الإيمان بالنجاة والكرامة ، ولأهل الكفر بالهلاك والاهانة .

فلما حصل هذا المقصود العظيم أمر الله السماء أن تتلع عن الماء ، والأرض أن تبلع ما فيها وغيض الماء ، أى نقص شيئاً فشيئاً ، واستوت السفينة بعد غيض الماء على الجودى ، وهو جبل

شامخ معروف في نواحي الموصل .

وهذا دليل على أن جميع الجبال قد غمرتها المياه وجاوزها الطوفان ، وحزن نوح على ابنه فقال منادياً ربه مترقفاً متضرعاً يا رب (إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق) أن أحمل معي أهلي وأنت أرحم الراحمين ، فقال له ربه (إنه ليس من أهلك) أي الموعود بنجاتهم ، لأن الله قيد ذلك بقوله (إلا من سبق عليه القول) (انه عمل غير صالح) أي هذا الدعاء لا ينك الذي على دين قومه بالنجاة (فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين) وهذا عتاب منه لنوح وتعليم له وموعظة عن مثل هذا الدعاء الذي إنما حمله عليه الشفقة الأبوية ، وإنما الواجب في الدعاء أن يكون الحامل له العلم والاخلاص في طلب رضا الله تعالى فقال نوح (رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم والا تغفلي وترحني أكن من الخاسرين . قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب ألیم) فهبط وبارك الله في ذريته ، وجعل ذريته هم الباقين ؛ فكان أولاده يافث ملأ المشرق من الذرية ، وحام ملأ المغرب من النسل ، وسام ملأ ما بين ذلك ، ومكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومكث بعد هلاكهم ماشاء الله ، وكان من أولى العزم من المرسلين ، ومن الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم القيامة وهو أول الرسل إلى الناس ، وهو الأب الثاني للبشر ، ﷺ تسليماً .

يستفاد من هذه القصة أمور : —

منها : أن جميع الرسل من نوح إلى محمد صلى الله عليهم وسلم متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص والنهي عن الشرك ، فنوح وغيره أول ما يقولون لقومهم (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة .

ومنها : آداب الدعوة وتماها ، فإن نوحاً دعا قومه ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ؛ بكل وقت وبكل حالة يظن فيها نجاح الدعوة ، وأنه رغبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب ، وبالتمتع بالأموال والبنين ، وادرار الأرزاق إذا آمنوا وبالثواب الآجل ؛ وحذرهم من ضد ذلك ، وصبر على هذا صبراً عظيماً كغيره من الرسل ، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشفقة ، وبكل لفظ جاذب للقلوب محصل للمطلوب ، وأقام الآيات وبين البراهين

ومنها : أن الشبه التي قدح فيها أعداء الرسل برسالتهم من الأدلة على ابطال قول المكذبين فإن الاقوال التي قالوها ولم يكن عندهم غيرها ، ليس لها حظ من العلم والحقيقة عند كل عاقل . فقول قوم نوح (ما نراك إلا بشراً مثلاً ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين) تأمل جملتها تجدها تمويهات دالة على أنهم مبطلون

مكابرون للحقيقة ، ققولهم (ما نراك إلا بشراً مثلنا) فهل في كون الحق جاء على يد بشر شيء من الشبهة تدل على أنه ليس بحق ، ومضمون هذا الكلام أن كل قول قاله البشر من أى مصدر يكون باطلا . وهذا قدح منهم في جميع العلوم البشرية المستفادة من البشر ، ومعلوم أن هذا يبطل العلوم كلها ، فهل عند البشر علوم إلا مستفيدة بعضهم من بعض وهي متفاوتة ، فأعظمها وأصدقها وأنفعها ما تلقاه الناس عن الرسل الذين علومهم عن وحى إلهي .

وكذلك قولهم (ما نرى لكم علينا من فضل) أى نحن وأنتم بشر ، وقد أجابت الرسل كلهم عن هذه المقالة فقالوا (إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يبعث على من يشاء من عباده) فمن الله على الرسل وخصهم بالوحى والرسالة ، مع أن انكارهم عليهم من هذه الجهة من أكبر الجهل وأعظم القدح في نعمة الله ، فإن رحمة الله وحكمته اقتضت أن يكون الرسل من البشر ليتمكن العباد من الأخذ عنهم ، وتيسر عليهم هذه النعمة ويسهل الله لهم طرقها ، فمؤلاء المكذبون كفروا بأصل النعمة وبالطريق المستقيم النافع الذي جاءتهم به .

وكذلك قولهم (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) من المعلوم لكل أحد عاقل أن الحق يعرف أنه حق بنفسه لا بمن تبعه ، وأن هذا القول الذي قالوه صدر عن كبر وتيه ، والكبر أكبر مانع للعبد من معرفة الحق ومن اتباعه .

وأيضاً قولهم (أراذلنا) إن أرادوا الفقر ، فالفقر ليس من العيوب ، وإن أرادوا أراذلنا في الأخلاق ، فهذا كذب معلوم بالبدية ، وإنما الأراذل الذين قالوا هذه المقالة ، فهل الايمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله والالتحاق بالحق والسلامة من كل خصلة ذميمة ، هل هذا الوصف رذيلة وأهله أراذل أم الرذيلة بضده من ترك أفروض توحيد الله وشكره وحده وامتلاء القلب من التكبر على الحق وعلى الخلق ؟ هذا والله أراذل الرذائل ، ولكن القوم مباهوتون فما تقوموا من هؤلاء الأخيار إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد .

وقولهم (بادى الرأي) أى مبادرة منهم إلى الايمان بك يا نوح لم يشاوروا ولم يتأنوا ويتروا لو فرض أن هذا حقيقة فهذا من أدلة الحق ، فإن الحق عليه من البراهين والنور والجلالة والبهاء والصدق والطأنينة ما لا يحتاج إلى مشاورة أحد باتباعه ، وإنما التي تحتاج إلى مشاورة هي الأمور الخفية التي لا تعلم حقيقتها ولا منفعتها ؛ أما الايمان الذي هو اجلى من الشمس في نورها ؛ وأحلى من كل شيء ، فما يتأخر عنه إلا كل متكبر جبار أمثال هؤلاء الطفافة البغاة .

وقولهم (وما نرى لكم علينا من فضل) هل في هذا الكلام شيء من الانصاف بوجه ، لأنهم يخبرون عن أنفسهم ، وكلامهم يحتمل أنه الذي في قلوبهم ، ويحتمل أنهم يقولون ما لا يعتقدون وعلى كلا الأمرين فالحق يحجب قبوله ، سواء أقاله الفاضل أو المفضول ، الحق أعلى من كل شيء .

وكذلك قولهم (بل نظنكم كاذبين) معلوم أن الظن أكذب الحديث ، ثم لو قالوا بل نعلمكم كاذبين . فهذه كل مبطل يقدر أن يقولها ، ولكن بأى شيء استدللتم انهم كاذبون ؟ فهذه أدلتهم وبراهينهم أبطلت نفسها بنفسها كما ترى ، فكيف وقد قابلها الرسل بالأدلة والبراهين المتنوعة التي لا تبقى ريب لأحد في بطلانها .

ومنها أن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم اخلاصهم التام لله تعالى في عبوديتهم لله القاصرة وفي عبوديتهم المتعدية لنفع الخلق ، كالدعوة والتعليم وتوابع ذلك ، ولذلك يبدون ذلك ويعيدونه على أسماع قومهم كل منهم يقول (يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الله) ولهذا كان من أجل الفضائل لاتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة ، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا .

ومنها أن القسح في نيات المؤمنين وفيما من الله عليهم به من الفضائل والتألى على الله أنه لا يؤتيهم من فضله من موارد أعداء الرسل ، فلماذا قال نوح لقومه حين تألوا على الله وتوسلوا في ذم المؤمنين به بذلك ؛ فقال (ولا أقول للذين تردى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم)

ومنها أنه ينبغي الاستعانة بالله وأن يذكر اسمه عند الركوب والنزول وفي جميع التقلبات والحركات ، وحمد الله والاكثار من ذكره عند النعم لا سيما النجاة من السكرات والمشقات ، كما قال تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسها) وقال (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك ، قل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) وأنه ينبغي أيضاً الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة كالمنازل في اقامات السفر وغيره ، والمنازل المستقرة كالمساكن والدور لقوله (وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) وفي ذلك كله من استصحاب ذكر الله ، ومن القوة على الحركات والسكنات ومن قوة الثقة بالله ومن نزول بركة الله التي خير ما صحبت العبد في أحواله كلها مالا غنى للعبد عنه طرفة عين .

ومنها أن تقوى الله والقيام بواجبات الايمان من جملة الأسباب التي تنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والرزق وقوة الأبدان - وإن كان لذلك أيضاً أسباب أخر . وهى السيب الوحيد الذى ليس هناك سبب سواه فى نيل خير الآخرة والسلامة من عقابها .

ومنها أن النجاة من العقوبات العامة الدنيوية هى للمؤمنين ، وهم الرسل وأتباعهم ، وأما العقوبات الدنيوية العامة فانها تختص بالمجرمين ويتبعهم توابعهم من ذرية وحيوان ، وإن لم يكن لها ذنوب ، لأن الوقائع التى أوقع الله بأصناف المكذبين شملت الأطفال والبهائم ، وأما ما يذكر فى بعض الاسرائيليات أن قوم نوح أو غيرهم لما أراد الله اهلاكم أعقم الارحام حتى لا يتبعهم فى

العقوبة أطفأهم فهذا ليس له أصل ، وهو مناف للأمر المعلوم ، وذلك بمصدق لقوله تعالى (وايقظوا
فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

﴿ قصة هود عليه الصلاة والسلام ﴾

بث الله هوداً عليه الصلاة والسلام إلى قومه عاداً الأولى المقيمين بالأحقاف — من رمال
حضر موت — لما كثر شرهم وتجبروا على عباد الله وقالوا (من أشد منا قوة) مع شركهم بالله
وتكذيبهم لرسول الله ، فأرسله الله اليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده وينهاهم عن الشرك والتجبر
على العباد ، ويدعوهم بكل وسيلة ويذكرهم ما أنعم الله عليهم به من خير الدنيا والبسطة في الرزق
والقوة ، فردوا دعوته وتكبروا عن اجابته وقالوا (ما أنت إلا بشر مثلنا فأتنا بآية إن كنت
من الصادقين) وهم كاذبون في هذا الزعم ، فانه ما من نبي إلا أعطاه الله من الآيات ما على مثله
يؤمن البشر ، ولو لم يكن من آيات الرسل إلا أن نفس الدين الذي جاءوا به أكبر دليل أنه من
عند الله لأحكامه وانتظامه للمصالح في كل زمان بحسبه وصدق أخباره ، وأمره بكل خير ونهي
عن كل شر ، وأن كل رسول يصدق من قبله ويشهد له ، ويصدق من بعده ويشهد له .

ومن آيات هود الخاصة أنه متفرد وحده في دعوته وتسفيه أحلامهم وتضليلهم والقدح في
آلهم ، وهم أهل البطش والقوة والجبروت ، وقد خوفوه بآلهم إن لم ينته أن تمسه بجنون أو
سوء ، فتحدثهم علناً وقال لهم جهاراً (إني أشهد الله واشهدوا إني برى مما تشركون من دونه
فكيدون جميعاً ثم لا تنظرون ، إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها
إن ربي على صراط مستقيم) فلم يصلوا اليه بسوء .

فأى آية أعظم من هذا التحدى لهؤلاء الأعداء الحريصين على إبطال دعوته بكل طريق ،
فلما انتهى طغيانهم تولى عنهم وحذرهم نزول العذاب ، فجاءهم العذاب معترضاً في الأفق ، وكان
الوقت وقت شدة عظيمة وحاجة شديدة إلى المطر ، فلما استبشروا وقالوا : هذا عارض ممطرنا .
قال الله (بل هو ما استعجلتم به) بقولكم فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (ريح فيها عذاب أليم ،
تدمر كل شيء) تبر عليه (فسخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى
كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فأصبحوا لآئري إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين) فبعدما
كانت الدنيا لهم ضاحكة ، والعز بليغ ، ومطالب الحياة متوفرة ، وقد خضع لهم من حولهم من
الاقطار والقبائل ، إذ أرسل الله اليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الدنيا
وللعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عاداً
كفروا ربهم ألا بعباداً لعاد قوم هود) ونجى الله هوداً ومن معه من المؤمنين ، إن في ذلك لآية

على كمال قدرة الله وإكرامه الرسل وأتباعهم ، ونصرهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وآية هلى ابطال الشرك ، وأن عواقبه شر العواقب وأشنعها ، وآية على البعث والنشور .

(فوائد من هذه القصة)

فيها ما تقدم في قصة نوح من الفوائد المشتركة بين الرسل ؛ ومنها أن الله بحكمته يقص علينا نبأ الأمم المجاورين لنا في جزيرة العرب وما حولها ، لأن القرآن يذكر أعلى الطرق في التذكير والله تعالى صرف فيه التذكريات تصريفاً نافعا ، ولا ريب أن الاقطار النائية عنا في مشارق الأرض ومغاربها قد بعث الله اليهم رسلا ، ولهم معهم نظير ما للذكورين من اجابة ورد واكرام وعقوبة ، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولا ، ولكن نفطنا بتذكيرنا بما حولنا وما ننقله جيلا بعد جيل ، بل ما نشاهد آثارهم ونمر بديارهم كل وقت ونفهم لغاتهم ، وطبائعهم أقرب إلى طبائطنا ، لا ريب أن نفع هذا عظيم ، وانه أولى من تذكيرنا بأمم لم نسمع لهم بذكر ولا خبر ، ولا نعرف لغاتهم ، ولا نتصل اليها أخبارهم بما يطابق ما يخبرنا الله به ، فيؤخذ من هذا أن تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم وأنسب لأحوالهم وأدخل في مداركهم وأنفع لهم من غيره أولى من التذكريات بطرق أخرى وإن كانت حقاً ، لكن الحق يتفاوت ، والمذكر والمعلم إذا سلك هذا الطريق واجتهد في إيصال العلم والخير إلى الناس بالوسائل التي يفهمونها ، ولا ينفرون منها أو تكون أقرب لاقامة الحجة عليهم نفع وانتفع ، وأشار الباري إلى هذا في آخر قصة عاد ، فقال (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات) أى نوعناها بكل فن ونوع (لعلهم يرجعون) أى ليكون أقرب لحصول الفائدة .

ومنها أن اتخاذ المباني الفخمة للفخر والخيلاء والزينة وقهر العباد بالجبروت من الأمور المذمومة الموروثة عن الأمم الطاغية كما قال الله في قصة عاد وانكار هود عليهم ، قال (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتخذون مصانع لعلكم تخلدون)

وبالجملة فالبنائات للقصور والحصون والدور وغيرها من الابنية :

اما أن تتخذ مساكن للحاجة اليها ، والحاجات تنوع وتختلف ، فهذا النوع من الامور المباحة وقد يتوسل به بالنية الصالحة إلى الخير .

واما أن تكون البنائات حصونا واقية لشرور الأعداء ، وثغورا تحفظ بها البلاد ونحوها مما ينفع المسلمين ويسيئهم الشر ، فهذا النوع يدخل في الجهاد في سبيل الله ، وهو داخل في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء .

وأما أن يكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد الله وتبذير الأموال التي يتعين صرفها في طرق نافعة ، فهذا النوع هو المذموم الذي أنكره الله على عاد وغيرهم .

ومنها أن العقول والاذهان والذكاء وما يتبع ذلك من القوة المادية ، وما ترتب عليها من النتائج والآثار وإن عظمت وبلغت مبلغاً هائلاً ، فانها لا تنفع صاحبها إلا إذا قارنها الايمان بالله ورسوله .

وأما الجاحد لايات الله المكذب لرسول الله ، فانه وإن استدرج في الحيلة وأمهل فان عاقبته وخيمة ، وسمعه وبصره وعقله لا يغنى عنه شيئاً إذا جاء أمر الله ؛ كما قال الله عن عاد (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وفي الآية الأخرى (فلما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيذ)

❦ قصة صالح عليه الصلاة والسلام ❦

كانت ثمود - وهي عاد الثانية - يسكنون في الحجر وما حولها ، وكانوا أهل مواش كثيرة وأهل جروث وزروع ، وتواصلت عليهم النعم فكانوا يتخذون من السهول قصوراً مزخرفة ، ومن الجبال بيوتاً منجوتة متقنة ، فبطروا النعم وكفروها ، وعبدوا غير الله ، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحاً من قبيلتهم ، يعرفون نسبه وحسبه وفضله وكمال ، وصادقه وأمانته ، فدعاهم إلى الله وإلى اخلاص الدين له ، وترك ما كانوا يعبدون من دونه ، وذكرهم بنعم الله وبأيامه بالأمم المجاوزة لهم ، فلم يتبعه إلا القليل .

وحين ذكرهم وأقام الأدلة والبراهين على وجوب توحيد الله اشمازوا ونفروا واستكبروا وقالوا (يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا) أي قد كنا قد تخالينا فيك أن تفضلنا جميعاً لسلكك وكمال أخلاقك ، وآدابك الطيبة .

وهذا اعتراف منهم له بهذه الأمور قبل أن يقول ما قال ، فما نزل عن هذه المرتبة عندهم إلا أنه دعاهم إلى عبادة الخالق من عبادة العبيد ، وإلى السعادة الأبدية ، وما ذنبه إلا أنه خالف آباءهم الصالحين ، وهم كانوا أضل منهم ، ثم أقام لهم بينة عظيمة وآية وبرهاناً ونعمة على جميع القبيلة بأسرها وقال : هذه ناقة الله التي لا يشبهها شيء من النوق في ذاتها وشرافها ومنافعها لكم آية على صدقي وعلى سعة رحمة ربكم فذرهم تأكل في أرض الله على الله رزقها ولكم نفعها نرد الماء

يوماً فترد القبيلة بأسرها على ضرعها كل يصدر عن ضرعها قد ملأ آتيته ؛ ثم تردون أنتم في اليوم الثاني ، فكثت على هذا ما شاء الله .

وكان في مدينتهم تسعة رهط من شياطينهم قد قاوموا ما جاء به صالح أشد المقاومة ، يصدون عن سبيل الله ويفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وكان صالح قد حذرهم من عقر الناقة لما رأى من كبرهم وردم الحق ؛ فأول ما فعل أولئك الملأ الأشرار أن عقدوا مجلساً عاماً ليتفقوا على عقر الناقة ، فاتفقوا ، فانتدب لذلك أشقى القبيلة ، ولهذا قال الله تعالى (إذ انبعث أشقاها) أى بعد اتفاقهم وندبهم إليه بعثوه لذلك ، فانبعث واستعد وتكفل لهم بعقرها ؛ وهم جميعهم راضون بل أمرهم ، فقهرها ، فكان هذا العقر مؤذناً بهلاك القبيلة بأسرها ، فلما شعر صالح بالأمر ورأى منظرًا فظيماً علم أن العذاب قد تحتم لا محالة ، لأن الجريمة قد تفاقمت ، ولم يبق حالة يرجى فيها لهم تقويم . فقال لهم صالح : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام . ذلك وعد غير مكذوب ، ونبه بهذا الكلام دانيهم وقاصيهم ، ففي أثناء هذه المدة اتفق هؤلاء الرهط التسعة على أمر أغلظ من عقر الناقة ؛ على قتل نبيهم صالح ، وتعاهدوا وتعاقدوا وحلفوا الأيمان المغلظة ، وكتبوا أمرهم خشية من منع أهل بيته ، لأنه في بيت عز وشرف ، وقالوا : لنبيتنه وأهله ، ثم إذا ظن بنا أننا قتلناه حلفنا لأوليائنا أننا ما شهدنا مهلك أهلنا وإنا لصادقون . فدبروا هذا المكر العظيم ، ولكمهم يمكرون ويمكر الله لنبيه صالح . فحين كنوا في أصل جبل لينظروا الفرصة في صالح ؛ بدأ الله بعقوبتهم ، فكانوا سلفاً مقدماً لقومهم إلى نار جهنم ، فأرسل الله صخرة من أعلى الجبل فشدختهم وقتلوا أشنع قتلة ، ثم لما تمت ثلاثة هذه الأيام جاءتهم صيحة من فوقهم ورجفة من أسفل منهم فأصبحوا خامدين ، ونجى الله صالحاً ومن معه من المؤمنين ، وتولى عنهم وقال (يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين)

(فوائد تتعلق بهذه القصة)

منها أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة ، وأن من كذب واحداً منهم فقد كذب الجميع لأنه يكذب الحق الذى جاء به كل واحد منهم ، ولهذا يقول في كل قصة : كذبت قوم نوح المرسلين كذبت عاد المرسلين ، كذبت ثمود المرسلين

ومنها أن عقوبات الله للأمة الطاغية عند تنهاى طغيانها وتفاقم جرائمها ، فكفرهم وتكذيبهم موجب للهلاك ، ولكن تحتم الإهلاك عند تنهاى الشرور ، ولهذا أرجى ما يكون لوقوع العقوبة بالظالمين المجرمين عند تنهاى إجرامهم ، لأن الله تعالى بالمرصاد فيمهل ثم يمهل حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ومنها أن العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عن بحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم من أكبر الموانع لقبول الحق ، والحال أنها ليست في العير ولا في النفير ، ولأها مقام في الحجج الصحيحة الدالة على الحقائق ، فلهذا أكبر ما رد به قوم صالح لدعوته أن قالوا : أئنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا . وقالت جميع الأمم المكذبة رادين لدعوة الرسل (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وهذا سبيل لا يزال معموراً بالسالكين من أهل الباطل نهجته الشياطين ليصدوا به العباد عن سبيل الله ، ومن المعلوم أن طريق الرسل هي طريق الهدى والحق ، فإذا بعد الحق إلا الضلال ..

❦ قصة ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم ❦

قد ذكر الله في كتابه سيرة وأخباراً كثيرة من سيرة ابراهيم ، فيها لنا الأسوة بالأنبياء عموماً ، وبه على وجه الخصوص ؛ فان الله أمر نبينا وأمرنا باتباع ملتته ، وهي ما كان عليه من عقائد وأخلاق وأعمال قاصرة ومتعدية ، فقد آتاه الله رشده وعلمه الحكمة منذ كان صغيراً ، وأراه ملكوت السموات والأرض ، ولهذا كان أعظم الناس يقيناً وعلماً وقوة في دين الله ورحمة بالعباد . وكان قد بعثه الله إلى قوم مشركين يعبدون الشمس والقمر والنجوم ، وهم فلاسفة الصابئة الذين هم من أخصب الطوائف وأعظمهم ضرراً على الخلق ، فدعاهم بطارق شتى ، فأول ذلك دعاهم بطريقة لا يمكن صاحب عقل أن ينفر منها ، ولما كانوا يعبدون السبع السيارات التي منها الشمس والقمر ، وقد بنوا لها البيوت وسموها الهياكل ، قال لهم ناظراً ومناظراً : هلم يا قوم ننظر هل يستحق منها شيء الالهية والربوبية (فلما جن عليه الليل قال : هذا ربي) والمناظرة تخالف غيرها في أمور كثيرة .

منها أن المناظر يقول الشيء الذي لا يعتقده ليبنى عليه حجته ، وليقيم الحجة على خصمه ، كما قال في تكسيره الأصنام لما قالوا له (أنت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم ؟) فأشار إلى الصنم الذي لم يكسره فقال (بل فعله كبيرهم هذا) ومعلوم أن غرضه إلزامهم بالحجة ، وقد حصلت .

فهنا يسهل علينا فهم معنى قوله (هذا ربي) أى إن كان يستحق الالهية بعد النظر في حالته ووصفه فهو ربي ، مع أنه يعلم العلم اليقيني أنه لا يستحق من الربوبية والالهية مثقال ذرة ، ولكن أراد أن يلزمهم بالحجة (فلما أفل) أى غاب (قال لا أحب الآفلين) فان من كان له حال وجود وعدم ، أو حال حضور وغيبة ، قد علم كل عاقل أنه ليس بكامل ، فلا يكون إلهاً ، ثم انتقل إلى القمر ، فلما رآه بازغاً (قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهتدى ربي لأكون من الضالين) يريهم

صاوات الله وسلامه عليه ، وقد صور نفسه بصورة الموافق لهم ، لكن لا على وجه التقليد ، بل يقصد اقامة البرهان على إلهية النجوم والقمر ، فالآن وقد أفلت ، وتبين بالبرهان العقلي مع السمعى بطلان إلهيتها ، فأنا إلى الآن لم يستقر لى قرار على رب وإله عظيم ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا أكبر من النجوم ومن القمر ، فان جرى عليها ما جرى عليهما كانت مثلهما ، فلما أفلت وقد تقرر عند الجميع فيما سبق أن عبادة من يأفل من أبطال الباطل . فحينئذ ألزمهم بهذا الالتزام ووجه عليهم الحجة فقال (يا قوم إني برىء مما تشركون إني وجهت وجهي) أى ظاهري وباطني (للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) فهذا برهان عقلي واضح أن الخالق للعالم العلوى والسفلى هو الذى يتعين أن يقصد بالتوحيد والاخلاص ، وأن هذه الأفلاك والكواكب وغيرها مخلوقات مدبرات ليس لها من الأوصاف ما تستحق العبادة لأجلها ، فجعلوا يخوفونه آلهتهم أن تمسه بسوء ، وهذا دليل على أن المشركين عندهم من الخيالات الفاسدة والآراء الرديئة ما يعتقدون أن آلهتهم تنفع من عبدها وتضر من تركها أو قدح فيها ، فقال لهم مبيناً لهم أنه ليس عليه شئ من الخوف ، وإنما الخوف الحقيقى عليكم فقال (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) أجاب الله هذا الاستفهام جواباً يعم هذه القصة وغيرها فى كل وقت فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أى بشرك (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) فرفع الله خليفه ابراهيم بالعلم واقامة الحجة ، وعجزوا عن نصر باطلهم ، ولكنهم صمموا على الاقامة على ما هم عليه ، ولم ينفع فيهم الوعظ والتذكير واقامة الحجة ، فلم يزل يدعوهم إلى الله وينهاهم عما كانوا يعبدون نهياً عاماً وخاصاً ، وأخص من دعاه أبوه أزر ، فانه دعاه بعدة طرق نافعة ، ولكن (إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) فمن جملة مقالاته لأبيه إذ قال لأبيه (يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ، يا أبت إني قد جاءنى من العلم ما لم يأتك) انظر إلى حسن هذا الخطاب الجاذب للقلوب لم يقل لأبيه إنك جاهل لثلا ينفر من الكلام الخشن ، بل قال له هذا القول (فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً) فانتقل بدعوته من أسلوب لآخر لعله ينجع فيه أو يفيد ، ولكنه مع ذلك قال له أبوه (أراغب أنت عن آلتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجنك واهجرنى ملياً) هذا و ابراهيم لم يغضب ولم يقابل أباه ببعض ما قال ، بل قابل هذه الاساءة الكبرى بالاحسان فقال (سلام عليك) أى لا أتكلم معك إلا بكلام طيب لا غلظة فيه ولا خشونة ، ومع ذلك فلست بأيس من هدايتك (سأستغفر لك ربى انه كان بنى حنياً) أى

براً رحماً قد عودنى لطفه وأجرانى على عوائده الجميلة ولم يزل لدعائى مجيباً ، فلم يزل ابراهيم مع قومه
 فى دعوة وجدال ، وقد ألخمهم وكسر جميع حججهم وشبههم ، فأراد ﷻ أن يقاومهم بأعظم الحجج
 وأن يصمد لبطشهم وجبروتهم وقوتهم ، غير هائب ولا وجل ، فلما خرجوا ذات يوم لعيد
 من أعينادهم وخرج معهم ، فنظر نظرة فى النجوم فقال : إني سقيم ، لأنه خشى إن تخلف لغير هذه
 الوسيلة ، لم يدرك مطلوبه لأنه تظاهر بعداوتها والنهى الاكيد عنها وجهاد أهلها ، فلما برزوا جميعاً
 إلى الصحراء كرا جاعاً إلى بيت أصنامهم فجعلها جذاً كلاًها إلا صنماً كبيراً أبقى عليه ليلزمهم بالحجة
 فلما رجعوا من عيدهم بادروا إلى أصنامهم صباية ومحبة ، فرأوا فيها أفضع منظر رآه أهلها فقالوا
 (من فعل هذا بالهتتنا ؟ إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يدكرهم) أى يعيبها ويدكرها
 بأوصاف النقص والسوء (يقال له ابراهيم) فلما تحقروا أنه الذى كسرها قالوا : فاءتوا به على أعين
 الناس لعلهم يشهدون . أى يحضرة الخلق العظيم وبوجوه أشد التوبيخ ثم نكسوا به ، وهذا الذى
 أراد ابراهيم ، ليظهر الحق بمرأى الخلق ومسمعهم ، فلما جمع الناس وحضروا ، وحضروا ابراهيم
 قالوا (أنت فعلت هذا بالهتتنا يا ابراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا) مشيراً إلى الصنم الذى سلم
 من تكسيره ، وهم فى هذه بين أمرين ، إما أن يعترفوا بالحق وأن هذا لا يدخل عقل أحد أن
 جراداً معروفاً أنه مصنوع من مواد معروفة لا يمكن أن يفعل هذا الفعل ؛ وإما أن يقولوا نعم هو
 الذى فعلها وأنت سالم ناج من تبعتها ، وقد علم أنهم لا يقولون الاحتمال الاخير ، قال : فأسألوهم إن
 كانوا ينطقون . وهذا تعليق بالأمر الذى يعترفون أنه محال ، فحينئذ ظهر الحق وبان واعترفوا هم
 بالحق فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، أى ما كان
 اعترافهم ببطلان إلهيتها إلا وقتاً قصيراً ظهرت الحجة مباشرة التى لا يمكن مكابرتها ، ولكن
 ما أسرع ما عادت عليهم عقائدهم الباطلة التى رسخت فى قلوبهم وصارت صفات ملازمة ، إن وجد
 ما ينافيها ، فانه عارض يعرض ثم يزول (ثم نكسوا على رؤوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)
 فحينئذ وبخهم بعد اقامة الحجة التى اعترف بها انحصوم على رؤوس الاشهاد ، فقال لهم (أتعبدون من
 دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) فلو كان
 لكم عقول صحيحة لم تقيموا على عبادة مالا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه من يريده بسوء ،
 فلما أعييتهم المقاومة بالبراهين والحجج عدلوا الى استعمال قوتهم وبطشهم وجبروتهم فى عقوبة ابراهيم
 فقالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . فأوقدوا ناراً عظيمة جداً فألقوه بها ، فقال
 وهو فى تلك الحال : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال الله للنار (يا نار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم)
 فلم تضمره بشئ ، وأرادوا به كيدا لينصروا آلهتهم وقيموا لها فى قلوبهم وقلوب أتباعهم

الخنوع والتعظيم ، فكان مكرهم وبالا عليهم ، وكان انتصارهم لآلهم نصراً عظيماً عند الحاضرين والغائبين والموجودين والحادثين عليهم . وانتصر الخليل على الخواص والعوام والرؤساء والمرءوسين حتى ان ملكهم حاج ابراهيم في ربه بغياً وطغياً ، أن آتاه الله الملك فقال ابراهيم (ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت) فألزمه الخليل بطرد دليله بالتصرف المطلق ، فقال : فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ؛ فهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين .

(فصل)

ثم خرج من بين أظهرهم مهاجراً وزوجته وابن أخيه لوط إلى الديار الشامية ، وفي أثناء مدة اقامته بالشام ذهب إلى مصر بزوجه ساره ، وكانت أحسن امرأة على الإطلاق ، فلما رآها ملك مصر وكان جباراً عنيداً لم يملك نفسه حتى أرادها على نفسها ، فدعت الله عليه ، فكأن موت ثم أطلق ثم عاد ثانية ، وكلما أرادها دعت عليه فصرع ، ثم دعت له فأطلق ، فكفاهما الله شره ، ووهب لها هاجر جارية قبطية ، وكانت سارة عاقراً منذ كانت شابة فوهبت هذه الجارية لابراهيم ليتسررها لعل الله يرزقه منها ولداً ، فأنت هاجر باسما عيل على كبر ابراهيم ففرح به فرحاً شديداً ولكن سارة رضى الله عنها أدركتها الفيرة فخلعت أن لا يساكنها بها ، وذلك لما يريد الله . وهذا من جملة الأسباب لذهابها بها إلى موضع البيت الحرام ، وإلا فهو مقرر عنده ذلك عليه السلام فذهب بها وبابنها اسماعيل إلى مكة ، وهي في ذلك الوقت ليس فيها ساكن ولا مسكن ولا ماء ولا زرع ولا غيره وزودها بسقاء فيه ماء وجراب فيه تمر ووضعها عند دوحة قريبة من محل بئر زمزم ثم قفى عنهما ، فلما كان في الثانية بحيث يشرف عليهما ، دعا الله تعالى فقال (رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) إلى آخر الدعاء ، ثم استسلمت لأمر الله وجعلت تأكل من ذلك التمر وتشرب من ذلك الماء حتى نفدا فعطشت ثم عطش ولدها فجعل يتلوى من العطش ، ثم ذهبت في تلك الحال لعلها ترى أحداً أو تجد مغياً ، فصعدت أدنى جبل منها وهو الصفا وتطلعت فلم تر أحداً ثم ذهبت إلى المروة فصعدت عليه فتطلعت فلم تر أحداً ، ثم جعلت تتردد في ذلك الموضع وهي مكروبة مضطرة مستغيثة بالله لها ولا بنها ، وهي تمشي وتلتفت إليه خشية السباع عليه ، فإذا هبطت الوادي سعت حتى تصعد من جانبه الآخر لئلا يخفى على بصورها ابنها والفرج مع الكرب ، والعسر يتبعه اليسر ؛ فلما تمت سبع مرات تسمرت حس الملك فبحث في الموضع الذي فيه زمزم فنبع الماء ، فاشتد فرح أم اسماعيل به فشربت منه وأرضعت ولدها وحملت

الله على هذه النعمة الكبرى ، وحوطت على الماء لثلاثي سيع . قال النبي ﷺ « رحم الله أم اسماعيل لو تركت ماء زمزم - أي لم تحوطه - لكانت زمزم عيناً معيناً » ثم عثر بها قبيلة من قبائل العرب يقال لهم جرهم فنزلوا عندها وتمت عليها النعمة .

وشب اسماعيل شاباً حسناً وأعجب القبيلة بأخلاقه وعلو همته وكماله ، فلما بلغ تزوج منهم امرأة ، ففي أثناء هذه المدة ماتت أمه رضى الله عنها وجاء ابراهيم بغيبه اسماعيل يتصيد فدخل على امرأته فسألها عن زوجها وعن عيشهم ، فأخبرته أن زوجها قد ذهب يتصيد وأن عيشهم عيش الشدة ، فقال لها : إذا جاء زوجك فاقرئني من السلام وقولي له يغير عتبة بابه . ورجع من فوره لحكمة أرادها الله ، فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئاً . فسأل امرأته فأخبرته أنه جاءهم شيخ بهذا الوصف وأنه سأل عنك فأخبرته . وسألنا عن عيشنا فأخبرته إننا في شدة ، وأنه يقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة بابك . فقال ذاك أبي وأنت العتبة إلحقى بأهلك . ثم تزوج اسماعيل غيرها ، ثم جاء ابراهيم مرة أخرى واسماعيل أيضاً في الصيد ، فدخل على امرأته فسألها عن اسماعيل فأخبرته ، وسألها عن عيشهم فأخبرته أنهم في نعمة وخير . وكانت امرأة طيبة شاكراً لله وشاكرة لزوجها ، ثم قال لها : إذا جاء زوجك فاقرئني عليه السلام وقولي له يثبت عتبة بابه ، ثم رجع أيضاً من فوره قبل مواجهة اسماعيل لحكمة أرادها الله تعالى ، فلما رجع اسماعيل من صيده قال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت جاءنا شيخ بهذا الوصف . فقال : هل قال لكم من شيء ؟ فقالت سألنا عنك فأخبرته ، وسألنا عن عيشنا فأخبرته إننا في نعمة وأثنت على الله فقال . فما قال ؟ قالت هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . فقال : ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسك . ثم عاد ابراهيم المرة الثالثة فوجد اسماعيل يبرى نبلا عند زمزم ، فلما رآه قام اليه فصنعا كما يصنع الوالد الشفيق والولد الشفيق ، فقال : يا اسماعيل إن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً يكون معبداً للخلق إلى يوم القيامة : قال سأعينك على ذلك ، فجعلا يرفعان القواعد من البيت ، ابراهيم يبني واسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم : فلما تم بنيانه وتم للخليل هذا الأثر الجميل أمره الله أن يدعو الناس ويؤذن فيهم بحج هذا البيت ، فجعل يدعو الناس وهم يقدون الى هذا البيت من كل فج عميق ليشهدوا منافع دنياهم وآخرهم ويسعدوا ويزول عنهم شقاءهم : وفي هذا الاثناء حين تمكن حب اسماعيل من قلبه وأراد الله أن يمتحن ابراهيم لتقديم محبة ربه وخلته التي لا تقبل المشاركة والمزاومة فأمره في المنام أن يذبح اسماعيل ، ورؤيا الانبياء وحى من الله ، فقال لاسماعيل : إني أرى في

المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما ، أى خضعا لأمر الله وانقادا لأمره ووطنا أنفسهما على هذا الأمر المزعج الذى لا تكاد النفوس تصبر على عشر معشاره (وتله للجبين) نزل الفرج من الرحمن الرحيم (وناديناه يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا) فحصل توطين النفس على هذه المحنة والبلوى الشاقة المزعجة ، وحصلت المقدمات والجزم المصمم وتم لها الأجر والثواب ، وحصل لها الشرف والقرب والزلفى من الله ، وما ذلك من اللطاف الرب بعزیز . قال تعالى (إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم) وأى ذبح أعظم من كونه حصل به مقصود هذه العبادة التى لا يشبهها عبادة ، وضار سنة فى عقبه إلى يوم القيامة يتقرب به إلى الله ويدرك به ثوابه ورضاه (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم)

فصل

ثم ان الله أتم الثعنة على ابراهيم ورحم زوجته سارة على الكبر والعقم واليأس بالبشارة بالابن الجليل وهو اسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب ، فحين أرسل الله لوطاً إلى قومه وتمردوا عليه وحتم الله عقوبتهم ، وكان لوط عليه السلام تلميذاً لابراهيم ، ولا ابراهيم عليه حقوق كثيرة ، ففرت الملائكة الذين أرسلوا لاهلاك قوم لوط بابراهيم بصورة آدميين ، فلما دخلوا عليه وسلموا رءوسهم عليهم السلام ، بادرهم بالضيافة ، وكان الله قد أعطاه الرزق الواسع والكرم العظيم ، وكان ينته ماؤاً للأضياف ، فبالحال راغ إلى أهله بسرعة وخفية منهم ، فجاء بمجل سمين مخنوذ مشوى على الرضف فقر به اليهم فقال (ألأنا كلون) فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، إذ ظن أنهم لصوص (فقالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وكانت سارة قئمة فى خدمتهم ، وبشروه بفلان عليم ، فصرخت سارة وصكت وجهها متعجبة ومستبشرة ومتردة ومتحيرة وقالت (أألد وأنا عجوز) وقبل ذلك كنت عقياً ، وهذا بعلى شيخاً ، إن هذا لشيء عجيب ، قالوا : أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ، فبشراهما باسحاق وأنه يعيش ويولد له يعقوب ويدركانه . ولهذا حمد الله ابراهيم على تمام نعمته وقال (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء)

فصل

﴿ فيما فى قصة الخليل من الفوائد ﴾

ليعلم أن جميع ما قصه الله علينا من سيرة ابراهيم الخليل عليه السلام فاننا مأمورون به أمراً خاصاً

قال تعالى (ملة أبيكم إبراهيم) أى الزموها (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم) الآية . فما هو عليه فى التوحيد والاصول والعقائد والأخلاق وجميع ما قص علينا من نبأه ، فان اتباعنا إياه من ديننا ، ولهذا لما كان هذا أمراً عاماً لأحواله كلها استثنى الله حالة من أحواله فقال (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) أى فلا تقتدوا به فى هذه الحال بالاستغفار للمشركين ، فان استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

ومنها أن الله اتخذ خليلاً ، والخلة أعلى درجات المحبة ، وهذه المرتبة لم تحصل لأحد من الخلق إلا للخليتين إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم .

ومنها ما أكرم به الله من الكرامات المتنوعة ، جعل فى ذريته النبوة والكتاب وأخرج من صلبه أمتين هما أفضل الأمم العرب وبنو إسرائيل واختاره الله لبناء بيته الذى هو أشرف بيت وأول بيت وضع للناس ووهب له الأولاد بعد الكبر والياس ، وملاً بذكره ما بين الخاقين وامتلات قلوب الخلق من محبته وألسنتهم من الثناء عليه .

ومنها أن الله رفعه بانعلم واليقين وقوة الحجج ، قال جل ذكره : وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم « ومن شوقه الى الوصول إلى غاية العلم ونهايته أن سأل ربه (أرنى كيف تحيى الموتى . قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم) ومنها أن من عزم على فعل الطاعات وبذل مقدوره فى أسبابها ، ثم حصل مانع يمنع من اكملها أن أجره قد وجب على الله ، كما قال الله ذلك فى المهاجر الذى يموت قبل أن يصل إلى مهاجرة ، وكما ذكره الله فى قصة الذبح ، وأن الله أتم الأجر لإبراهيم وإسماعيل حين أسما الله وأذعنا لأمره ثم رفع عنها المشقة وأوجب لها الأجر الدنيوى والأخروى .

ومنها ما فى قصصه من آداب المناظرة وطرقها ومسالكها النافعة وكيفية إلزام الخصم بالطرق الواضحة التى يعترف بها أهل العقول ، وإلجاؤه الخصم الألد الى الاعتراف ببطلان مذهبه وإقامة الحجة على المعاندين وإرشاد المسترشدين .

ومنها أن من نعمة الله على العبد هبة الأولاد الصالحين ، وأن عليه فى ذلك أن يحمده الله ويدعو الله لذريته كما فعل الخليل عليه السلام فى قوله (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل واسحاق) الى آخر الدعاء ، وقال جل ذكره فى الثناء عمومًا على من يدعو الله بصلاح ذريته :

(حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت اليك وإني من المسلمين) فإن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .

ومنها أن المشاعر ومواضع الأنساك من جملة الحكم فيها ، أن فيها تذكيرات بمقامات الخليل وأهل بيته في عبادات ربهم ، وإيمان بالله ورسوله ، وحث على الاقتداء بهم في كل أحوالهم الدينية وكل أحوال الرسل الدينية ، لقوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)

ومنها الأمر بتطهير المسجد الحرام من الأنجاس ومن جميع المعاصي القولية والفعلية تعظيماً لله وإعانة وتنشيطاً للمتعبدين فيه ومثله بقية المساجد لقوله عز وجل (وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) وقال (في يموت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه)

ومنها أن أفضل الوصايا على الإطلاق ما وصى به إبراهيم بنبيه ويعقوب ، وهو الوصية بملازمة القيام بالدين وتقوى الله والاجتماع على ذلك ، وهى وصيته تعالى للأوليين والآخرين ، إذ بها السعادة الأبدية والسلامة من شرور الدنيا والآخرة .

ومنها أن العامل كما عليه أن يتقن عمله ويجتهد في إبقائه على أكمل الوجوه فعليه مع ذلك أن يكون بين الخوف والرجاء ، وأن يتضرع إلى ربه في قبوله وتكميل نقصه والعفو عما وقع فيه من خلل أو نقص ، كما كان إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت وهما بهذا الوصف الكامل . ومنها أن الجمع بين الدعاء لله بمصالح الدنيا والدين من سبيل أنبياء الله ، وكذلك السعى في تحصيلهما الدين هو الأصل والمقصود الذى خلق له الخلق والدنيا وسيلة ومعونة عليه لدعاء الخليل لأهل البيت الحرام بالأمرين وتعليمه الدعاء بالأمور الدنيوية أنه وسيلة إلى الشكر فقال (وارضوهم من الثمرات لعلهم يشكروا)

ومنها ما اشتملت عليه قصة إبراهيم من مشروعية الضيافة وآدابها ، فإن الله أخبر عن ضيفه أنهم مكرمون ، يعنى أنهم كرماء على الله ، وأيضاً إبراهيم أكرمهم بضيافته قولاً وفعلًا ، فأكرام الضيف من الإيمان ، وأنه خدمهم بنفسه وبأدر بضيافتهم قبل كل شيء ، وآتى بأطيب ماله عجل حنيد سمين وقربه اليهم ولم يحوجهم إلى الذهاب إلى : لآخر وعرض عليهم الأكل بلفظ رقيق فقال : ألا تأكلون ؟

ومنها مشروعية السلام وأن المبتدئ فيه هو الداخل وهو الماشئ ، وأنه يجب رده ومشروعية الوقوف على اسم من يتصل بك من صاحب ومعامل وضيف لقوله (قوم منكم) أى لا أعرفكم فأحب أن تعرفونى بأنفسكم ، وهذا اللفظ من قوله أنكرتكم ونحوه .

ومنها الترغيب في أن يكون أهل الانسان ومن يتولى شئون بيته حازمين مستعدين لكل

ما يراد منهم من الشئون والقيام بمهمات البيت ، فان ابراهيم في الحال بادز إلى أهله فوجد طعام ضيوفه حاضراً لا يحوج إلا الى تقديمه .

ومنها أن اتيان الولد والبشارة به من سارة وهى عجوز عقيم يعد معجزة لابراهيم وكرامة لسارة ففيه معجزة نبي وكرامة ولي ، ونظيره بشارة الملائكة لمريم بعيسى : وبشارتهم بيحيى لزكريا وزوجته ، وكون زكريا جعل الله آية وجود المبشر به أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام ؛ وهو سوى لا آفة فيه إلا بالرمز والاشارة ، وكل هذا وما أشبهه من آيات الله ، وأعجب من هذا ايجاده آدم من تراب . فسبحان من هو على كل شىء قدير .

ومنها ثناء الله على ابراهيم أنه أتى ربه بقلب سليم ، وقد قال (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) والجامع لمعناه أنه سليم من الشرور كلها ومن أساليبها ، ملآن من الخير والبر والكرم ، سليم من الشبهات القاذحة في العلم واليقين ؛ ومن الشهوات الخائلة بين العبد وبين كماله ، سليم من الكبر ومن الرياء والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ، وسليم من الغل والحقْد ، ملآن بالتوحيد والايمان والتواضع للحق وللخلق ، والنصيحة للمسلمين والرغبة في عبودية الله وفي نفع عباد الله .

ومنها ما ذكره في قصة نوح و ابراهيم وموسى وهارون والياس ﴿ سلام على نوح في العالمين ، سلام على ابراهيم ﴾ يتبعها بقوله (إنا كذلك نجزي المحسنين) فوعد الباري أن كل محسن في عبادته محسن إلى عبادته أن الله يجزيه الثناء الحسن والدعاء من العالمين بحسب احسانه ، وهذا ثواب عاجل وآجل ، وهو من البشرى في الحياة الدنيا ومن علامات السعادة .

﴿ قصة لوط عليه السلام ﴾

وقصة لوط عليه السلام تبع لقصة ابراهيم ، لأنه تلميذه وقد تعلم من ابراهيم ، وكان له بمنزلة الابن ، فنبأه الله بحياة الخليل وأرسله إلى قري سدوم من غور فلسطين ، وكانوا مع شركهم بالله يلوطنون بالذكور ، ولم يسبقهم أحد إلى هذه الفاحشة الشنعاء ، فدعاهم الى عبادة الله وحده وحذرهم من هذه الفاحشة ، فلم يزدادوا إلا اعتواً وتمادياً فيما هم فيه ، ولما أراد الله هلاكهم أرسل الملائكة لذلك فمروا بطريقهم على ابراهيم وأخبروه بذلك ؛ فجعل ابراهيم يجادل في اهلاكهم - وكان رحيماً حليماً - وقال : إن فيها لوطاً . قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله أجمعين . فقيل يا ابراهيم اعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود .

ولما ذهب الملائكة إلى لوط بصورة أضياف آدميين شباب ، ساء لوطاً ذلك وضاق بهم ذرعاً

وقال : هذا يوم عصيب « لعله بما عليه قومه من هذه الجراءة الشنيعة ، ووقع ماخاف منه ، فجاءه قومه يهرعون اليه يريدون فعل الفاحشة بأضياف لوط ، فقال (يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) لعله أنه لاحق لهم فيهن ، كما عرض سليمان للمراتين حين اختصمتا في الولد فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينكما . ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك ، وهذا مثله . ولهذا قال قومه (لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ، وانك لتعلم ما نريد) وأيضاً يريد بعض العذر من أضيافه ، وعلى هذا التأويل لا حاجة إلى العدول إلى قول بعض المفسرين (هؤلاء بناتى) يعنى زوجاتهم ، يعنى لأن النبي أب لأمته ، فان هذا يمنع أمران :

أحدهما : قوله (هؤلاء بناتى) يشير اليهن إشارة الحاضر .

ثانياً : هذا الاطلاق على زوجاتهم لا نظيره ، وأيضاً النبي إنما هو بمنزلة الأب للمؤمنين به ، لا للكفار ، والمحدور الذى توهّمه يزول بما ذكرنا ، وأنه يعلم أنه لاحق لهم فيهن ، وإنما يريد مدافعتهم بكل طريق ، فاشتد الأمر بلوط وقال (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) أى لدافعتكم ، فلما رآهم جازمين على مرادهم الخبيث قال (يا قوم اتقوا الله ولا تمخزون فى ضيفي أليس منكم رجل رشيد) فاستلجوا فى طغيانهم وسكرهم ، فحينئذ أخبرته ملائكة الرحمن بأمرهم وأنهم أرسلوا لاهلاكهم ، فصدم جبريل أو غيره من الملائكة الذين يعالجون الباب ليدخلوا على لوط فطمس بهذه الصدمة أعينهم ، فكان هذا عذاباً معجلاً وانودجاً لمن باشروا مراودة لوط على أضيافه ، وأمروا لوطاً أن يسرى بأول الليل بأهله ويلج فى السير حتى يخلف ديارهم وينجو من معرة العذاب ، فخرج بهم فما أصبح الصباح حتى خلفوا ديارهم وقلب الله عليهم ديارهم فجعل أعلاها أسفلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين الذين يعملون عملهم ببغيد .

وفى هذه القصة أكبر دليل على أن فاحشة اللواط من أشنع القبائح ، وأنها توجب العقاب الشديد ، وأن من ابتلى بهذه الفاحشة فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح ، فاستحسن ما كان قبيحاً ونفر من الطيب ، وذلك دليل على انحراف الأخلاق

وفى قصة إبراهيم جواز التعريض ، أما قصة إبراهيم فى قوله (فنظر نظرة فى النجوم فقال إني سقيم) وأما لوط فى قوله (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) والتعريض يكون فى الأقوال ويكون فى الأفعال ، وهو أن يقصد المتكلم أو العامل لعمل أمر من الأمور التى لا بأس بها ويوم السامع والرائى أمراً آخر ليستجلب منفعة أو يدفع مضرة .

ومنها أن من علامة الرجل الرشيد أنه هو المسدد فى أقواله وأفعاله ، ومن ذلك أنه ينصر المظلومين ويفرج الكرب عن المكروبين ويأمر بالخير وينهى عن الشر ، هذا هو الرشيد

حقيقة، فلماذا قال لوط : أليس منكم رجل رشيد . أى فيأمر بمعروف وينهى عن منكر ويدفع أهل الشر والبغى .

ومنها الحث على السعى فى الاعوان على أمور الخير ودفع الشر ، ولو كان المعاون على ذلك من أهل الشر فإن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم عند الله ، ولهذا قال لوط (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) وأكثر الأنبياء يبعثهم الله فى أشراف قومهم ويحصل بذلك من تأييد الحق وقمع الباطل والتمسك من الدعوة مالا يحصل لو لم يكن كذلك ؛ واعتبر هذا بحال شعيب وقول قومه له (ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزير) وكذلك نبينا محمد بعث فى أشرف بيت فى قريش وأعزه ، وقد رماه قومه بالعداوة البايغة وعقدوا المجالس المتعددة فى ابطال قوله ودينه ، بل وفى كيفية الفتك به ، ومن الأسباب التى أوقعتهم عند حدم خوفهم من قبيلته ، وانظر إلى حالته فى تضيقهم عليه بالشعب وانحياز قبيلته معهم - مسلمهم وكافرهم - ولم يخطر ببالهم أنهم يصلون إلى الفتك بشخصه الكريم حتى مكروا ذلك المكر العظيم ، إذ اتفق رأيهم على أن ينتدب لقتله من كل قبيلة رجل ليتفرق دمه فى القبائل فيميز قومه عن الأخذ بثأره ولكنهم يمحرون ويمكرون والله خير الماكرين .

❦ قصة شعيب عليه السلام ❦

نساء الله وأرسله إلى أهل مدين ، وكانوا مع شركهم يبخسون المسكاييل والموازن ، وينقضون فى المعاملات وينقصون الناس أشياءهم ، فدعاهم إلى توحيد الله ونهاهم عن الشرك به وأمرهم بالعدل فى المعاملات ، وزجرهم عن البخس فى المعاملات ، وذكرهم الخير الذى أدره الله عليهم ، والأرزاق المتنوعة ، وأنهم ليسوا بحاجة إلى ظلم الناس فى أموالهم ، وخوفهم العذاب المحيط فى الدنيا قبل الآخرة ، فأجابوه ساخزين وردوا عليه متهمكين فقالوا (يا شعيب أصلاتك تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لآنت الحليم الرشيد) أى فنحن جازمون على عبادة ما كان آباؤنا يعبدون ، وجازمون على أننا نفعل فى أموالنا ما نريد من أى معاملة تكون فلا ندخل تحت أوامر الله وأوامر رسله ، فقال لهم (يا قوم ، أرايتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً) أى أغنانى الله (وما أريد أن أخالفكم لى ما أنتمأكم عنه) أى ما يمتكم عن المعاملات الخبيثة وظلم الناس فيها ، إلا وأنا أول تارك لها مع أن الله أعطانى ووسع على وأنا محتاج إلى المعاملة ولكنى متقيد بطاعة ربى ، إن أريد فى فعلى وأمرى لكم إلا الإصلاح أى أن تصلح أحوالكم الدينية والدنيوية ما استطعت » وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

ثم خوفهم أخذت الأمم التي حولهم في الزمان والمكان فقال (ولا يجرمكم شقائي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) ثم عرض عليهم التوبة ورغبهم فيها فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود) فلم يفد فيهم . فقالوا (ما نفقه كثيراً مما تقول) وهذا لعنادهم وبغضهم البليغ للحق (وإنا لترك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزير) قال (يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، إن ربي بما تعملون محيط) ثم لما رأى عتوهم قال (ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعملون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا إني معكم رقيب . فلما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) فأرسل الله عليهم حراً أخذاً بنفاسهم حتى كادوا يحتنقون من شدته ، ثم في أثناء ذلك أرسل سحابة باردة فأظلمتهم فتنادوا إلى ظلمها غير الظليل ، فلما اجتمعوا فيها التهب عليهم ناراً فأحرقتهم وأصبحوا خامدين معذبين مذمومين مدونين في جميع الأوقات .

وفي قصة شعيب فوائد متعددة : —

منها أن ينحس المكابيل والموازن خصوصاً ، وينحس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة .

ومنها أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي والحاجة إليها أعظم ، ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب ، والكبر من الفقير أقبح من الغنى ، والسرقه من ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج . لهذا قال شعيب لقومه (إني أراكم بخير) أى بنعم كثيرة ، فأى أمر أوجبكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرمة .

ومنها قوله (بقية الله خير لكم) فيه الحث على الرضا بما أعطى الله والاكتفاء بحلاله عن حرامه ، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلع إلى ما عند الناس .

ومنها فيه دلالة على أن الصلاة سبب لفعل الخيرات وترك المنكرات وللنصيحة لعباد الله ، وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب : أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ، إنك لآنت الحليم الرشيد » وقال تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ومن هنا تعرف حكمة الله ورحمته في أنه فرض علينا الصلوات تتكرر في اليوم والليلة لعظم وقعها وشدتها ونفها وجميل آثارها ، فله على ذلك أنتم الحمد .

ومنها أن العبد في حركات بدنه وتصرفاته وفي معاملاته المالية داخل تحت حجر الشريعة ، فما أبيض له منها فعله ، وما منعه الشرع تعين عليه تركه ، ومن يزعم أنه في ماله حر له أن يفعل

ما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة ، فهو بمنزلة من يرى أن عمل بدنه كذلك ، وأنه لا فرق عنده بين الكفر والإيمان ، والصدق والكذب ، وفعل الخير والشر الكل مباح . ومن المعلوم أن هذا هو مذهب الاباحيين الذين هم شر الخليقة ، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا . لأنهم أنكروا على شعيب لما نهاهم عن المعاملات الظالمة ، وأباح لهم سواها ، فردوا عليه أنهم أحرار في أموالهم لهم أن يفعلوا فيها ما يريدون ، ونظير هذا قول من قال : إنما البيع مثل الربا ، فمن سوى بين ما أباحه وبين ما حرمه الله فقد انحرف في فطرته وعقله بعد ما انحرف في دينه .

ومنها أن الناصح للخلق الذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس لقوله : أنه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له ، وإذا نهاهم عن شيء كان أول التاركين . لقول شعيب (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه)

ومنها أن الأنبياء جميعهم بعثوا بالإصلاح والصلاح ، ونهوا عن الشرور والفساد ؛ فكل صلاح وإصلاح ديني ودنيوي فهو من دين الأنبياء ، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ فإنه أبدى وأعاد في هذا الأصل ووضع للخلق الأصول النافعة التي يجرون عليها في الأمور العادية والدنيوية كما وضع لهم الأصول في الأمور الدينية ، وأنه كما أن على العبد السعي والاجتهاد في فعل الصلاح والإصلاح ، فعليه أن يستمد العون من ربه على ذلك ، وأن يعلم أنه لا يقدر على ذلك ولا على تكميله إلا بالله لقول شعيب (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أُنِيب) .

ومنها أن الداعي إلى الله يحتاج إلى الحلم وحسن الخلق ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك ، وأن لا يحفظه أذى الخلق ولا يصد عنه شيء من دعوته ، وهذا الخلق كماله للرسول صلوات الله عليهم وسلم ، فانظر إلى شعيب عليه السلام وحسن خلقه مع قومه ودعوته لهم بكل طريق وهم يسمعون الأقوال السيئة ويقابلونه بالمقابلة الفعلية ، وهو ﷺ يعلم عليهم ويصفح ويتكلم معهم كلام من لم يصدر منهم له وفي حقه إلا الاحسان ويهون هذا الأمر أن هذا خلق من ظفر به وحازه فقد فاز بالخط العظيم ، وأن لصاحبة عند الله المقامات العالية والنعيم المقيم ، ويهونه أنه يعالج أمماً قد طبعوا على أخلاق ازلتها وقلعها أصعب من قلع الجبال الرواسي ، ومروا على عقائد ومذاهب بذلوا فيها الأموال والأرواح وقدموها على جميع المهمات عندهم ، أفطن مع هذا أن أمثال هؤلاء يقتنعون بمجرد القول بأن هذه مذاهب باطلة وأقوال فاسدة ، أم تحسبهم يغفرون لمن نالها بسوء كلا والله إن هؤلاء يحتاجون إلى معالجات متنوعة بالطرق التي دعت إليها الرسل ، يذكرون بنعم الله وأن الذي تفرد بالنعم يتعين أن يفرد بالعبادة ، ويذكر لهم من تفاصيل النعم ما لا يعد ولا يحصى ،

ويذكرون بما في مذاهبهم من الزيف والفساد والاضطراب والتناقض المزئلل للعقائد الداعى إلى تركها ، ويذكرون بما بين أيديهم وما خلفهم من أيام الله ووقائمه بالأمم المكذبة للرسل ، المنكوة للتوحيد ، ويذكرون بما في الايمان بالله وتوحيده ودينه من المحاسن والمصالح والمنافع الدينية والدنيوية الجاذبة للقلوب المسهلة لكل مطلوب ، ومع هذا كله فيحتاج الخلق إلى الاحسان اليهم وبذل المعروف ، وأقل ذلك الصبر على أذاهم وتحمل ما يصدر منهم ولين الكلام معهم ، وسلوك كل سبيل حكمة معهم ، والتنقل معهم في الأمور بالاكتفاء ببعض ما تسمح به أنفسهم ليستدرج بهم إلى تكميله ، والبداة بالأمم فالأمم ، وأعظمهم قياماً بهذه الأمور وغيرها سيدهم وخاتمهم وإمام الخلق على الاطلاق محمد ﷺ .

❦ قصة موسى وهارون عليهما السلام ❦

قد ذكر الله لموسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام سيرة طويلة ، وساق قصصه في مواضع من كتابه بأساليب متنوعة واختصار أو بسط يليق بذلك المقام ، وليس في قصص القرآن أعظم من قصة موسى ، لأنه عالج فرعون وجنوده ، وعالج بنى اسرائيل أشد المعالجة ، وهو أعظم أنبياء بنى اسرائيل ، وشريعته وكتابه التوراة ، هو مرجع أنبياء بنى اسرائيل وعلمائهم وأتباعه أكثر أتباع الانبياء غير أمة محمد ﷺ ، وله من القوة العظيمة في اقامة دين الله والدعوة اليه والغيرة العظيمة ما ليس لغيره ، وقد ولد في وقت قد اشتد فيه فرعون على بنى اسرائيل فكان يذبح كل مولود ذكر يولد من بنى اسرائيل ويستحي النساء للخدمة والامتهان ، فلما ولدت له أمه خافت عليه خوفاً شديداً ، فان فرعون جعل على بنى اسرائيل من يرقب نساءهم ومواليدهم ، وكان يبيتها على حفة نهر النيل فألهما الله أن وضعت له تابوتاً إذا خافت أحداً ألقته في اليم وربطته بحبل لئلا تجرى به جرية الماء ومن لطف الله بها أنه أوحى لها أن لا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ، فلما القته ذات يوم انفلت رباط التابوت ، فذهب الماء بالتابوت الذى في وسطه موسى ، ومن قدر الله أن وقع في يد آل فرعون وجىء به الى امرأة فرعون آسية فلما رآته أحبته حباً شديداً ، وكان الله قد ألقى عليه المحبة في القلوب وشاع الخبر ووصل إلى فرعون فطلبه ليقتله ، فقالت امرأته لا تقتلوه قرة عين لى ولك عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولداً ، فنجا بهذا السبب من قتلهم ، وكان هذا الأثر الطيب والمقدمة الصالحة من السعى المشكور عند الله ، فكان هذا من أسباب هدايتها وإيمانها بموسى بعد ذلك .

أما أم موسى فانها فرغت وأصبح قواها فارغا ، وكاد الصبر أن يغلب فيها إن كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأختة قصيه وتحسنى عنه ، وكانت امرأة

فرعون قد عرضت عليه المراضع فلم يقبل ثدى امرأة ، وعطش وجعل يتلوى من الجوع وأخرجوه الى الطريق لعل الله أن ييسر له أحداً ، فحانت من أخته نظرة اليه وبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون بشأنها ، فلما أقبلت عليه وفهمت منهم أنهم يطلبون له مرضعاً قالت لهم : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؛ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن . ثم ذكر الله في هذه السورة قصة مفصلة واضحة ، وكيف تنقلت به الأحوال ، قراءتها كافية عن شرح معناها لوضوحها وتفصيلاتها ، والله تعالى ما فضل لنا إلا ما ننتفع به ونعتبر ، ولكن في قصته من العبر والفوائد شيء كثير ننبه على بعضها .

﴿ ذكر الفوائد المستنبطة نصاً أو ظاهراً أو تمهيداً أو تعليلاً من قصة موسى عليه السلام ﴾

منها : لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها ، ثم تلك الإشارة من الله لها برده اليها ، التي لولاها لفضى عليها الحزن دلي ولدها ، ثم رده اليها بالجائه اليها قدراً بتحريم المراضع عليه وبذلك وغيره يعلم أن الطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول ، ولا تعبر عنها العبارات ، وتأمل موقع هذه الإشارة وأنه أنها ابنها ترضعه جهراً وتأخذ عليه أجراً وتسمى أمه شرعاً وقدرا وبذلك اطمان قلبها وازداد إيمانها ، وفي هذا مصداق لقوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) فلا أكره لكم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون ، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة وآثاره الطيبة .

ومنها : أن آيات الله وعبره في الأمم السابقة ؛ إنما يستفيد منها ويستنير بها المؤمنون ؛ والله يسوق القصص لاجلهم ، كما قال تعالى في هذه القصة (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) .

ومنها : أن الله إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه وآتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة .

ومنها : أن الأمة المستضعفة ولو بلغت في الضعف ما بلغت لا ينبغي أن يستولى عليها الكسل عن السعي في حقوقها ولا اليأس من الارتقاء إلى أعلى الأمور ، خصوصاً إذا كانوا مظلومين ، كما استنقذ الله بني إسرائيل على ضعفها واستعبادها لفرعون وملئه منهم ، ومكنهم في الأرض وملكهم بلادهم .

ومنها : أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تطالب بحقوقها لا يقوم لها أمر دينها كما لا يقوم لها أمر دنياها .

ومنها : أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزله ، كما جرى لأم موسى وموسى من تلك المخاوف .

ومنها : أن الإيمان يزيد وينقص لقوله (ولتكون من المؤمنين) والمراد بالإيمان هنا زيادته وزيادة طمأنينته .

ومنها : أن من أعظم نعم الله على العبد تثبيت الله له عند المقلقات والخاوف ، فانه كما يزداد به إيمانه وثوابه فانه يتمكن من التول الصواب والفعل الصواب ، ويبقى رأيه وأفكاره ثابتة ، وأما من لم يحصل له هذا الثبات ، فانه لقلقه وروعه يضيع فكره ويذهل عقله ولا ينتفع بنفسه في تلك الحال .

ومنها : أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق ، وأن وعد الله نافذ لا بد منه ، فانه لا يجعل فعل الأسباب التي تنفع ، فان الأسباب والسعى فيها من قدر الله ، فان الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها ، ومع ذلك لما التقطه آل فرعون سعت بالاسباب وأرسلت أخته لتقصه وتعمل الأسباب المناسبة لتلك الحال .

ومنها : جواز خروج المرأة في حوائجها وتكاليها للرجال إذا انتفى المحذور ، كما صنعت أخت موسى وابنتا صاحب مدين .

ومنها : جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع ، كما فعلت أم موسى ، فان شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد من شرعنا ما ينسخه

ومنها : أن قتل الكافر الذي له عهد بمقد أو عرف لا يجوز ، فان موسى ندم على قتله القبطى واستغفر الله منه وتاب اليه .

ومنها : أن الذى يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين المفسدين في الأرض ؛ ولو كان غرضه من ذلك الارهاب ، ولو زعم أنه مصلح حتى يرد الشرع بما يبيح قتل النفس

ومنها : أن اخبار الغير بما قيل فيه وعنه على وجه التحذير له من شريع به لا يكون نهيمة ، بل قد يكون واجباً ، كما ساق الله خبر ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى محذراً لموسى على وجه الثناء عليه .

ومنها : إذا خاف التلف بالقتل بغير حق في اقامته في موضع ، فلا يلقى بيده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك ، بل يفر من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى

ومنها : إذا كان لا بد من ارتكاب إحدى مفسدتين تدين ارتكاب الأخف منهما الاسلام دفماً لما هو أعظم وأخطر ، فان موسى لما دار الامر بين بقاءه في مصر ولكنه يتل أو ذهابه إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق اليها ، وليس معه دليل يده غير هداية ربه ، ومعلوم أنها أرجى للسلامة لا جرم آثرها موسى .

ومنها : فيه تنبيه لطيف على أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل أو التكلم به إذا لم يترجح عنده أحد القولين ، فإنه يستهدى ربه ويسأله أن يهديه إلى الصواب من القولين بعد أن يقصد الحق بقلبه ويبحث عنه ، فإن الله لا يخيب من هذه حاله ، كما جرى لموسى لما قصد تلقاء مدين ولا يدرى الطريق المعين إليها قال (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) وقد هداه الله وأعطاه ما رجاه وتمناه .

ومنها : أن الرحمة والاحسان على الخلق ، من عرفه العبد ومن لا يعرفه ، من أخلاق الأنبياء وأن من جملة الاحسان الاعانة على سقى الماشية ، وخصوصاً اعانة العاجز ، كما فعل موسى مع ابنتي صاحب مدين حين سقى لها ، لما رأهما عاجزتين عن سقى ماشيتهما قبل صدور الرعاية ومنها : أن الله كما يحب من الداعي أن يتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه العامة والخاصة ، فإنه يحب منه أن يتوسل إليه بضعفه وعجزه وفقره وعدم قدرته على تحصيل مصالحه ودفع الأضرار عن نفسه كما قال موسى (رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير) لما في ذلك من اظهار التضرع والمسكنة والافتقار لله الذي هو حقيقة كل عبد .

ومنها : أن الحياء والمكافأة على الاحسان لم يزل دأب الأمم الصالحين . ومنها : أن العبد إذا عمل العمل لله خالصاً ثم حصل به مكافأة عليه بغير قصده فإنه لا يلام على ذلك ولا يخل باخلاصه وأجره ، كما قبل موسى مكافأة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يطلبه ولم يستشرف له على معاوضة

ومنها : جواز الاجارة على كل عمل معلوم في نفع معلوم أو زمن مسمى ، وأن مرد ذلك إلى العرف ، وأنه تجوز الاجارة وتكون المنفعة البضع ، كما قال صاحب مدين (إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين) الآية . وأنه يجوز للانسان أن يخطب الرجل لابنته ونحوها ممن هو ولى عليها ولا نقص في ذلك ، بل قد يكون نفعاً وكالاً ، كما فعل صاحب مدين مع موسى

ومنها قوله (ان خير من استأجرت القوي الأمين) هذان الوصفان يهما تمام الأعمال كلها ، فكل عمل من الولايات أو من الخدمات أو من الصناعات أو من الأعمال التي القصد منها الحفظ والمراقبة على المال والأعمال إذا جمع الانسان الوصفين ، أن يكون قوياً على ذلك العمل بحسب احوال الأعمال ، وأن يكون مؤتمناً عليه ، ثم ذلك العمل وحصل مقصوده ونمرته ، والخلل والنقص سببه الاخلال بها أو بأحدهما .

ومنها من أعظم مكارم الاخلاق تحسين الخلق مع كل من يتصل بك من خادم وأجير وزوجة وولد ومعامل وغيرهم ، ومن ذلك تخفيف العمل عن العامل لقوله (وما أريد أن أشق عليك ، ستجدني إن شاء الله من الصالحين) وفيه أنه لا بأس أن يرغب المعامل في معاملته بالمحاضات

والأجارات بأن يصف نفسه بحسن المعاملة بشرط أن يكون صادقاً في ذلك
ومنها جواز عقد المعاملات من اجارة وغيرها بغير ائشهاد لقوا (والله على ما نقول وكيل)
وتقدم أن الاشهاد تنحفظ به الحقوق ، وتقل المذازعات ، والناس في هذا الموضع درجات متفاوتة
وكذلك الحقوق

ومنها الآيات البينات التي أيد الله بها موسى من انقلاب عصاه التي كان يعرفها (حية تسمى)
ثم عودها سيرتها الأولى ، وأن يده إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها صارت بيضاء من غير سوء
للناظرين ، ومن رحمة الله وحمايته لموسى وهارون من فرعون ومائه ، ومن انغلاق البحر لما ضرب به موسى بعصاه
فصار اثني عشر طريقاً وسلكه هؤلاء فنجوا ، وقوم فرعون فهلكوا ، وغير ذلك من الآيات
المتتابعات التي هي براهين وآيات لمن رآها وشاهدها ، وبراهين لمن سمعها ، فانها نقلتها معظم مصادر
اليقين ، الكتب السماوية ، ونقلتها القرون كلها ، ولم ينكر مثل هذه الآيات إلا جاهل مكابر
زنديق ، وجميع آيات الانبياء بهذه المثابة .

ومنها أن آيات الانبياء وكرامات الأولياء وما يخرقه الله من الآيات ومن تغيير الأسباب أو
منع سببيتها أو احتياجها إلى أسباب آخر أو وجود موانع توقعها هي من البراهين العظيمة على
وحدانية الله ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن أقدار الله لا يخرج عنها حادث جليل ولا حقير ،
وأن هذه المعجزات والكرامات والتغييرات لا تنافي ما جعل الله في هذه المخلوقات من الأسباب
المحسوسة والنظامات المعهودة ، وإنك لا تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً ، فان سنن الله في جميع
الحوادث السابقة واللاحقة قسمان :

أحدهما : وهو جمهور الحوادث والكائنات والأحكام الشرعية والقدرية وأحكام الجزاء
لا تتغير ولا تبدل عما يعهده الناس ويعرفون أسبابه ، وهذا القسم أيضاً مندرج في قدرة الله
وقضائه ، ويستفاد من هذا العلم بكمال حكمة الله في خلقه وشرعه ، وأن الأسباب والمسببات من
سلك طرقها على وجه كامل أفضت به إلى نتائجها وثمراتها ، ومن لم يسلكها أو سلكها على وجه
ناقص لم يحصل له الثمرات التي رتبت على الأعمال شرعاً ولا قدرأ ، وهذه توجب للعبد أن يجد
ويجتهد في الأسباب الدينية والدنيوية النافعة مع استعانتة بالله والثناء على ربه في تيسيرها وتيسير
أسبابها وآلاتها وكل ما تتوقف عليه

القسم الثاني : حوادث معجزات الانبياء التي تواترت تواتراً لا يتواتر مثله في جميع الأخبار
وتناقلتها القرون كلها ، وكذلك ما يكرم الله به عباده من اجابة الدعوات وتفريج الكربات وحصول

المطالب المتنوعة ودفع المكافأة التي لا قدرة للعبد على دفعها ، والفتوحات الربانية والالهامات الالهية والانوار التي يقذفها الله في قلوب خواص خلقه فيحصل لهم بذلك من اليقين والطأينة والعلوم المتنوعة مالا يدرك بمجرد الطلب وفعل السبب ، ومن نصره للرسل وأتباعهم وخذلانه لاعدائهم وهو مشاهد في كثير من الأوقات ، فهذا القسم ليس عند الخلق اهتمام إلى أسباب هذه الحوادث ولا جعل لهم في الأصل وصول إلى حقيقتها وكنهها ، وإنما هي حوادث قدرها الرب العظيم الذي هو على كل شيء قدير بأسباب وحكم وسنن لا يعقلها الخلق ، ولا لحواسهم وتجاربهم وصول اليها بوجه من الوجوه ، وبها آمن الرسل من أولهم إلى آخرهم وأتباعهم ، الاولون منهم والآخرين ، وبها يعرف عظمة الباري ، وأن نواصي العباد بيده ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ويعرف بذلك صحة ما جاءت به الرسل ، كما يعرف أيضاً بالقسم الأول ، وكما أنه لا سبيل إلى العباد في هذه الدار إلى ادراك كنه صفات اليوم الآخر وكنه ما في الجنة والنار ، وإنما يعلمون منها ما علمتهم به الرسل ونزلت به الكتب ، ولا سبيل إلى أهل هذا الكون الارضى للوصول إلى العالم السماوى ، ولا سبيل لهم إلى إحياء الموتى وإيجاد الأرواح في الجمادات ، فكذلك هذا النوع العظيم من حوادث الكون ، وإنما أطلعنا الكلام على هذه المسألة وإن كانت تستحق من البسط أكثر من هذا لأمرين .

أحدهما : أن الزنادقة المتأخرين الذين أنكروا وجود الباري وأنكروا جميع ما أخبرت به الرسل والكتب السماوية من أمور الغيب ، ولم يثبتوا من العلوم إلا ما وصلت اليه حواسهم وتجاربهم القاصرة على بعض علوم الكون ، وأنكروا ما سوى ذلك ، وزعموا أن هذا العالم وهذا النظام الموجود فيه لا يمكن أن يغيره مغير ، أو يغير شيئاً من أسبابه ، وأنه وجد صدفة من غير إيجاد موجد ، وأنه آلة تمشى بنفسها وطبيعتها ، ليس لها مديرو ولا رب ولا خالق ، وهؤلاء جميع أهل الأديان يعرفون مكابرتهم ومباهتهم لأنهم كما عدموا الدين بالكلية فقد اختلت عقولهم الحقيقة ، إذ أنكروا أجلى الحقائق وأوضحها ، وأعظمها براهين وآيات ، وناهوا بقولهم القاصرة وآرائهم الفاسدة ، هؤلاء أمرهم معلوم ولكن ..

الأمر الثانى : أن بعض أهل العلم العصريين الذين يتظاهرون بنصر الاسلام ، والدخول مع هؤلاء الزنادقة في الجدال عنه يريدون باجتهدهم أو اغترارهم أن يطبقوا السنن الالهية ، وأمور الآخرة على ما يعرفه العباد بحواسهم ويدركونه بتجاربهم ، فحرفوا تلك المجزات ، وأنكروا الآيات اليبينات ، ولم يستفيدوا إلا الضرر على أنفسهم وعلى من قرأ كتاباتهم في هذه المباحث ، إذ ضعف إيمانهم بالله بتحريفهم لمجزات الأنبياء تحريفاً يؤول إلى إنكارها وإنكارهم هذا النوع العظيم من قضاء الله وقدره ، وضعف إيمان من وقف على كلامهم ممن ليست له بصيرة ولا عنده من

العلوم الدينية ما يبطل هذا النوع ، ولم يحصل ما زعموه من جلب الماديين إلى الهدى والدين ، بل زادهم إغراء في مذاهبهم ، لما رأوا أمثال هؤلاء يحاولون ارجاع النصوص الدينية ومعجزات الانبياء وأمور الغيب إلى علوم هؤلاء القاصرة على التجارب والمدركت بالحواس ، فيما عظم المصيبة ويشدة الجرم المزوق ؛ ولكن ضعف البصيرة والاعجاب بزنادقة الدهريين أوجب الخضوع لأقوالهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ومنها : أن من أعظم العقوبات على العبد أن يكون إماماً في الشر وداعياً إليه ؛ كما أن من أعظم نعم الله على العبد أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً ، قال تعالى في فرعون وملئه (وجعلناهم أئمة يهدون إلى النار) وقال (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا)

ومنها : ما في هذه القصة من الدلالة على رسالة محمد ﷺ إذ أخبر بهذه القصة وغيرها خبراً مفصلاً مطابقاً وتأصيلاً موافقاً ، قصة قصاً صدق به المرسلين وأيد به الحق المبين ، وهو لم يحضر في شيء من تلك المواضع ولا درس شيئاً عرف به أحوال هذه التفصيلات ، ولا جالس وأخذ عن أحد من أهل العلم ، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم ، ووحى أنزله عليه الكريم المنان لينذر به العباد أجمعين . ولهذا يقول في آخر هذه القصة (وما كنت بجانب الطور ، وما كنت بجانب الغربي إذ أوحينا إلى موسى ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين) الآية . وهذا نوع من أنواع براهين رسالته ومنها : ذكر كثير من أهل العلم ؛ انه يستفاد من قوله تعالى عن جواب موسى لربه لما سأله عن العصا فقال (وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال هي عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي) الآية ، استحباب استصحاب العصا لما فيه من هذه المنافع المعينة والمجملية في قوله (مأرب أخرى) وانه يستفاد منها أيضاً الرحمة بالبهائم والاحسان إليها والسعى في إزالة ضررها .

ومنها : أن قوله جل ذكره (أقم الصلاة لذكري) أى إن ذكر العبد لربه هو الذى خلق له العبد وبه صلاحه وفلاحه ، وأن المقصود من اقامة الصلاة اقامة هذا المقصود الأعظم ، ولولا الصلاة التى تتكرر على المؤمنين فى اليوم والليلة لتذكروهم بالله ، ويتعاهدون فيها قراءة القرآن والثناء على الله ودعائه والخضوع له الذى هو روح الذكر ، لولا هذه النعمة لكانوا من الغافلين . وكما أن الذكر هو الذى خلق الخلق لأجله ، والعبادات كلها ذكر لله ، فكذلك الذكر يعين العبد على القيام بالطاعات وإن شقت ، ويهون عليه الوقوف بين يدي الجبارة ، ويخفف عليه الدعوة إلى الله ، قال تعالى فى هذه القصة (كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً) وقال (اذهب أنت وأخوك بآبائى ولا تنيا فى ذكري) . ومنها : إحسان موسى ﷺ على أخيه هارون إذ طلب من ربه أن يكون نبياً معه ، وطلب المعاونة على الخير والمساعدة عليه إذ قال (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) الآيات .

ومنها : أن الفصاحة والبيان مما يعين على التعليم وعلى إقامة الدعوة ، لهذا طلب موسى من ربه أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وأن اللثغة لأعيب فيها إذا حصل الفهم للكلام ، ومن كمال أدب موسى مع ربه أنه لم يسأل زوال اللثغة كلها ؛ بل سأل إزالة ما يحصل به المقصود .

ومنها : أن الذي ينبغي في مخاطبة الملوك والرؤساء ودعوتهم وموعظتهم : الرفق والكلام اللين الذي يحصل به الأفهام بلا تشويش ولا غلظة ، وهذا يحتاج إليه في كل مقام ، لكن هذا أهم المواضع . وذلك لأنه الذي يحصل به الغرض المقصود ، وهو قوله (لعله يتذكر أو يخشى)

ومنها : أن من كان في طاعة الله مستعيناً بالله واثقاً بوعده الله راجياً ثواب الله ، فإن الله معه ومن كان الله معه فلا خوف عليه ، لقوله تعالى (لا تخاف) ثم علله بقوله (إنني معكم أسمع وأرى) وقال تعالى (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)

ومنها : أن أسباب العذاب منحصرة في هذين الوصفين (إنا قد أوحى اليك أن العذاب على من كذب وتولى) أى كذب خبر الله وخبر رسله ، وتولى عن طاعة الله وطاعة رسله ، ونظيرها قوله تعالى (لا يصلها إلا الأشقي الذي كذب وتولى)

ومنها : أن قوله تعالى (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) استوعب الله بها الأسباب التي تدرك بها مغفرة الله

أحدها : التوبة ، وهو الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً الى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً ، وهى توجب ما قبلها من الذنوب صفارها وكبارها .

الثانى : الايمان ، وهو الاقرار والتصديق الجازم العام بكل ما أخبر الله به ورسوله ، الموجب لأعمال القلوب ، ثم تتبعها أعمال الجوارح ، ولا ريب أن ما فى القلب من الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر الذى لا ريب فيه ، أصل الطاعات وأكبرها وأساسها ، ولا ريب أنه بحسب قوته يدفع السيئات ، يدفع ما لم يقع فيمنع صاحبه من وقوعه ، ويدفع ما وقع بالإتيان بما ينفيه وعدم اصرار القلب عليه ، فإن المؤمن ما فى قلبه من الايمان ونوره لا يجامع المعاصى .

والثالث : العمل الصالح ، وهذا شامل لأعمال القلوب وأعمال الجوارح وأقوال اللسان والحسنات يذهبن السيئات .

الرابع : الاستمرار على الايمان والهداية والازدياد منها ، فمن كمل هذه الأسباب الاربعة فليشعر بمغفرة الله العامة الشاملة . ولهذا أتى فيه بوصف المبالغة فقال (وإني لغفار) ولنكتف من قصة موسى بهذه الفوائد ، مع أن فيها فوائد كثيرة للتأملين .

(قصة يونس صلى الله عليه وسلم)

وهو من أنبياء بنى اسرائيل العظام ، بعثه الله إلى أهل نينوى - من أرض الموصل - فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه ، ثم كرر عليهم الدعوة فأبوا ، فوعدهم العذاب وخرج من بين أظهرهم ولم يصبر الصبر الذي ينبغي ، ولا كنهه أبى مغاضباً لهم . وهم لما ذهب نبيهم ألقى في قلوبهم التوبة إلى الله والانابة بعد ما شاهدوا مقدمات العذاب ، فكشف الله عنهم العذاب . والظاهر أن يونس علم انكشاف العذاب عنهم واستمر في ذهابه عنهم ، ولهذا قال تعالى (إذ ذهب مغاضباً) وقال تعالى (إذ أبى إلى الفلك المشحون) فركب في سفينة موقرة من الركاب والأحمال ، فلما توسطوا البحر شارفت على الفرق ودار الامر بين أن يبقوا جميعاً فيها فيهلكوا وبين أن يلقوا بعضهم بمقدار ما تخف السفينة فيسلم الباقيون ، فاختلفوا الاخير لعدهم وتوفيقهم فاقتنعوا فأصابته القرعة اناساً منهم ، ومنهم يونس عليه السلام ، وهذا قل (فكان من المدحضين) أى المغلوبين في القرعة ، فألقوا فابتلعه حوت في البحر ابتلاءً ، لم يكسر له عظماً ولم يمضغ له لحماً فلما صار في جوف الحوت ، فى تلك الظلمات نادى (لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) فأمر الله الحوت أن تلقيه بالعراء ، فخرج من بطنها كالفرخ المبعوط من البيضة فى غاية الضعف والوهن ، فلطف الله به وأثبت عليه شجرة من يقطين فأظلمته بظلمها الظليل حتى قوى واشتد ، وأمره الله أن يرجع إلى قومه فيعلمهم ويدعوهم ، فاستجاب له أهل بلده مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فتمنعهم الى حين .

وفى هذه القصة عتاب الله ليونس (ص) اللطيف وحبسه فى بطن الحوت ليكون كفارة وآية عظيمة وكرامة ليونس . ومن نعمة الله عليه أنه استجاب له هذا العدد الكثير من قومه فكثرة أتباع الانبياء من جملة فضائلهم .

وفى استعمال القرعة عند الاشتباه فى مسائل الاستحقاق والحرمان إذا لم يكن مرجح سواها ، وفى عمل أهل السفينة هذا العمل دليل على القاعدة المشهورة أنه يرتكب أخف الضررين لدفع الضرر الذى هو أكبر منه ، ولا ريب أن القاء بعضهم وإن كان فيه ضرر ، فعطب الجميع إذا لم يلق أحد أعظم .

وفىها أن العبد إذا كانت له مقدمة صالحة مع ربه وقد تعرف إلى ربه فى حال الرخاء ، أن الله يشكر له ذلك ويعرفه فى حال الشدة بكشفها بالكلية أو تخفيفها ، ولهذا قال فى قصة يونس (فلو لا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون)

وفىها ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم : دعوة أخى ذى النون ما دعى بها مكروب إلا فرج الله عنه (لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين)

وفيها أن الإيمان ينجي من الأهوال والشدائد لقوله تعالى (وكذلك ننجي المؤمنين) أي إذا وقعوا فيها لا يمانهم .

❦ قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ❦

وكانا من أعظم أنبياء بني اسرائيل ، وجمع الله لهما بين النبوة والحكمة والملك العظيم القوى أما داود عليه السلام فكان من جملة العسكر الذين مع طالوت الذي اختاره أحد أنبياء بني اسرائيل ملكا على بني اسرائيل لشجاعته وقوته وعلمه في السياسة ونظام الجيوش ، كما قال تعالى (وزاده بسطة في العلم والجسم) ولما برزوا لجالوت وجنوده وصبر عسكر طالوت واستعانوا بالله تفوق داود عليه السلام على الجميع بالشجاعة العظيمة ، فباشر بنفسه قتل ملكهم جالوت وحصلت الهزيمة على بقيتهم ونصر الله بني اسرائيل ذلك النصر . نبأ الله داود وأعطاه الحكمة والملك القوى ، كما قال تعالى (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وكان قد أعطاه الله قوة في العبادة وبصيرة ، ووصفه الله بهذين الوصفين اللذين بهما كمال العبد فقال (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الایدى إنه أواب) فوصفه بالقوة العظيمة على ما أمر الله ، وبأنه أواب لكمال معرفته بالله ، وكان الله تعالى قد سخر له الطير والجمال تسبح الله معه ، وكان قد أعطى من حسن الصوت ورخامته ما لم يؤت أحد من العالمين . وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوما ويفطر يوما ، وكان إذا لاقى العدو رأى الخلق من شجاعته ما يعجب الناظرين ، وقد ألان الله له الحديد وعلمه صنعة الدروع الواقية في الحروب ، وهو أول من صنع الدروع السردية ذوات الخلق التي يحصل فيها الوقاية وهي خفيفة الحمل ، وقد عاتبه الله بسبب ذنب أذنبه بأن أرسل إليه ملكين بصورة خصمين ، فدخلا عليه وهو في محرابه ففرع منهم ، لأنهم دخلا عليه في وقت لا يدخل عليه فيه أحد وتسوروا المحراب وقالوا (لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) ثم قص عليه أحدهما القصة فقال : إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة - والمراد بها المرأة - ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها ، وعزنى في الخطاب ، أى صار خطابه أقوى منى فغلبنى . فقال داود عليه السلام : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وعلم داود أنه هو المراد بهذه القضية فانتبه لذلك (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأتاب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) فمحي الله عنه الذنب وعاد بعد التوبة أحسن مما كان قبل ذلك ، حصل له القرب العظيم من ربه وحسن العاقبة ، وقال الله له (يا داود إنا جعلناك

خليفه في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية .
 وأما سليمان بن داود عليه السلام فان الله أعطاه النبوة وورث أباه علمه ونبوته وملكه ، وزاده الله ملكاً عظيماً لم يحصل لأحد قبله ولا بعده ، سخر الله له الريح تجري بأمره وتدبيره برحاء ، أى بسهولة حيث أراد ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وسخر الله له الجن والشياطين والعفاريت يعملون له الأعمال الفخمة بحسب إرادته ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب ، وقصور راسيات ، وتذهب وتجيء بأمره إلى حيث أراد ، وسخر له من الجنود من الانس والجن والطير ، فهم يوزعون بتدبير عجيب ونظام غريب ، وعلمه الله منطق الطير وسائر الحيوانات ، فكانت تخاطبه ويفهم ما تكلم به ، ولهذا خاطب الهدد وراجع تلك المراجعة ، وسمع النملة إذ نادى في قومها (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فخذرت وأمرت بما بقي من الخطر واعتذرت عن سليمان وجنوده ، فلماذا ابتسم سليمان ضاحكاً من قولها وقال (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)

ومن حسن نظامه وحزمه أنه يتفقد الجنود بنفسه ، مع أنه قد جعل لهم مدبرين ، فان قوله (فهم يوزعون) دليل على ذلك ، حتى أنه تفقد الطيور لينظر هل هي لازمة لمراكزها فقال (مالى لا أرى الهدد أم كان من الغائبين) وليس الأمر كما يقول كثير من المفسرين أنه طلبه لينظر له الأرض وبعد مائها ، فان هذا خلاف اللفظ القرآنى ، فان الله لم يقل وطلب الهدد ، بل قال : (وتفقد الطير) ثم توعده لمخالفته لأمره ، ولما كان ملكه مبنياً على كمال العدل استثنى فقال (لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنياً يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم ، وجئتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدمهم عن السبيل فهم لا يهتمون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) ففي هذه المدة القصيرة جاء الهدد بهذه المعلومات العظيمة . أخبر سليمان عن ملك الديار اليمنية وأن ملكتهم امرأة ، وأنها قد أعطيت من كل شئ يحتاج الملك اليه وأن لها عرشاً عظيماً ، ومع فهمه للملكهم وقوتهم فهم أيضاً دينهم ، وأنهم مشركون يعبدون الشمس ، وأنكر الهدد عليهم غاية الانكار ، هذا من الأدلة على أن الحيوانات تعرف ربها وتسبحه وتوحده ، وتحب المؤمنين وتدين ربها بذلك ، وتبغض الكفار المكذبين ، وتدين الله بذلك ، فقال له سليمان (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب

بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) فذهب بالكتاب فألقاه في حجر المرأة ملكة سبأ ، فلما قرأته عظمتة جداً وأرعبت منه فزعاً وجعت رؤساء قومها فقالت (يا أيها الملأ إني ألقى إليّ كتاب كريم ؛ إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلو عليّ واءتوني مسلمين) كتاب مختصر جامع فيه المقصود كله ، قالت (يا أيها الملأ أفتوني في أمرى) أى أشيروا عليّ ، وهذا من حزمها وحسن تدبيرها استعملت المشورة مع رؤساء قومها (ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) قالوا ، نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) أى مستعدون لما تقولين حرباً وسلاماً ، وأرجعنا الأمر إلى ما نختارين ، فمن عزمها وحزمها وبعد نظرها عدلت عن الحرب واختارت السلم ، لكن بصورة حازمة ، فقالت سأهدى له هدية حاضرة (فناظرة بـم يرجع المرسلون) إن كان من الملوك الذين ليس لهم هم إلا الدنيا ، فربما أن الهدية كسرت سوره وفلت عزيمته وسالمناسله من بعيد ، وإن كان غير ذلك بان لنا الأمر . فأرسلت أناساً ذوى عقل وحزم وخبرة ومعرفة ، فلما جاءوا لسليمان بالهدية قال (أتمدنون بـم ؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) فبين لهم أنه لا غرض له في الدنيا ، وإنما غرضه إقامة الدين ودخول عباد الله في الاسلام ، ثم وصى الرسل واستغنى بذلك عن الكتاب ، وقال للرسول (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وعلم سليمان أنهم سينقادون ويسلمون ، فقال لأهل مجلسه (أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين) وسليمان بالديار الشامية وبينه وبينها مسافة شهرين ذهاباً وشهرين إياباً : ثم قال الذى عنده علم من الكتاب (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) يحتمل أنه كما قال أكثر المفسرين إنه رجل صالح قد أعطى الاسم الأعظم الذى إذا دعى الله به أجاب ، وأنه دعى الله فأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه ، ويحتمل أن الذى عنده علم من الكتاب عنده من الأسباب التى سخرها الله لسليمان ؛ أسباب يحصل بها تقرب المواصلات وجلب الأشياء البعيدة .

وعلى كل فهذا ملك عظيم بلحظة يحضر له هذا العرش العظيم ، ولهذا لما رآه مستقراً عنده حمد الله على ذلك ، قال (هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غنى كريم) فقال لمن حوله « نكروا لها عرشها » أى غيروا فيه وزيدوا وأنقصوا « ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون » وكان قد مدح له رأيها وعقلها فأحب أن يقف على الحقيقة ، فلما جاءت قيل (أهكذا عرشك ؟) وعرض عليها ، فلما رآته عرفته ورأت مافيها من التكبير فأنكرته فقالت مرددة للاحتمالين (كأنه هو) لم تقل هو لما فيه من التغيير ،

ولم تنف أنه هو لما كانت تعرفه ، فأنت بلفظ صالح للأمرين ، فعرف سليمان رجاحة عقلها .
(وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) إن كان هذا من كلام سليمان فعنناه اننا أخبرنا عن
عقلها وعلمنا بذلك قبل هذه الحالة فتحققناها لما سبرناها ، وإن كان الكلام كلام ملكة سبأ ،
فإنها تقول (وأوتينا العلم) عن ملك سليمان ، وأنه ملك نبوة ورساله وقوة هائلة من قبل هذه الحالة
(وكنا مسلمين) مدعين لما قاله سليمان بعدما تحققنا أمره ، فكأنه قيل مع عقلها هذا ورأيها
السديد فكيف كانت تعبد غير الله ، وكيف اجتمع العقل وعبادة من لا ينفع ولا يضر ، وإنما
يضر من عبده .

حاصل الجواب قوله (وصدها ما كانت تعبد من دون الله أنها كانت من قوم كافرين) أى
العقائد التى نشأت عليها ، والمذاهب الفاسدة تسيطر على عقل العاقل وتذهب لب اللبيب حتى
يقيض له من الأسباب المباركة ما يبين له الحق ويمنّ عليه باتباعه .

وكان له صرح من قوارير أجرى تحته الأنهار ، فكان من ينظر اليه يظنه ماء يجرى ، لأن
الزجاج شفاف ، فلما قيل لها ادخلى الصرح . فرأته لجة وكشفت عن ساقها . قال إنه صرح حمرد
من قوارير . قالت (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) فأسلمت لله واتبعتها
قومها ، فيقال إن سليمان تزوجها ، فالله أعلم

ولما كانت الشياطين زمن سليمان قد سخرهم الله له وبلغه أنهم باجتماعهم بالانس يعلمونهم
السحر فجمعهم وتوعدهم وأخذ كتبهم ودفعها ، فلما توفى سليمان جاءت الشياطين للناس وقالوا :
إن ملك سليمان مشيد على السحر ، واستخرجوا الكتب التى دفنها ، وأشاعوا من إغوائهم للناس
أنها مأخوذة من سليمان ، وأن سليمان ساحر ، وروج ذلك طائفة من اليهود ، فبرأ الله سليمان من
هذا الأمر وبين أن السحر من العلوم الضارة فقال تعالى (واتبوا ما تتلوا الشياطين على ملك
سليمان وما كفر سليمان) أى بتعليم السحر والرضاء به (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس
السحر) الآية ، وهذا من عظمة القرآن أنه يأمر الخلق بالإيمان بجميع الرسل ويذكرهم بأوصافهم
الجميلة وينزههم عما قاله الناس فيهم مما ينافى رسالتهم

وكان الله قد ابتلى سليمان وألقى على كرسیه جسداً ، أى شيطاناً عتاباً له على بعض المنفوات
وارجاعاً له إلى كمال الخضوع لربه ، ولهذا قال تعالى (ثم أناب) إلى الله بقلبه ولسانه وبدنه
بظااهره وباطنه فقال (رب اغفرلى وهب لى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب)
فاستجاب الله له دعاءه وأعطاه ما طلبه من مغفرة الذنب ، وأعطاه جميع ما طلب كما تقدم
وقد أثنى الله على داود وسليمان بالعلم والحكم ، وخص سليمان بزيادة الفهم فقال (وداود

وسليمان إذ يحكم في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم) أى دخلت الغنم بسقاتهم ليلاً فرغت زرعه وأشجاره ، فحكم داود بحسب اجتهاده وتقديره أن الغنم تكون لصاحب الحرث ، لظنه أن الذى تلف من الحرث يقابل قيمتها ، ثم رفعت القضية إلى سليمان ، فحكم على صاحب الغنم أن يقوم على حرث صاحب البستان بالسقى والتعمير والملاحظة حتى يعود كما كان قبل نقشها ، ويدفع له صاحب الغنم الغنم ينتفع بدها ولبنها ودهنها وصوفها ومغلاها مقابلة ما كان يصدد أن ينتفع بجرته في هذه المدة ، فكان هذا الحكم من سليمان أقرب إلى الصواب وأنفع لصاحب الغنم والحرث ، فلماذا قال تعالى (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما)

(ونظير هذه القضية حكم داود وسليمان بين المرأتين اللتين خرجتا ومع كل واحدة ابنها فعدا الذئب على ابن الكبرى ، فادعت الكبرى على الصغرى أن الذئب أكل ابن الصغرى ، وأن الذى سلم من الذئب ابنها ، والمرأة الصغرى أنكرت وقالت : بل الذئب أكل ابن الكبرى فتحاكما إلى داود فلم ير لكل منهما بينة إلا قولها . رأى أن يحكم به للكبرى اجتهاداً ورحمة بها لكبرها ، وأن الصغرى في مستقبل عمرها سيرزقها الله ولداً بدله ، ثم رفعت القضية إلى سليمان فقال لهما : ائتوني بالسكين أشقه بينكما . فرضيت الكبرى . وقالت الصغرى لما دار الأمر بين تلفة أو بقاءه بيد غيرها وهو أهون الأمرين عليها : هو ابنها يا نبي الله ، فعلم سليمان بهذا الأمر الطبيعى الذى هو من أقوى البينات أنه ليس ابناً للكبرى لكونها رضيت بشقه واتلافه ، وأن يدعوها على الأخرى إنما حملها عليه الحسد ، وأنه ابن الصغرى حين فرغت من شقه إلى التنازل عن دعواها ، فتضى به سليمان للصغرى ، ولا ريب أن استخراج الصواب في القضايا بالبينات والقرائن وشواهد الأحوال ، من الفهم الذى ينحصر الله به من يشاء .

فصل في بعض الفوائد المستنبطة من قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها أن الله يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله لتثبيت قواده وتطمين نفسه ، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وانايتهم ما يشوق إلى منافستهم والتقرب إلى الله الذى تنافسوا في قربه والصبر على أذى قومه ، ولهذا ذكر تعالى في أول سورة (ص) ما قاله المكذبون لمحمد ﷺ وما آذوه به ، قال بعدها (اضرب على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيدى انه أواب) الآيات ومنها أن قوله (ذا الأيدى انه أواب) مدح عظيم من الله لهذين الوصفين ، قوة القلب والبدن على طاعة الله والانابة باطناً وظاهراً إلى الله المستلزمة لمحبهه وكمال معرفته ، وأن هذين الوصفين للأنبياء على وجه الكمال ولمن بعدهم من أتباعهم على حسب اتباعهم ، والثناء من الله عليهما يقتضى الحث

على جميع الأسباب التي تعين على القوة والابانة ؛ وأن يكون العبد رجاعاً إلى الله في حال السراء والضراء ، وفي جميع الأحوال .

ومنها ما أكرم الله به نبيه داود (ص) من حسن الصوت ورخامته ، وأن الجبال والطيور تسبح الله معه وتجاوبه ، وذلك من زيادة درجاته ومقاماته العالية

ومنها أن من أكرم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع ويعرف الحكم بين الناس في المقالات والمذاهب وفي الخصومات والمشاحنات . كما قال تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)

ومنها كمال اعتناء المولى بأنبيائه وأصفياه عندما يقع منهم بعض الهفوات بفثنة إياهم وابتلائهم بما يزول عنهم المحذور حتى يعودوا أكل من أحوالهم الأولى كما جرى لداود وسليمان

ومنها أن الأنبياء معصومون فيما يبلغون عن الله . فإن الله أمر بطاعتهم مطلقاً ، ومقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك ؛ وقد يجري منهم أحياناً بعض مقتضيات الطبيعة من المخالفات ، ولكن الله تعالى يبادرهم بلطفه ويتداركهم بالتوبة والابانة

ومنها أن داود في أغلب أوقاته ملازماً محرابه لخدمة ربه وله وقت يجلس فيه لحوائج الخلق فقد أتم القيام بحق الله وحق عباده

ومنها أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الناس ، خصوصاً الحكام والرؤساء ، فإن الخصمين لما دخلوا على داود في حالة غير معتادة ، ومن غير الباب فزع منهم ، واشتد عليه ذلك ؛ ورآه غير لائق بالحال

ومنها أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله مالا ينبغي .

ومنها كمال حلم داود ، فانه ما غضب منها حين جاءه بغير استئذان ولا انتهرها ولا وبخها ومنها جواز قول المظلوم لمن ظلمه أنت ظلمتني أو يا ظالم ونحوه أو يا باغي لقوله (بغي بعضنا على بعض)

ومنها أن المنصوح ولو كان كبير القدر كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشتم ، بل يبادر بقبول النصيحة والشكر لمن نصحه ، ويحمد الله إذ قيض له النصيحة على يد الناصح ، فإن داود لم يشتم من قول الخصمين (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) بل حكم بالحق الصرف

ومنها أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب والمعاملين وكثرة التعلقات الدنيوية المالية موجبة للتعادي ، وبني بعضهم على بعض ، وأنه لا يرد عن هذا الداء العضال إلا التقوى والصبر بالآيمان والعمل الصالح ، وأن هذا من أقل شيء في الناس

ومنها إكرام الله لداود وسليمان بالزلفى عنده وحسن المسأب ، فلا يتوهم أحد أن ماجرى منهما منقص لدرجتهما عند الله ، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين ، أنه إذا غفر لهم وازال عنهم أثر الذنوب ، أزال الآثار المترتبة عليها حتى ما يقع في قلوب الخلق ، وما ذلك على فضل الكريم بعزير ومنها أن مرتبة الحكم بين الناس مرتبة دينية توليها رسل الله وخواص خلقه ، وأن على القائم بها الحكم بالحق وأن لا يتبع الهوى ، فالحكم بالحق يقتضى العلم بالأمور الشرعية والعلم بصورة القضية المحكوم بها ، وكيفية ادخالها في الأحكام الشرعية الكلية ، فالجاهل بواحد من هذه الأمور لا يحل له الاقدام على الحكم بين الناس

ومنها أن سليمان يعدن فضائل داود ومن من الله عليه قال تعالى (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب) وهذا أعظم تزكية وأكبر فخر لسليمان ومنها كثرة خير الله وفضله على عبيده الأخيار بمن عليهم بالاخلاق الجميلة والأعمال الصالحة ، ثم يثنى عليهم بها ويرتب عليها من الثواب أنواعاً متنوعة ، وهو المتفضل بالأسباب ومسبباتها ومنها أن سليمان قدم محبة الله على محبة كل شىء ، وأتلف الخليل التي ألهته عن ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب

ومنها أن كل ما أشغل العبد عن طاعة مولاه فهو مشغوم فليفارقه وليقبل على ما هو أنفع له ومنها أنه يؤخذ من أن سليمان لما أتلف الخليل الجياد - التي ألهته عن طاعة الله - سخر الله له الريح والشياطين : أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه

ومنها أن تسخير الشياطين وتسخير الريح على الوجه الذى سخرت لسليمان لا تكون لأحد بعد سليمان ، ولهذا لما رأى النبي (ص) أن يأخذ الشيطان الذى تفلت عليه ليلة فيربطه في سارية المسجد قال : ذكرت دعوة أخى سليمان فتركته

ومنها أن سليمان كان ملكاً نبياً مباح له أن يفعل ما يريد ، ولكنه لجماله لا يريد إلا الخير والعدل ، وهذا بخلاف النبي العبد ، فانه لا يكون له ارادة مستقلة ، بل ارادته تابعة لمراد الله منه فلا يفعل ولا يترك إلا تبعاً للأمر ، كحال نبيينا محمد ﷺ

ومنها أن الله أعطى سليمان ملكاً عظيماً ، فيه أمور لا يمكن أن تدرك بالأسباب ، وإنما هي من تقدير الملك الوهاب ، مثل تسخير الريح تبعاً لأمره ، وتسخير الشياطين ، وكون جنوده من الانس والجن والطير ، وأن الطيور كانت تخدمه الخدمة العظيمة يرسلها للجهات توصل منه الاخبار وتأتيه بأخبار تلك الجهات ، وقد أعطاها الله من الفهم ومعرفة أحوال الآدميين ما قص الله علينا نبأه في هذه القصة ، وكذلك الذى عنده علم من الكتاب حين استعد أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد اليه طرفه ، وهذه آيات أنبياء ، فلماذا مهما بلغ الخلق في الترقى في علوم الطبيعة

والمهارة بالاختراعات فلن يصلوا إلى ما أعطيه سليمان
ومنها أنه ينبغي للملوك والرؤساء أن يسألوا عن أحوال الأمراء والرؤساء والرجال المتميزين
ولا يكتفوا بمجرد السؤال ، بل يختبرونهم ويختبرون معرفتهم للأمور وعقولهم ؛ كما فعل سليمان
مع ملكة سبأ امتحنها ليستدل على كمال عقلها ورجاحته ولم يكتف بالسؤال ، وهذا فيه للملوك فوائد
عظيمة ، وهم محتاجون لهذا أشد الحاجة ، ونمام الملك أن يدير دفته الرجال الكاملون

﴿ قصة أيوب عليه الصلاة والسلام ﴾

كان أيوب من أنبياء بني إسرائيل ومن الأصفهاء الكرام ، وقد ذكره الله في كتابه وأثنى
عليه بالخصال الحميدة عموماً ، وبالصبر على البلاء خصوصاً ، فان الله تعالى ابتلاه بولده وأهله وماله ،
ثم بجسده ، فأصابه من البلاء ما لم يصب أحداً من الخلق ، فصبر لأمر الله ولم يزل منيباً لله .
ولما تطاول به المرض العظيم ، ونسيه الصاحب والحميم نادى ربه (أنى مسنى الضر وأنت
أرحم الراحمين) فقيّل له (اركض برجلك) فركض ، فنبعت بركضته عين ماء بارد ، فقيّل له :
اشرب منها واغتسل : ففعل ذلك فأذهب الله ما في بطنه وظاهره من البلاء ، ثم أعاد الله له أهله
وماله وأعطاه من النعم والخيرات شيئاً كثيراً ؛ وصار بهذا الصبر قدوة للصابرين وسولة للمبتلين
وعبرة للمعتبرين ، وكان في مرضه قد وجد على زوجته المرأة البارة الرحيمة في بعض شيء ، فحلف
أن يجلدّها مائة جلدة فخفف الله عنه وعنها ، وقيل له : خذ بيدك ضفتاً حزمة حشيش أو علف أو
شماريح أو نحوها فيها مائة عود فاخرب به ولا تحنث ، أى ينحل بذلك يمينك . وفي هذا دليل على أن
كفارة اليمين لم تشرع لأحد قبل شريعتنا ؛ وأن اليمين عندهم بمنزلة النذر الذى لا بد من وفاه ،
وفي هذا دليل على أن من لا يحتمل إقامة الحد عليه لضعفه ونحوه أنه يقام عليه مسمى ذلك ، لأن
الغرض التنكيل ليس الاتلاف والاهلاك

﴿ قصة الخضر مع موسى ، ومحلها في أثناء قصص موسى ﴾

وذلك أن موسى عليه السلام قام ذات يوم في بني إسرائيل مقاماً عظيماً ، علمهم فيه علوماً جمة ،
وأعجب الناس بكمال علمه ، فقال له قائل : يا نبي الله ، هل يوجد أو هل تعلم في الأرض أحداً أعلم
منك ؟ فقال لا ، بناءً على ما يعرفه ، وترغيباً لهم في الأخذ عنه ، فأخبره الله أن له عبداً في مجمع
البحرين عنده علوم ليست عند موسى وإلهامات خارجة عن الطور المعهود ، فاشتاق موسى إلى
لقيه رغبة في الازدياد من العلم ، فطلب من الله أن يأذن له في ذلك وأخبره بموضعه وتزودا حوتا
وقبل له : إذا فقدت الحوت فهو في ذلك المكان ، فذهب فوجده ، وكان ما قص الله من نبأهما في

سورة الكهف (وإذ قال موسى لفتهاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا - إلى قوله -
ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا)

وفي هذه القصة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير ننبه على بعضه بدون الله
ونذكر المهم منه

فمنها ما اشتملت عليه القصة من فضيلة العلم وشرفه ومشروعية الرحلة في طلبه ؛ وأنه أهم
الأمور ، فإن موسى رحل في طلبه مسافة طويلة ولقى في ذلك النصب ، وترك الإقامة عند بني
اسرائيل لتعليمهم وارشادهم ، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك

ومنها البداءة في العلم بالأمر فالأمر ؛ فإن زيادة علم الانسان بنفسه أهم من ترك ذلك اشتغالا بالتعليم
فقط ، بل يتعلم ليعلم

ومنها جواز أخذ الخادم في السفر والحضر لكفاية المؤن وطلب الراحة ، كما فعل موسى
صلى الله عليه وسلم

ومنها أن المسافر يطلب العلم أو الجهاد أو غيرها من أسفار الطاعة ، بل وكذلك غيرها إذا
اقتضت المصلحة الاخبار بمطلبه وأين مراده ، فانه أكمل من كتبه ؛ فان في اظهاره من فوائد
الاستعداد له عدته ، واثبات الأمر على بصيرة والاعلان بالترغيب لهذه العبادة الفاضلة لقول موسى
(لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) ولما غزا ﷺ تبوك أخبر الناس بمقصده ، مع
أنه كان في الغالب إذا أراد غزوة ورى بنيرها تبعاً للمصلحة في الحاليتين

ومنها إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان ، وكذلك النقص ، لقول فتى موسى (وما أنسانيه
إلا الشيطان أن أذكره)

ومنها جواز اخبار الانسان عما يجده مما هو مقتضى الطبيعة البشرية من نصب أو جوع أو عطش
إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقاً لقوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا)

ومنها أنه ينبغي أن يتخذ الانسان خادماً ذكياً فطناً كيساً ليتم له أمره الذي يريد
ومنها استحباب اطعام الانسان خادمه من مأكله وأكلهما جميعاً لأن ظاهر قوله (آتينا غداءنا)
أنه للجميع . ومنها أن المونة تنزل على العبد بحسب قيامه بالأمر الشرعى ، وأن ما وافق رضا
الله يعان عليه مالا يعان على غيره لقوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) والاشارة إلى السفر
المجاوز لمجمع البحرين ، وأما الأول فلم يشك منه مع طوله

ومنها أن ذلك العبد الذى لقيامه ليس نبياً ، بل هو عبد صالح عالم ما هم ، لأن الله ذكره بالعلم
واله ودية الخاصة والأوصاف الجميلة ، ولم يذكر معها أنه نبي أو رسول ، وأما قوله في آخر القصة
(وما فعلته عن أمرى) فانه لا يدل على انه نبي ، وإنما يدل على الإلهام والتحديث ، وذلك يكون

لغير الأنبياء ، قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) (وأوحينا إلى أم موسى) الآية .

ومنها أن العلم الذى يعلمه الله للعبد نوعان : علم مكتسب يدركه العبد بطلبه وجده ، وعلم إلهي لذنى يهبه الله لمن يمن عليه من عباده ، لقوله (وعلمناه من لدنا علما) فالخضر أعطى من هذا النوع الحظ الأوفر . ومنها التأدب مع المعلم والتأطف فى خطابه لقول موسى (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً) فأخرج الكلام بصورة الملاحظة والمشاورة ، وأنت هل تأذن لى أم لا ؟ وإظهار حاجته إلى المعلم وأنه يتعلم منه ومشتاق إلى ما عنده ، بخلاف حال أهل الكبر والجفاء الذين لا يظهرون حاجتهم إلى علم المعلم ، فلا أنفع للتعلم من إظهار الحاجة إلى علم المعلم وشكره على تعليمه ومنها تواضع الفاضل للتعلم من هو دونه ، فإن موسى بلا ريب أفضل من الخضر

ومنها تعلم العالم الفاضل للعلم الذى لم يتم فيه من مهر فيه ، وإن كان دونه فى العلم درجات ، فإن موسى من أكابر أولى العزم من الرسل الذين منحهم الله وأعطاهم من العلوم ما لم يعط سواهم ، ولكن فى هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده ، فلماذا اشتد حرصه على التعلم منه ومنها أنه يتعين إضافة العلم وغيره من الفضائل إلى فضل الله ورحمته ، والاعتراف بذلك وشكر الله عليه لقوله (تعلمن مما علمت رشداً)

ومنها أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير ؛ وكل علم فيه رشد وهداية لطريق الخير وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة إلى ذلك ، فإنه من العلم الذافع ، وما سوى ذلك فاما أن يكون ضاراً أو ليس فيه فائدة لقوله (أن تعلمن مما علمت رشداً)

ومنها أن من ليس له صبر على صحبة العالم ، ولا قوة على الثبات على طريقة التعلم ، فإنه ضار ليس بأهل لتلقى العلم ، فمن لا صبر له لا يدرك العلم ، ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى إليه ، فإن الخضر اعتذر عن موسى أنه لا يصبر على علمه الخاص ومنها أن مما يعين على الصبر على الأشياء إحاطة العبد بها علماً وبمنافعها وثمراتها ونوائجها ، فمن لا يدرك هذه الأمور يصعب عليه الصبر لقوله (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً) ومنها الأمر بالتأني والتثبت وعدم المبادرة على الحكم على الأشياء حتى يعرف ما يبراد منه وما هو المقصود .

ومنها مشروعية تعليق إيجاد الأمور المستقبلية على مشيئة الله لقوله (ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً) وإن العزم على الشيء ليس بمنزلة فعله ، فموسى عزم على الصبر ولكن لم يفعل .

ومنها أن المعلم إذا رأى من المصلحة أن يخبر المتعلم أن يترك الابتداء فى السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذى يوقفه عليها ، فإن المصلحة تتبع ، كما إذا كان فهمه قاصراً أو نهاه

عن التدقيق الشديد أو الأسئلة التي لا تتعلق بالموضوع . ومنها جواز ركوب البحر إذا لم يكن في ذلك خطر .

ومنها أن الناسي غير مؤاخذ ، لافي حق الله ولا في حق العباد ، إلا إن ترتب على ذلك اتلاف مال ، ففيه الضمان حتى على الناسي لقوله (لا تؤاخذني بما نسيت)

ومنها أنه ينبغي العبد أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها وما سمحت به أنفسهم ولا ينبغي له أن يكافئهم مالا يطيقون أو يشق عليهم أو يرهقهم ، فإن هذا داع إلى النفور ، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر .

ومنها أن الأمور تجري على ظاهرها ، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في كل شيء ، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرق السفينة وقتل الغلام بحسب أحكامها العامة ، ولم يلتفت إلى الأصل الذي أصلاه هو والخضر أنه لا يسأله ولا يعترض عليه حتى يكون الخضر هو المبتدئ . ومنها فيه تنبيه على القاعدة المشهورة الكبيرة ، وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الخفيف ، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما ، فإن قتل الغلام الصغير شر ، ولكن بقاءه حتى يبلغ ويقنن أبويه عن دينهما أعظم شراً ، وبقاء الغلام من دون قتل وإن كان في ظاهر الحال أنه خير ، فالخير ببقاء أبويه على دينهما خير من ذلك ، فلذلك قتله الخضر بعدما ألهمه الله الحقيقة ، فكان إلهامه الباطني بمنزلة البيّنات الظاهرة في حق غيره

ومنها القاعدة الكبيرة الأخرى ، وهي أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة ودفع المضرة يجوز بلا إذن ، حتى ولو ترتب عليه اتلاف بعض المال ، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غضب الملك الظالم ، وتحت هاتين القاعدتين من الفوائد مالا حصر له . ومنها أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر ، لقوله (يعملون في البحر) ومنها أن القتل من أكبر الذنوب .

ومنها أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته وما يتعلق به ، لقوله (وكان أبوهما صالحا) وأن خدمة الصالحين وعمل مصالحهم أفضل من غيرهم لأنه علل أفعاله بالجدار بقوله (وكان أبوهما صالحا)

ومنها استعمال الأدب مع الله حتى في الألفاظ ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله (فأردت أن أعييها) وأما الخير فأضافه إلى الله لقوله (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) وقال إبراهيم (وإذا مرضت فهو يشفينى) وقالت الجن (وإنا لا ندرى أشرأزريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) مع أن الكل بقضاء الله وقدره

ومنها أنه ينبغي للعبد أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ويترك صحبته ، بل ينبغي له

بذلك حتى لا يجد للصبر محلاً ، وأن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المجدورة مدعاة وسبب لبقاء الصحة وتأكد كدها ، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المراقبة

﴿ قصة ذو القرنين ﴾

وكان ذو القرنين ملكاً صالحاً ، وقد أعطاه الله من القوة أسباب الملك والفتوح ما لم يكن لغيره ، فذكر الله من حسن سيرته ورحمته وقوة ملكه وتوسعه في المشرق والمغرب ما يحصل به المقصود التام من سيرته ومعرفة أحواله ، ولهذا قال (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) أى من بعض أخباره ، ومن المعلوم أن ما قصه الله في كتابه هو أحسن وأنفع ما يقص على العباد ، فأخبر أنه أعطاه من كل شيء سبباً يحصل به قوة الملك وعلم السياسة وحسن التدبير والسلاح الخاضع للأمم وكثرة الجنود وتسهيل المواصلات وجميع ما يحتاجه ، ومع ذلك فقد عمل بالأسباب التي أعطيتها ، فما كل أحد يعطى الأسباب النافعة ، ولا كل من أعطيتها يتبناها ويعمل بها . .

أما ذو القرنين فإنه تم له الأمر أن أعطى سبباً فأتبع سبباً ، ففزا بجيوشه الجرارة أدنى أفريقيا وأقصاها حتى بلغ البحر المحيط الغربي فوصل إلى محل إذا غربت الشمس (وجدها تغرب في دين حمئة) أى رآها في رؤية العين كأنها تغرب في البحر ، والبحر لونه أسود كالحمئة ، والقصد أنه وصل إلى حيث منتهى الخلف والحافر من بلاد أفريقيا ، ووجد في ذلك المحل وتلك الاقطار قوماً منهم المسلم والكافر ، والبر والفاجر ، بدليل قوله (قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً) إما أن القائل له نبي من أنبياء الله أو أحد العلماء ، أو ان المعنى أنه بسبب قدرته كان مخيراً قادراً ، وإلا فمن المعلوم أن الشرع لا يسوى بين الأمرين المتفاوتين في الاحسان والاساءة فقال (أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى) وستقول له من أمرنا يسرا) وهذا يدل على عدله وأنه ملك صالح وعلى حسن تدبيره (ثم أتبع سبباً) أى ثم عمل بالأسباب التي أوتيتها بعدما أخضع أهل المغرب رجع يفتح الأرض قطراً قطراً حتى وصل إلى مطلع الشمس من بلاد الصين وشواطئ البحر المحيط الهادى . وهذا منتهى ما وصل اليه الفاتحون (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) أى لاستر لهم عن الشمس ، لاثياب ينسجونها ويابسونها ، ولا بيوت يبنونها ويأوون اليها ، أى وجد هؤلاء القوم الذين في أقصى المشرق بهذه الصفة والوحشية بمنزلة الوحوش التي تأوى إلى الفياض والغيران والاسراب منقطعين عن الناس ، وكانوا في ذلك الوقت على هذه الحالة التي وصف الله ، والمقصود من هذا أنه وصل إلى ما لم يصل اليه أحد ، ثم كر راجعاً وأتبع سبباً ، يمكنه من مناهج البلاد

ونخضع العباد قاصداً نحو الشمال (حتى إذا بلغ بين السدين) أى بلغ محلاً متوسطاً بين السدين الموجودين منذ خلق الله الأرض ، وهما سلاسل جبال عظيمة شاهقة متواصلة من تلك الفجوة ، وهى الريع إلى البحار الشرقية والغربية وهى فى بلاد الترك ، على هذا اتفق المفسرون والمؤرخون وإنما اختلفوا : هل هى سلاسل جبال الققاس أم دون ذلك فى أذربيجان ، أم سلاسل جبال التاي أم الجبال المتصلة بالسور الصينى فى بلاد منغوليا وهو الظاهر ، وعلى الاتوال كلها ، فوجد عند تلك الفجوة التى بين سلاسل هذه الجبال قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ، من بعد لغتهم وثقل فهمهم للغات الأمم (فقالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) وهم أمم عظيمة من نسل يافث بن نوح من العناصر التركية وغيرهم ، كما هو مذكور مفصل من أحوالهم ومشروع من صفاتهم (فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ . قال ما مكنى فيه ربي) من القوة والاسباب والاقتدار خير فأعينوني بقوة : أى إن هذا بناء عظيم يحتاج فى الاعانة عليه إلى مساعدة قوية فى الأبدان (أجعل بينكم وبينهم ردماً) ولم يقل سداً ، لأن الذى بنى فقط هو تلك الثنية والريع الواقع بين السدين الطبيعيين ، أى بين سلاسل تلك الجبال ، فذهبهم على كيفية آلائه وبنياته فقال (آتوني زبر الحديد) أى اجعلوا لى جميع قطع الحديد الموجودة من صغار وكبار ولا تدعوا من الموجود شيئاً ، اركوه بين السدين ، ففعلوا ذلك حتى كان الحديد تلوأعظيمة موازنة للجبال ، ولهذا قال (حتى إذا ساوى بين الصدفين) أى الجباين المكتنفين لذلك الردم قال (انفخوا حتى إذا جعله نارا قل : آتوني أفرغ عليه قطراً) أى أمر بالنحاس فأذيب بالنيران وجعل يسميل بين قطع الحديد فالتحم بعضها ببعض وصارت جبلاً هائلاً متصلاً بالسدين ، فحصل بذلك المقصود من عيث يأجوج ومأجوج ، ولهذا قال (فما اسطاعوا أن يظهروه) أى يصعدوا ذلك الردم (وما استطاعوا له نقباً . قال هذا رحمة من ربي) أى ربي الذى وقنى لهذا العمل الجليل والاثر الجليل ، فرحمكم إذ منكم من ضرر يأجوج ومأجوج بهذا السبب الذى لا قدرة لكم عليه (فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء) أى هذا العمل والخيولة بينكم وبين يأجوج ومأجوج مؤقت إلى أجل ، فاذا جاء ذلك الاجل قدر الله للخلق من أسباب القوة والقدرة والصناعات والاختراعات الهائلة ما يمكن يأجوج ومأجوج من وطء بلادكم أيها المجاورون ، بل ومن وطء مشارق الأرض ومغاربها وأقطارها ، كما قال تعالى (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) أى من كل مكان مرتفع ، سواء مثل هذه السدود والبحار وجو السماء (ينسلون) أى يسرعون فيها غير مكترئين ولا حاجز يحجزهم ، فلفظة من كل حدب يشمل جميع المواضع والأقطار : سهاها وصعبها ، منخفضها ومرتفعها ؛ وإنما نص الله على المرتفعات لأن السهول والاماكن المنخفضة من باب أولى وأحرى ، وقد ورد فى صفاتهم أحاديث فى الصحيحين تؤيد مافى هذه الآيات من صفاتهم

وأورد أصحاب السبر والتواريخ الأول من صفاتهم وهيتائهم آثاراً لا خطام لها ولا زمام شوشة أفكار أكثر الناس ومنعتهم من الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية وتطبيقها على الواقع ، فعليك بلزوم ما دل عليه الكتاب والسنة ودع ما سوى ذلك ، فان فيه الهدى والرشد والنور .

﴿ قصة عيسى وأمه ، وزكريا ويحيى عليهم السلام ﴾

كانت زوجة عمران - وهو من أكابر بنى اسرائيل ورؤسائهم وذوى المقامات العالية عندهم - نذرت حين ظهر حملها أن تحرر ما فى بطنها لبيت المقدس ، يكون خادماً لبيت الله معداً لعبادة الله ظناً أن الذى فى بطنها ذكرٌ ، فلما وضعها قالت معتذرة إلى الله شاكية اليه الحال (رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأُنثى) أى ان الذكر الذى له القوة والقدرة على ما يراد منه من القيام بخدمة بيت المقدس (وإني سميتها مريم ، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) فحفظتها بالله من عدوها هى وذريتها . وكان هذا أول حفظ وحماية من الله لها ولهذا استجاب الله لها فى هذه الدنيا (فتقبلها ربها بقبول حسن) أى أن الله جبر أمها وصار لها عند ربها من القبول أعظم مما للذكور (وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا) فجعل الله لها بين التربية الجسدية والتربية الروحية ، حيث قدر أن يكون كافلها أعظم أنبياء بنى اسرائيل فى ذلك الوقت فان أمها لما جاءت بها لأهل بيت المقدس تنازعوا أيهم يكفلها لأنها ابنة رئيسهم ، فاتفرعوا وألقوا أقلامهم ، فأصاب القرعة زكريا رحمة به وبمريم ، فكفلها أحسن كفالة ، وأعانها على كفالتها بكرامة عظيمة منه ، فكانت قد نشأت نشأة الصالحات الصديقات ، وعكفت على عبادة ربها ولزمت محرابها ، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا ، قال أنى لك هذا ؟ فانه ليس لها كافل غير زكريا . قالت (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) أى رزقه تعالى يأتى بطرق معهودة وبطرق أخرى ، والله على كل شىء قدير

فحين رأى هذه الحالة ذكره ذلك لطف ربه ورجاه إلى رحمته ، فدعا الله أن يهب له ولداً يرثه علمه ونبوته ويقوم بعده فى بنى اسرائيل ، فى تعليمهم وهدايتهم (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله) أى بعيسى عليه السلام . (وسيداً) أى عظيماً عند الله وعند الخلق لما جبله الله عليه من الأخلاق الحميدة والعلوم العظيمة ، والأعمال الصالحة (وحصوراً) أى ممنوعاً بعصمة الله وحفظه ووقايته من موقعة المعاصى ، فوصفه الله بالتوفيق لجميع الخيرات والحماية من السيئات والزلات وهذا غاية كمال العبد ، فتعجب زكريا من ذلك وقال (أنى يكون لى ولد وامرأتى عاقر وقد بلغت من الكبر عتياً . قال كذلك قال ربك هو على هين .

وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) وهذا أعجب من حملها وهي عاقر على كبرك ، فمن فرحة ورغبته العظيمة في طمأنينة قلبه قال (رب اجعل لى آية) تدلنى على وجود الولد ، قال (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً) (واذكر ربك بالعيشى والابكار) وهذه آية كبرى ، يمنع من الكلام الذى هو أسهل ما يقدر عليه الانسان ، وهو سوى فلا يقدر أن يكلم أحداً إلا بالاشارة ومع ذلك لسانه منطلق بذكر الله وتسميحه وتحميده ، فينشد تمت له البشارة من الله وعرف أنه لا بد أن يكون ، فولدت زوجته يحيى ، وأنشأه الله نشأة عجيبة ، فتعلم وهو صغير ، ومهر فى العلم وهو صغير ، ولهذا قال (وآتيناه الحكم صبياً) حتى قيل إن الله أيضاً نبأه وهو صغير ، وكما أعطاه الله العلم العظيم فقد منّ عليه بأكمل الصفات فقال (وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) ومضمون هذا وصفه بالقيام بحقوق الله وحقوق والديه وحقوق الخلق ، وإن الله سيحسن له العواقب فى أحواله كلها وأما مريم فانها انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . متجردة لعبادة ربها (فالتخذت من دونهم حجاباً) لئلا يشغلها أحد عما هى بصدده ، فأرسل الله لها الروح الأمين جبريل فى صورة بشر سوى من أكل الرجال وأجلهم فظنت أنه يريد بها سوء ، فقالت (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) فتوسلت بالله فى حفظها وحمايتها ، وذكرته وجوب التقوى على كل مسلم يخشى الله فكان هذا الورع العظيم منها فى هذه الحالة التى يخشى منها الوقوع فى الفتنه ، ورفع الله بذلك مقامها ونعتها بالعفة الكاملة ، وأنها أحصنت فرجها ، فقال لها جبريل (إنما أنا رسول ربك لا هب لك غلاماً زكياً . قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً . قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا) به وبك وبالناس (وكان امرأ مقضياً) فلا تعجى مما قدره وقضاه (فحملته فانتبذت) أى ابتعدت به عن الناس (مكاناً قصياً) خشية الاتهام والأذية منهم (فأجاءها) أى ألجأها المحاض أى الطلق (إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) لما تعرفه مما هى متعرضة له من الناس ، وأنهم لا يصدقونها ، ولم تدر ما الله صانع لها (فتادأها) الملك (من تحتها) وكانت فى مكان مرتفع ، وأويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين (أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً) أى نهراً جارياً (وهزى اليك بغدع النخلة) من دون أن تحوجك إلى صعود (تساقط عليك رطباً جنياً) أى طرياً ناضجاً (فسكى) من الرطب (واشربى) من السرى (وقرى عيناً) بولادة عيسى ، وليذهب روعك وخوفك (فلما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمن صوماً) أى سكوتا ، وكان مهوداً عندهم أنهم يتعبدون بالصمت فى جميع النهار ، ولهذا فسر به بقوله (فلن أكلم اليوم إنسياً) فطمأن قلبها وزال عنها ما كانت تجد .

ثم لما تعالت من نفاسها وأصلحت شأنها وقويت بعد الولادة (أنت به قومها تحمله) علناً غير هائبة ولا مبالية ، فلما رآه قومها وقد علموا أنه لا زوج لها جزموا أنه من وجه آخر فقالوا (يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً . فأشارت إليه) كما أمرت بذلك . فقالوا منكبين عليها مقالاتها لهم (كيف نكلم من كان في المهد صبياً) فقال وهو في تلك الحال له أيام يسيرة بعد ولادته (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) فكان هذا الكلام منه في هذه الحال من آيات الله وأدلة رسالته ، وأنه عبد الله لا كما يزعمه النصارى ، وحصل لأمه البراءة العظيمة مما يظن بها من سوء ، لأنها لو أنت بألف شاهد على البراءة وهي على هذه الحال ما صدقها الناس ، ولكن هذا الكلام من عيسى وهو في المهد جلى كل ريب يقع في القلوب ، فاقسم الناس فيه بعد هذا ثلاثة أقسام :

قسم آمنوا به وصدقوه في كلامه هذا وفي الانقياد له بعد النبوة ، وهم المؤمنون حقيقة وقسم غلوا فيه وهم النصارى ، فقالوا فيه المقالات المعروفة ونزلوه منزلة الرب ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً

وقسم كفروا به وجفوه - وهم اليهود - ورموا أمه بما برأها الله منه ، ولهذا قال تعالى (فاختلف الأحزاب من بدم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم)

ولما أرسله الله إلى بني اسرائيل ، آمن به من آمن ، وكفر به من كفر ، وجعل يريهم الآيات والمعجائب ، فكان يصور الطين فيمنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى باذن الله وينبئهم عن كثير مما يأكلون ويدخرون في بيوتهم ، ومع ذلك فتكالبت عليه أعداءه وأرادوا قتله ، فألقى الله شبهه على واحد من الحواريين أصحابه أو من غيرهم ، ورفع الله اليه وطهره من قتلهم ، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وباءوا بالاثم العظيم والجرم الجسيم ، وصدقهم النصارى أنهم قتلوه وصلبوه ، ونزعه الله من هذه الحالة فقال (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وقد قام عيسى في بني اسرائيل فبشر وأعلن برسالة محمد ﷺ ، فلما جاءهم محمد الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم قالوا (هذا سحر مبين) كما قالوا في عيسى (فقال الذين كفروا منهم إن هذا الا سحر مبين)

وفي هذه القصة من الفوائد أمور :

منها أن النذر ما زال مشروعا في الأمم السابقة ، والنبي ﷺ قال فيه كلمة بجامعة للصحيح

النافذ منه وللباطل فقال « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه »
ومنها أن من نعمة الله على العبد أن يكون في كفالة الصالحين الأخيار ، فإن المربي والكافل
له الأثر الأعظم في حياة المكفول وأخلاقه وآدابه ، ولهذا أمر الله المربين بالتربية الطيبة المشتبهة
على الحث على الأخلاق الجميلة ، والترهيب من مساوىء الأخلاق

ومنها إثبات كرامات الأولياء فان الله كرم مريم بأمور: يسر لها أن تكون في كفالة زكريا
بعدما حصل الخصام في شأنها ، وأكرمها بأن كان رزقها يأتيها من الله بلا سبب ، وأكرمها بوجود
عيسى وولادتها إياه وبخطاب الملك لها بما يطمئن قلبها ، ثم بكلامه في المهد ، فهذه الأخيرة جمعت
كرامة ولي ومعجزة نبي

ومنها الآيات العظيمة التي أجراها الله على يد عيسى بن مريم : من إحياء الموتى ، وإبرام
الأكف والأبرص ونحوها

ومنها ما أكرم الله به عيسى بأن جعل له حواريين وأنصاراً في حياته وبعد مماته في بث
دعوته والنصر لدينه ، ولذلك كثرت تابعوه ، ولكن منهم المستقيم ، وهو الذي آمن به حقيقة ،
وآمن بجميع الرسل ، ومنهم المنحرف ، وهم الذين غلوا فيه ، وهم جمهور من يدعى أنه من أتباعه
وهم أبعد الناس عنه

ومنها أن أثنى على مريم بالسكامل بالصدقية ، وأنها صدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت
من القانتين ، وهذا وصف لها بالعلم الراسخ والعبادة الدائمة والخشوع لله ، وأنه اصطفاها وفضلها
على نساء العالمين .

ومنها أن إخبار النبي ﷺ بهذه القصة وغيرها مفصلة مطابقة للحقيقة من أدلة رسالته وآيات
نبوته لقوله (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) الآية

﴿ قصة يوسف ويعقوب عليهما الصلاة والسلام ﴾

هذه القصة من أعجب القصص ، وذكرها الله جميعاً ، وأفردها بسورة مطولة مفصلة تفصيلاً
واضحاً ، قراءتها تغني عن التفسير ، فان الله ساق فيها حالة يوسف من ابتداء أمره إلى آخره ، وما
بين ذلك من التقلبات واختلاف الأحوال ، وقال فيها (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين)
فلنذكر ما يستنبط من هذه القصة العظيمة من الفوائد ، فنقول مستعينين بالله

ذكر ما فيها من الفوائد :

منها أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها ، لما فيها من أنواع التقلبات من حال إلى
حال ، ومن محنة إلى محنة ، ومن محنة إلى منحة ومنة ، ومن ذل إلى عز ، ومن أمن إلى خوف

وبالعكس ، ومن ملك إلى رق وبالعكس ، ومن فرقة وشتات إلى انضمام وائتلاف وبالعكس ، ومن سرور إلى حزن وبالعكس ، ومن رخاء إلى جرب وبالعكس ، ومن ضيق إلى سعة وبالعكس ، ومن وصول إلى عواقب حميدة ، فتبارك من قصها وجعلها عبرة لأولى الألباب

ومنها ما فيها من أصول تعبير الرؤيا المناسبة ، وأن علم التعبير علم مهم يعطيه الله من يشاء من عباده ، وأن أغلب ما تبني عليه المناسبات وضرب الأمثال والمشابهة في الصفات .

فوجه مناسبة رؤيا يوسف : أنه رأى الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر ساجدين له ، أن هذه زينة للسماء ، وفيها مذاقها ، فكذلك الأنبياء والعلماء والأصفياء زينة الأرض ، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بالانوار السماوية ، ولأن أباه وأمه أصل ، واخوته فرع عنها ، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجرمًا من الفرع ، فلذلك كانت الشمس أمه أو أبوه ، والقمر الآخر منها ، والكواكب اخوته ، ومن المناسب أن الساجد محترم لمن سجد له ، والمسجود له معظم محترم ، فدل ذلك على أن يوسف يصير معظماً محترماً لأبويه واخوته ، ولا يتم هذا إلا بمقدمات تقتضى الوصول إلى هذا : من علوم وأعمال واجتباء من الله ، فهذا قال (وكذلك يحببك ربك) الآية

ومنها المناسبة في رؤيا الفتيين ، حيث عبر رؤيا من رأى أنه يعصر خمرًا ، أن الذي يعمل هذا العمل يكون في العادة خادماً لذيره ، وأيضاً العصر مقصود لذيره والخدام تابع لذيره ويؤول أيضاً إلى السقى الذي هو خدمته ، فلذلك أوّله بما يؤول إليه ، وأما تعبيره لرؤيا من رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، بأنه يقتل ويصلب مدة حتى تأكل الطير من مخ رأسه الذي هو يحمل .

وعبر رؤيا الملك بالبقرات والسنبيلات : بأنها السنين الخصبة والمجدبة ، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أمور الرعية ومصلحتها ، وبصلاحه تفسد ، وبفساده تنفسد ، فهذه نسبه إذ رأى هو الرؤيا ، وكذلك السنون بخصبها وجربها تنظم أمور المماش أو تختل ، والبقرة هي آلة حرث الأرض واستخراج مغلاها ، والمغل هو الزرع ، فرأى السبب والمسبب ، فرويته السبع السنان من البقر ثم السبع العجاف ، والسبع السنبيلات الخضر ، ثم السبع اليابسات . أى لا بد أن تتقدم السبع السنين الخصبات ، ثم تلوها المجدبات ، وتأكل ما حمل فيها من غلال ، ولا تبقى إلا شيئاً يحصونه عنها وإلا فهي بصدد أكلها كلها .

فإن قيل من أين أخذ قوله « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون » فإن بعض المفسرين قال هذه زيادة من يوسف في التعبير بوحى أوحى إليه فالجواب : ليس الأمر كذلك وإنما أخذها من رؤيا الملك ، فإن السنين المجدبة سبع فقط ،

فذل على أنه سيأتي بعدها عام عظيم الخصب كثير البركات يزيل الجذب العظيم الحاصل من السنين
المجدبة الذي لا يزيلها عام خصب عادى ، بل لا بد فيه من خصب خلاف العادة ، وهذا واضح وهو
من مفهوم العدد .

ومنها ما فيها من الأدلة والبراهين على نبوة نبينا محمد ﷺ حيث قص عليه هذه القصة المفصلة
المبسوطة الموافقة للواقع التي أتت بالمقصود كله ، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس احداً
كما هو معلوم لقومه ، وهو بنفسه أُمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولهذا قال (ذلك من أنباء الغيب
نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون)

ومنها أنه ينبغي للعبد البعد عن أسباب الشر وكنان ما تخشى مضرته ، لقول يعقوب ليوسف
(لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً)

ومنها ذكر الانسان بما يسكره على وجه الصدق والنصيحة له أو لنيره لقوله (فيكيدوا لك
كيداً) ومنها أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به ويتصل من أهل بيته وأقاربه وأصحابه
فانه لا بد أن يصلهم ويشملهم منها جانب لقوله (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) أى بما يحصل
لك ، ولهذا لما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين والسرور وزوال
المسكروه وحصول المحبوب ما ذكر الله في آخر القصة

ومنها أن النعم الكبيرة الدينية والدنيوية لا بد أن يتقدمها أسباب ووسائل اليها ، لأن الله
حكيم وله سنن لا تتغير ، قضى بأن المطالب العالية لا تنال إلا بالاسباب النافعة ، خصوصاً العلوم
النافعة وما يتفرع عنها من الاخلاق والأعمال ، فهذا عرف يعقوب أن وصول يوسف إلى تلك
الحالة التي يخضع له فيها أبوه وأمه وإخوته ، مقام عظيم ومرتبة عالية ، وأنه لا بد أن ييسر الله
ليوسف من الوسائل ما يوصله اليها ، ولهذا قال (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل
الأحاديث ويتم نعمته عليك) الآية

ومنها أن العدل مطلوب في جميع الأمور الصغار والكبار ، في معاملة السلطان لرعيته ، ومعاملة
الوالدين للأولاد ، والقيام بحقوق الزوجات وغير ذلك في المحبة والايثار ونحوها ، وأن القيام
بالعدل في ذلك تستقيم الأمور صغارها وكبارها به ويحصل للعبد ما أحب ، وفي الاخلال بذلك
تفسد الاحوال ويحصل للعبد المكروه من حيث لا يشعر ، لهذا لما قدم يعقوب عليه السلام يوسف
في المحبة ، وجعل وجهه له جرى منهم على أيهم وأخيهم من المكروه ما جرى

ومنها الحذر من شؤم الذنوب ، فكم من ذنب واحد استتبع ذنوباً كثيرة وتسلسل الشر
المؤسس على الذنب الأول ، وانظر إلى جرم إخوة يوسف ، فانهم لما أرادوا التفريق بينه وبين
أبيه الذي هو من أعظم الجرائم ، احتالوا على ذلك بعدة حيل ، وكذبوا عدة مرات ، وزوروا

على أيهم في القميص والدم الذي فيه ، وفي صفة حالهم حين أتوا عشاء يكون ، ولا بد أن الكلام في هذه القضية تسلسل وتشعب ، بل ربما أنه اتصل إلى الاجتماع بيوسف ، وكلما بحث في هذا الموضوع فهو بحث كذب وزور مع استمرار أثر المصيبة على يعقوب ، بل وعلى يوسف ، فليحذر العبد من الذنوب ، خصوصاً الذنوب المتسلسلة ، وضد ذلك بعض الطاعات تكون طاعة واحدة ، ولكن يتسلسل نفعها وبركتها حتى تستقيم طاعات من الفاعل وغيره ، وهذا من أعظم آثار بركة الله للعبد في عمله وعمله .

ومنها أن العبرة للعبد في حال كمال النهاية ، لا بنقص البداية ، فإن أولاد يعقوب عليهم السلام جبرى منهم ما جرى في أول الأمر من الجرائم المتنوعة ، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح ، والاعتراف التام ، والعفو التام عنهم من يوسف ومن أبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة ، وإذا سمح العبد بحق الله أولى بذلك وهو خير الراحمين الغافرين ، ولهذا في أصح الأقوال إن الله جعلهم أنبياء لمحو ما سبق منهم وكأنه ما كان ولقوله (وما أنزل على إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط) وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم ، وما يؤيد هذا أن في رؤيا يوسف أنهم هم الكواكب التي فيها النور والهداية ، وهي من صفات الأنبياء ، فإن لم يكونوا أنبياء فانهم علماء عباد

ومنها ما من الله به على يوسف من العلم والحلم والخلق الكاملة والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به ، وتم ذلك بأن أخبرهم أنه لا يثرب عليهم بعد هذا العفو ، ثم بره العظيم بأبيه وأمه وإحسانه على إخوته ، وإحسانه على عموم الخلق ، كما هو هيمن في سيرته وقصته .

ومنها أن بعض الشر أهون من بعض ، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما فإن إخوة يوسف لما قالوا (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً) الآية . وقال قائل منهم (لا تقتلوه وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) كان قوله أحسن منهم وأخف ، وبسببه خف عن إخوته الاتم الأكبر ، وهو من جملة الاسباب التي قدر الله ليوسف في وصوله إلى الغاية التي يريد

ومنها أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الاموال ولم يعلم المعاملون أنه على غير وجه الشرع فلا إثم على من باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال ، فإن يوسف باعه إخوته بيعاً محرماً عليهم ، واشترته السيارة بناءً على أنه عبد لإخوة يوسف البائعين ، ثم ذهبوا به إلى مصر فباعوه بها ، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً وممناه الله سيدياً ، وكان عندهم بمنزلة الرقيق المكرم ، وسمى الله شراء السيارة وشراءه في مصر معاملة لما ذكرنا

ومنها الحذر من الخلوة بالنساء الاجنبيات ، وخصوصاً اللاتي يحشى منهن الفتنة ، والحذر أيضاً

من المحبة التي يحمي ضررها ، فان امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحيدها بيوسف وحبها الشديد له الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة ، ثم كذبت عليه فسجن ذلك السجن الطويل .
ومنها أن الهم الذي هم به يوسف ثم تركه الله وبرهان الايمان الذي وضعه الله في قلبه مما يرقيه إلى الله زلفى ، لأن الهم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء ، وهو طبيعة طبع عليها الآدمي ، فإذا حصل الهم بالمعصية ولم يكن عند العبد ما يقاوم ذلك من الايمان والخوف من الله وقع الذنب ، وإن كان العبد مؤمناً كامل الايمان ، فان الهم الطبيعي إذا قابله ذلك الايمان الصحيح القوي منعه من ترتب أثره ، ولو كان الداعي قوياً ، ولهذا كان يوسف من أعلى هذا النوع ، قال تعالى (لولا أن رأى برهان ربه) بدليل قوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) لاستخلاص الله إياه وقوة إيمانه وإخلاصه ، خلصه الله من الوقوع في الذنب ، فكان بمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ومن أعلى السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فقد كرمهم الله منهم رجلاً دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله . فهمها لما كان لا معارض له استمرت في مراودته ، وهمه عارض عرض ثم زال في الحال ببرهان ربه .

ومنها أن من دخل الايمان قلبه ثم استنار بمعرفة ربه ونور الايمان به ، وكان مخلصاً لله في كل أحواله ؛ فان الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وإخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء آلايمانه وإخلاصه ، لأن الله علل صرف هذه الامور عن يوسف بقوله (إنه من عبادنا المخلصين) على قراءة من قرأها بكسر اللام ؛ ومن قرأها بالفتح ، فان من أخلاصه الله واجتباها فلا بد أن يكون مخلصاً ، فالمعنيان متلازمان

ومنها أنه ينبغي للعبد إذا ابتلى بالوقوع في محل فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر ويهرب غاية ما يمكنه ليتمكن من التخلص من ذلك الشر ، كما فر يوسف هارباً للباب ، وهي تمسك بثوبه وهو مدبر عنها .

ومنها أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه في الدعاوى ، وذلك أن الشاهد الذي شهد ؛ أى حكم على يوسف وعلى المرأة اعتبار القرينة فقال (إن كان قميصه قد من قبل) إلى آخر القضية ، وصار حكمه هذا موافقاً للصواب ، ومن القرائن وجود الصواع في رحل الاخ ؛ وقد اعتبر هذا وهذا .

ومنها ما عليه يوسف من الجمال الباهر ظاهراً وباطناً ، فان جماله الظاهر أوجب لامرأة العزيز ما أوجب من الحب المفرط والمراودة المستمرة ؛ ولما لاهما النساء دعتن واعتدت لهن متكىناً وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت : اخرج عليهن ، فلما رأيته أكبرنه وقطن أيديهن وقطن حاش الله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم)

وأما جماله الباطن فهو العفة العظيمة منه ، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع سوء منه ، ولكن الإيمان ونوره والاخلاص وقوته لا يشذ عنهما فضيلة ولا تجامعهما رذيلة ، وقد بينت امرأة العزيز للنساء من يوسف الأمرين ؛ فانه لما أرتهن جماله الظاهر الذي اعترفن أن هذا الجمال لا يوجد في آدميين قالت (ولقد ارادته عن نفسه فاستعصم) وقالت بعد ذلك (الآن حصص الحق أنا وادته عن نفسه وإنه لمن الصادقين)

ومنها أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية ، فهكذا إذا ابتلى العبد بأحد أمرين ، إما أن يلجأ إلى فعل المعصية ، وإما أن يعاقب عقوبة دنيوية ، فعليه أن يختار العقوبة الدنيوية التي فيها الثواب من هذا الوجه . بعدة أمور : ثواب من جهة اختياره الإيمان على السلامة من العقوبة الدنيوية ، وثواب من جهة أن هذا من باب التخليص للمؤمن والتصفية ؛ وهو يدخل في الجهاد في سبيل الله ، وثواب من جهة المصيبة التي نالته والآلم الذي أصابه ، فسبحان من ينعم ببلائه ويلطف بأصفيائه ، وهذا أيضاً عنوان الإيمان وعلامة السعادة

ومنها أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى ربه ويحمى بحماه عند وجود أسباب المعصية ويبتعد عن حوله وقوته لقول يوسف (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلین) فالعبد الموفق يستعين به على دفع المعاصي وأسبابها ، كما يستعين به عند فعل الطاعات والخيرات والله كافي المتوكلين .

ومنها أن العلم والعقل الصحيح يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر ، وأن الجاهل يدعو صاحبه إلى ضد ذلك لقوله (أصب إليهن وأكن من الجاهلین) أي الجاهلین بالأمور الدينية ، والجاهلین بالحقائق النافعة والحقائق الضارة

ومنها أنه كما على العبد عبودية لربه في حال رخائه ، فعليه عبودية في حال الشدة ، فيوسف عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله ، فلما دخل السجن استمر على ذلك ودعا من يتصل به من أهل السجن ودعا الفقيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك ، ومن كمال رأيه وحكمته انه لما رأى فيهما قابلية لدعوته حين احتاجا اليه في تعبير رؤياهما وقالاه (إنا نراك من المحسنين) رأى ذلك فرصة ، فدعاها إلى الله قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أقرب إلى حصول المطلوب ، وبين لها أن الذي أوصله إلى هذه الحال التي رآها فيها من السكالم والعلم وإيمانه وتوحيده وتركه لمة المشركين ، وهذا دعاء لها بالحال ثم دعاها بالمقال ؛ وبرهن لها على حسن التوحيد ووجوبه ، وعلى قبح الشرك وتحريمه

ومنها أنه يبدأ بالأمم فالأمم ، وأنه إذا سئل المفتي وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج اليه قبل أن يجيب سؤاله ، فإن هذا علامة على فصح العلم وفطنته

وحسن إرشاده وتعليمه ، فان يوسف لما سأله الفتيان عن رؤياهما ، وكانت حاجتهما إلى التوحيد والایمان أعظم من كل شيء قدمها

ومنها أن من وقع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه بفعله أو الاخبار بحاله ، وأن هذا لا يكون نقصاً ولا شكوى إلى الخلق ممنوعة ، فان هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض فيها ، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج منهما (اذكرني عند ربك)

ومنها أنه يتعين على المعلم والداعي إلى الله استعمال الاخلاص التام في تعليمه ودعوته ، وأن لا يجعل ذلك وسيلة إلى معاوضة في مال أو جاه أو نفع ، وأن لا يمتنع من التعليم إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم ، فان يوسف قد وصى أحد الفتیین أن يذكره عند ربه فلم يذكره ونسى فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا ، فلم ينفعه يوسف ولا ونحه ، بل ولا قال له لم لم تذكرني عند ربك وأجابه جواباً تاماً من جميع الوجوه .

ومنها أنه ينبغي للمسئول إذا أجاب السؤال أن يدل السائل على الامر الذي ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه ، فان هذا من كمال نصحه وجزالة رأيه وحسن إرشاده ، فان يوسف لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك ، بل دلهم مع ذلك وأشار عليهم بما يصنعونه في تلك السنين المخصبات من الاكثار من الزراعة وحسن الحفظ والحباية ومنها أنه لا يلام العبد على دفع التهمة عن نفسه بل ذلك مطلوب كما امتنع يوسف من الخروج من السجن حتى تتبين لهم برائته مع النسوة اللاتي قطنن أيديهن .

ومنها فضيلة العلم ، علم الشرع والاحكام ، وعلم تعبير الرؤيا ، وعلم التدبير والتربية ، وعلم السياسة ، فان يوسف عليه السلام انما حصلت له الرفعة في الدنيا والآخرة بسبب علمه المتنوع ، وفيه أن علم التعبير داخل في الفتوى ، فلا يحل لأحد أن يجزم بالتعبير قبل أن يعرف ذلك ، كما ليس له أن يفتي في الاحكام بغير علم ، لأن الله سماها فتوى في هذه السورة

ومنها أنه لا بأس أن يخبر الانسان عما في نفسه من الصفات الكاملة من العلم وغيره إذا كان في ذلك مصلحة وسلم من الكذب ولم يقصد به الرياء لقول يوسف (اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم) وكذلك لا تدم الولاية إذا كان المتولى لها يقوم بما يقدر عليه من اقامة الشرع واىصال الحقوق إلى أهلها ، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أهلاً وأعظم كفاءة من غيره ، وإنما المذموم إذا لم يكن فيه كفاءة أو كان موجوداً من هو أمثل منه أو مثله ، أو لم يرد بها اقامة أمر الله بل أراد الترامس والمأكلة المالية

ومنها أن الله واسع الجود والكرم ، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة ، وإن خير الآخرة له سديان لاثالث لهما : الإيمان بكل ما أوجب الله الإيمان به ، والتقوى التي هي امتثال الأوامر الشرعية واجتناب النواهي ، وأن خير الآخرة خير من ثواب الدنيا وملسكها ، وأنه ينبغي للعبد أن يدعو نفسه ويشوقها لثواب الله ولا يدعها تحزن إذا رأت لذات الدنيا ورياساتها وهي عاجزة عنها ، بل يسليها بالثواب الآخروي ليخفف عليها عدم حصول الدنيا ، لقول يوسف (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون)

ومنها أن جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم لا بأس به ، بل ذلك مطلوب ، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات للاستعداد به للسنين المجذبات ، وقد حصل به الخير الكثير .

ومنها حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الديار المصرية من أقصاها إلى أقصاها ، فنهض بالزراعة حتى كثرت الفلال جداً ، فصار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها عندما فقدوا ما عندهم ، لعلمهم بوفورها في مصر ، ومن عدله وتدبيره وخوفه أن يتلاعب بها التجار أنه لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل ، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله ، وظاهر حاله هذا أنه لا يعطى أهل البلد إلا أقل من ذلك بكثير لحضورهم عنده .

ومنها مشروعية الضيافة ، وأنها من سنن المرسلين وأكرام الضيف ، لقول يوسف (الأترون انى أوف السكيل وأنا خير المنزلين)

ومنها أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم ، فإن يعقوب قال لأولاده (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) وقال (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) فهم في الأخيرة ، وإن لم يكونوا مفرطين ؛ فقد جرى منهم ما أوجب لايهم أن يقول ما قال من غير لوم عليه

ومنها أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المسكاره أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع ، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء الله وقدره ، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر ؛ لقول يعقوب (يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) الآية

ومنها جواز استعمال الخيل والمسكائد التي يتوصل بها إلى الحقوق ، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها بما يحمد عليه العبد ، وأما الخيل التي يراد بها إسقاط واجب أو فعل محرم فانها محرمة غير نافذة .

ومنها أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يجب بيانه له أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب ، كما فعل يوسف حين ألقى الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها

منه موثقاً أنه سارق ، وليس في ذلك تصريح بسرقة ، وإنما استعمل المعارض ، ومثل هذا قوله (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل من سرق متاعنا

ومنها أنه لا يجوز أن يشهد إلا بما علمه وتحققه برؤية أو سماع لقولهم (وما شهدنا إلا بما علمنا) وقوله (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون)

ومنها هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام ، إذ قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة ويحزنه أشد الحزن ، فم له هذه الفرقة مدة طويلة ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه ، وابتضت عيناه من الحزن فهو كظيم ، ثم ازداد به الأمر حين اتصل فراق الابن الثاني بالأول ، وهو في ذلك صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله ، وقد وعد من نفسه الصبر الجميل ، ولا ريب أنه وفي بما وعد به ، ولا ينافي ذلك قوله (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) فإن الشكوى إلى الله لا تنافي للصبر ، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين ، ولا ريب أن الله رفعه بهذه المحنة درجات عالية ومقامات سامية ، لا تقال إلا بمثل هذه الأمور .

ومنها أن الفرج مع اشتداد الكرب ، فانه لما تراكت الشدائد المتنوعة وضاق العبد ذرعاً بحملها ، فرجها فارج الهم كاشف الهم مجيب دعوة المضطرين ، وهذه عوائده الجميلة ، خصوصاً لأولياؤه وأصفياؤه ، ليكون لذلك الوقع الأكبر والحل الأعظم ، وليجعل من المعرفة بالله والمحبة له ما يوازن ويرجح بما جرى على العبد بلا نسبة

ومنها جواز اخبار العبد بما يجحد وما هو فيه من مرض أو فقر أو غيرهما على غير وجه التسخيط لقول يعقوب (يا أسفى على يوسف) وقول إخوة يوسف (مسنا وأهلسنا الضر) وأقرهم يوسف

ومنها فضيلة التقوى والصبر ، وإن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر ، وإن عاقبة أهلها أحسن العواقب لقوله (قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)

ومنها أنه ينبغي للعبد إذا أنعم عليه بنعمة بعد ضدها أن يتذكر الحالة السابقة ليعظم وقع هذه النعمة الحاضرة ويكثر شكره لله تعالى ، ولهذا قال يوسف (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي)

ومنها ما في هذه القصة من الالطاف المتنوعة المسهلة للبلاء منها رؤيا يوسف السابقة ، فإن فيها روحاً ولفظاً بيوسف وبيمة ، وبشارة بالوصول إلى تأويلها ، ولطف الله بيوسف إذ أوحى إليه وهو في الحب لتنبئهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ، وتنقلاته من حال إلى حال ، فإن فيها

الطافاً ظاهرة وخفية ؛ ولهذا قل في آخر الامر (إن ربي لطيف لما يشاء) يلطف به في أحواله الداخلية ، ويلطف له في الأمور الخارجية ويوصله إلى أعلى المطالب من حيث لا يشعر ومنها أنه ينبغي للعبد أن يلح دائماً على ربه في تثبيت إيمانه وأن يحسن له الخاتمة وأن يجعل خير أيامه آخرها ، وخير أعماله خواتمها ، فان الله كريم جواد رحيم .

❦ قصة أصحاب الكهف ❦

وهم فتية وفقهم الله وألهمهم الايمان وعرفوا ربهم وأنكروا ما عليه قومهم من عبادة الأوثان وقاموا بين أظهرهم معلمين فيما بينهم عقيدتهم ، خائفين من سطوة قومهم فقالوا (ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً) أى إن دعونا غيره (شططا) أى زوراً وبهتاناً وظلماً (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) فلما اتفقوا على هذا الامر ، وعرفوا أنهم لا يمكنهم اظهار ذلك لاقومهم سألوا الله أن يسهل أمرهم فقالوا (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهبنا لنا من أمرنا رشداً) فأووا إلى غار يسره الله غاية التيسير ، واسع الفجوة ، بابه نحو الشمال لا تدخله الشمس ، لا في طلوعها ولا في غروبها فناموا في كهفهم بحفظ الله ورعايته ثلاث مئة سنين وازدادوا تسماً ، وقد ضرب الله عليهم نطاقاً من الرعب على قريهم من مدينة قومهم ، ثم انه في الغار تولى حفظهم بقوله (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) وذلك لئلا تبلى الارض أجسادهم ، ثم أيقظهم بعد هذه المدة الطويلة (لينساءوا بينهم) ولتقفوا في آخر الامر على الحقيقة (فقال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم . قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) إلى آخر القصة .

ففيها آيات بينات وفوائد متعددة :

منها أن قصة أصحاب الكهف وإن كانت عجيبة فليست من أعجب آيات الله ، فان الله آيات عجيبة وقصصاً فيها عبرة للمعتبرين .

ومنها أن من أوى الى الله أواه الله ولطف به وجعله سبباً لهداية الضالين ، فان الله لطف بهم في هذه النومة الطويلة ابقاءً على ايمانهم وأبدانهم من نكتة قومهم وقتلهم ، وجعل هذه القومة من آياته التي يستدل بها على كمال قدرة الله وتنوع احسانه ، وليعلم العباد أن وعد الله حق ومنها الحث على تحصيل العلوم النافعة والمباحثة فيها ، لأن الله بنهم لأجل ذلك ، ويبخشهم ثم يعلم الناس بحالهم حصل البرهان والعلم بأن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها ومنها الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده الى طائه ، وان يقف عندما يعرف ومنها صحة الوكالة في البيع والشراء وصحة الشركة في ذلك ، لقولهم (فابعثوا أحدكم بورقكم

هذه إلى المدينة فليأتكم برزق منه) الآية . ومنها جواز أكل الطيبات والتخير من الأطعمة ما يلائم الإنسان ويوافق ، إذا لم تخرج إلى حد الاسراف المنهى عنه ، لقوله (فليمنظر أيها أركي طعاماً فليأتكم برزق منه)

ومنها الحث والتحرز والاستحفاه والبعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال الكتان الذي يدرأ عن الإنسان الشر .

ومنها بيان رغبة هؤلاء الفتية في الدين ، وفرارهم من كل فتنة في دينهم ، وتركهم لأوطانهم وعوائدهم في الله

ومنها ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه ، وأن هذه الطريقة طريقة المؤمنين

ومنها أن قوله (قال الذين غلبوا على أمرهم لننتخذن عليهم مسجداً) فيه دليل على أن هؤلاء القوم الذين بعثوا في زمانهم ، أناس أهل تدين ، لأنهم عظموهم هذا التعميم حتى عزموا على اتخاذ مسجد على كهفهم ، وهذا وإن كان ممنوعاً - وخصوصاً في شريعتنا ، فالملقصود بيان أن ذلك الخوف العظيم من أهل الكهف وقت إيمانهم ودخولهم في الغار أبدلهم الله به بعد ذلك أمناً وتعظيماً من الخلق ، وهذه عوائد الله فيمن تحمل المشاق من أجله أن يجعل له العاقبة الجمودة

ومنها أن كثرة البحث وطوله في المسائل التي لا أهمية لها لا ينبغي الانهماك به لقوله (فلا تمار فيهم إلا مراءاً ظاهراً)

ومنها أن سؤال من لا علم له في القضية المشكوك فيها أو لا يوثق به منهى عنه لقوله (ولا تستفت فيهم منهم أحداً)

❦ قصة خاتم النبيين وإمام المرسلين ومن أنزل عليه القرآن هدى ورحمة للمؤمنين ❦

اعلم أن سيرة نبيينا محمد ﷺ أعظم هون على معرفة تفسير كتاب الله ، والقرآن إنما كان ينزل تبعاً لمناسبات سيرته وما يتوله للخلق وجواب ما يقال له وما يحصل به تحقيق الحق الذي جاء به وإبطال المذاهب التي جاء لإبطالها ، وهذا من حكمة أنزاله مفرداً ، كما ذكر الله هذا المعنى بقوله (كذلك أنشئت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) وقال (وكلا تهر عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق) فلنشر من سيرته ﷺ على الأحوال المناسبة لنزول الآيات المعينات ، أو لجنس النوع من علوم القرآن ليكون هوناً في هذا المقام .

فأول مقاماته في أنزال القرآن عليه أنه كان قبل البعثة قد بغضت إليه عبادة الأوثان ،

وبفض اليه كل قول قبيح وفعل قبيح ، وفطر ﷺ فطرة مستعدة مهيئة لقبول الحق علماً وعملًا والله تعالى هو الذى طهر قلبه وزكاه وكلمه ، فكان من رغبته العظيمة فيما يقرب إلى الله أنه كان يذهب إلى غار حراء الأيام ذوات العدد ويأخذ معه طعاماً يطلع منه المساكين ويتعبد ويتحنث فيه ، فقلبه فى غاية التعلق بربه ، ويفعل من العبادات ما وصل اليه علمه فى ذلك الوقت الجاهل الخالى من العلم ، ومع ذلك فهو فى غاية الاحسان إلى الخلق ، فلما تم عمره أربعين سنة وتمت قوته العقلية وصلح لتلقى أعظم رسالة أرسل الله بها أحداً من خلقه ، تبدى له جبريل ﷺ فرأى منظرًا هاله وأزعجه ، إذ لم يتقدم له شيء من ذلك ، وإنما قدم الله له الرؤيا ، التى كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح

فأول ما أنزل الله عليه (اقرأ باسم ربك) فجاء بها جبريل وقال له : اقرأ . فأخبره انه ليس بقارىء - أى لا يعرف أن يقرأ - كما قال تعالى (ووجدك ضالا فهدى) وتفسيرها الآية الأخرى (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) فغطه جبريل مرتين أو ثلاثاً ليهيئه لتلقى القرآن العظيم ، ويتجرد قلبه وهيمته وظاهره وباطنه لذلك فنزلت هذه السورة التى فيها نبوته ، وأمره بالقراءة باسم ربه ، وفيها أصناف نعمه على الانسان بتعليمه البيان العلمى والبيان اللفظى والبيان الرمضى ، فجاء بها إلى خديجة ترعد فرائضه من الفرق وأخبرها بما رآه وما جرى عليه ، فقالت خديجة رضى الله عنها : أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق ، أى ومن كانت هذه صفته ، فانها تستدعى نعماً من الله أكبر منها وأعظم ، وكان هذا من توفيق الله لها ولنبيه ، ومن تهوين القلق الذى أصابه .

وبهذه السورة ابتدأت نبوته ثم فتر عنه الوحى مدة ليشقائق اليه وليكون أعظم لموقعه عنده وكان قد رأى الملك على صورته فازعج ، فجاء إلى خديجة أيضاً ترعد فرائضه فقل « دثرونى دثرونى » فأنزل الله عليه (يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر) الآيات فكان فى هذا : الأمر له بدعوة الخلق وانذارهم ، فشمروا ﷺ عن عزمه وصمم على الدعوة إلى ربه مع علمه أنه سيقاوم بهذا الأمر البعيد والقريب ، وسيبقى كل معارضة من تومه ومن غيرهم وشدة ، ولكن الله أيدته وقوى عزمه وأيده بروح منه وبالدين الذى جاء به ، وجاءته سورة الضحى فى فترة الوحى لما قال المسكذبون : إن رب محمد قلاه . قال (والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى) إلى آخرها .

وهذا اعتناء عظيم من الله برسوله ، ونفى لكل نقص ، وبشارة بأن كل حالة له أحسن مما قبلها وخير منها ، وأن الله سيعطيه من النصر والأتباع والعز العظيم وانتشار الدين ما يرضيه .

فكان أعظم مقامات دعوته: دعوته إلى التوحيد الخالص والنهي عن ضده ، دعى الناس لهذا ، وقرره الله في كتابه وصرفه بطرق كثيرة واضحة تبين وجوب التوحيد وحسنه ، وتعينه طريقاً إلى الله وإلى دار كرامته ، وقرر ابطال الشرك والمذاهب الضارة بطرق كثيرة احتوى عليها القرآن ، وهي أغلب السور المكية ، فاستجاب له في هذا الواحد بعد الواحد على شدة عظيمة من قومه ، وقاومه قومه وغيرهم وبغوا له النوائل ، وحرصوا على اطفاء دعوته بجدهم وقولهم وفعلهم ، وهو يجادلهم ويتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وهم يعلمون أنه الصادق الأمين ، ولكنهم يكابرون ويحسدون آيات الله ، كما قال تعالى (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) . ولهذا لما كان استماعهم للقرآن على وجه الكفر والجحد والعكذيب وتوطين نفوسهم على معاداته أخبر الله تعالى أنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ؛ وأنهم لا يمتدنون بسبب ما أسسوا من هذا الأصل الخبيث المانع لصاحبه من كل خير وهدى ، وهذا مما يعلم به حكمة البارئ في اضلال الضالين ؛ وأنهم لما اختاروا لأنفسهم الضلال ورجعوا فيه ، ولاهم الله ماتولوا لأنفسهم وتركهم في طغيانهم يعمهون ؛ وأنهم لما ردوا نعمة الله عليهم حين جاءتهم ، قلب الله أفئدتهم وأصم أسمعهم وأعمى أبصارهم وأفندتهم ، وهذا الوصف الذي أشرنا إليه قد ذكره الله في كتابه عنهم ، وهو يعينك على فهم آيات كثيرة يخبر الله فيها بضلالهم وانسداد طرق الهداية عليهم ، وعدم قبول محالهم وقلوبهم للهدى ، والذنب ذنبهم وهم السبب في ذلك ؛ قال تعالى (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) وبضده تعرف الحكمة في هدايته للمؤمنين ، وأنهم لما كانوا منصفين ليس غرضهم إلا الحق ، ولا لهم قصد إلا طلب رضا ربهم ، هداهم الله بالقرآن ، وازدادت به علومهم ومعارفهم وإيمانهم وهدايتهم المتنوعة . قال تعالى (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم) . وهذا الوصف الجليل للمؤمنين هو الأساس لهدايتهم وزيادة إيمانهم وانقيادهم وبه يفتح لك الباب في فهم الآيات في أوصاف المؤمنين وسرعة انقيادهم لاحق أصوله وفروعه .

ومن مقامات النبي ﷺ مع المكذبين له أنه يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالنبي هي أحسن ؛ ويدعوهم أفراداً ومتفرقين ، ويذكرهم بالقرآن ويتلوهم في الصلاة وخارجها ، وكانوا إذا سمعوه صموا آذانهم ، وقد يسبونهم ويسبون من أنزله ، فأنزل الله على رسوله آيات كثيرة في هذا المعنى يبين حالهم مع سماع القرآن وشدة نفورهم كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ، وأن شياطينهم ورؤسائهم في الشر فكروا وقدروا ونظروا فيما يقولون عن القرآن ويصفونه به لينفروا عنه الناس ، حتى قر قرار رئيسهم الوليد بن المغيرة الذي سماه الله وحيداً فقال : إن هذا الاسحر يؤثران هذا الا قول البشر ، ولكن أبى الله إلا أن يعلو هذا الكلام كل كلام ويزهق هذا الحق

كل باطل ، وكانوا من إفسكهم يقولون في القرآن الأقوال المتناقضة ، يقولون إنه محر ، إنه حكمهانة ، إنه شعر ، إنه كذب انه أساطير ؛ فجعلوا القرآن عضين ، كل هذا أثر البغض الذي أحرق قلوبهم ، حتى قالوا فيه مقالة المجانين ، وكلما قالوا قولاً من هذه الأقوال ؛ أنزل الله آيات يبطل بها ما قالوا ، ويدين زورهم وافتراءهم وتناقضهم .

وكان من الأدلة والبراهين على رسالة محمد ﷺ وأن القرآن من عند الله مقابلة المكذبين له فان من نظر اليها علم انها سلاح عليهم ، وأكبر دليل على أنهم مقاومون للحق ساعون في ابطاله وأنهم على الباطل الذي ليس له حظ من العقل ، كما ليس له حظ من الدين ، وكانوا أيضاً يقولون في النبي ﷺ الأقوال التي ليس فيها دلالة على ما كانوا يعتقدون ، وليس فيها نقص بالنبي ﷺ يقولون : لو أن محمداً صادق لأنزل الله ملائكة يشهدون له بذلك ، ولأغناه الله عن المشي في الأسواق وطلب الرزق كما يطلبه غيره ، ولجعل له كذا وكذا مما توحى اليه عقولهم الفاسدة ، ويندكرها الله في القرآن في مواضع متعددة ، تارة يصورها للعباد فقط ، لأن من تصورها عرف بطلانها وأنها ليست من الشبه القاذحة ، فضلاً عن الحجج المعبرة ، وتارة يصورها ويندكر ما يبطلها من الأمور الواضحة ، وهذا كثير في القرآن .

ومن مقاماتهم مع النبي ﷺ أنهم يسعون أشد السعى أن يكف عن عيب آلهتهم والطعن في دينهم ويحبون أن يتاركهم ويتاركوه ، لعلمهم أنه إذا ذكر آلهتهم ووصفها بالصفات التي هي عليه من النقص ، وأنه ليس فيها شيء من الصفات يوجب أن تستحق شيئاً من العبادة ، يعرفون أن الناس يعرفون ذلك ويعترفون به ، فلا أحب اليهم من التزوير وابقاء الأمور على حالها من غير بحث عن الحقائق ، لأنهم يعرفون حق المعرفة أن الحقائق إذا بانث ظهر للخلق بطلان ما هم عليه وهذا الذي منه يفرون ، وهذا المقام أيضاً ذكره الله في آيات متعددة ، مثل قوله (ودوا لو تدهن فيدهنون) ونحوها من الآيات . وأما قوله تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) فهذا إذا ترتب على السب المذكور سبهم لله ، فانه يترك لما يترتب عليه من الشر .

ومن مقاماتهم المنوعة مع النبي ﷺ أنهم كانوا يقترحون الآيات بحسب أهوائهم ويقولون إن كنت صادقاً فأتنا بعذاب الله ، أو بما تعدنا ، أو أزل عنا جبال مكة واجعل لنا فيها أنهاراً وعميوتاً . وحتى يحصل لك كذا وكذا مما ذكره الله عنهم فوجيبهم الله عن هذه الأقوال بأن رسوله ﷺ قد أيده الله بالآيات والله أعلم بما ينزل من آياته ، وأعلم بما هو أنفع لهم ، وأنه قد حصل المقصود من بيان صدقه وقامت الأدلة والبراهين على ذلك . فقول الجاهل الاحق لو كان كذا وكذا جهل منه وكبر ومشغبة محضة ، وتارة يخبرهم أنه لا يمنعه من الاتيان بها إلا الابقاء عليهم

وأنها لو جاءت لا يؤمنون ، فعند ذلك يعاجلهم الله بالعقاب . وتارة يبين لهم أن الرسول إنما هو نذير مبين ، ليس له من الأمر شيء ، ولا من الآيات شيء وأن هذا من عند الله ، فطلبهم من الرسول محض الظلم والمعدوان ، وهذه المعاني في القرآن كثيرة بأساليب متعددة

وأحياناً يقدحون في الرسول قدحاً يمترضون فيه على الله ، وأنه لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، ومحمد ليس كذلك ، وانك يا محمد لست بأولى بفضل الله منا ؛ فلا شيء تفضل علينا بالوحى ، ونحوه من الأقوال الناشئة عن الحسد ، فيجيبهم الله بذكر فضله ، وأن فضله يؤتاه من يشاء ، وأنه أعلم حيث يجعل رسالته والمحل اللائق بها ، ويشرح لهم من صفات رسوله التي يشاهدونها رأى عين ما يعلمون هم وغيرهم أنه أعظم رجل في العالم ، وأنه ما وجد ولن يوجد احد يقاربه في السكال ، مؤيداً ذلك بالأمور المحسوسة والبراهين المسلمة ، وقد أبدى الله هذه المعاني وأعادها معهم في مواضع كثيرة .

ومن مقاماته **تعالى** مع المؤمنين الرأفة العظيمة والرحمة لهم والمحبة القامة والقوام معهم في كل أمورهم ، وأنه لهم أرحم وأرأف من آبائهم وأمهاتهم ، وأحنى عليهم من كل أحد ، كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم - لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (فبا رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنتم فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك - فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) فلم يزل يدهو إلى التوحيد وعقائد الدين وأصوله ، ويقرر ذلك بالبراهين والآيات المتنوعة ، ويحذر من الشرك والشرور كلها منذ بعث إلى أن استكمل بعد بعثته ، نحو عشر سنين وهو يدهو إلى الله على بصيرة .

ثم أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه من آياته ، وعرج به إلى فوق السموات السبع ، وفرض الله عليه الصلوات الخمس بأوقاتها وهيئاتها ، وجاءه جبريل على أثرها فعلمه أوقاتها وكيفياتها ، وصلى به يومين ، اليوم الأول صلى الصلوات الخمس في أول وقتها . واليوم الثاني في آخر الوقت ، وقال : الصلاة ما بين هذين الوقتين ؛ فرضت الصلوات الخمس قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين ، ولم يفرض الأذان في ذلك الوقت ولا بقة أركان الإسلام ، وانتشر الإسلام في المدينة وما حولها . ومن جملة الأسباب أن الأوس والخزرج كان اليهود في المدينة جيراناً لهم ، وقد أخبروهم أنهم ينتظرون نبياً قد أظلم زمانه ، وذكروا من أوصافه ما دلهم عليه ؛ فبادر الأوس والخزرج لما اجتمعوا بالنبي (ص) في مكة وتيقنوا أنه رسول الله ، واما اليهود فاستولى عليهم الشقاء والحسد ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . وكان المسلمون في مكة في أذى شديد من

قريش فأذن لهم النبي ﷺ في الهجرة أولاً إلى الحبشة ، ثم لما أسلم كثير من أهل المدينة صارت الهجرة إلى المدينة .

وحين خاف أهل مكة من هذه الحال اجتمع ملائمتهم ورؤسائهم في دار الندوة يريدون القضاء التام على النبي ﷺ ، فاتفق رأيهم أن ينتخبوا من قبائل قريش من كل قبيلة رجلاً شجاعاً فيجتمعون ويضربونه بسيوفهم ضربة واحدة . قالوا لأجل أن يتفرق دمه في القبائل فتعجز بنو هاشم عن مقاومة سائر قريش فيرضون بالدية ، فهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، فجاء الوحي إلى النبي (ص) وعزم على الهجرة ، وأخبر أبا بكر بذلك وطلب منه الصحبة فأجابه إلى ذلك وخرج في تلك الليلة التي اجتمعوا على الايقاع به ، وأمر علياً أن ينام على فراشه وخرج هو وأبو بكر إلى الغار ، فلم يزالوا يرصدونه حتى برق الفجر ، فخرج إليهم على فقالوا : أين صاحبك ؟ قال لا أدري .

ثم ذهبوا يطلبونه في كل جهة وجعلوا الجمالات الكثيرة لمن يأتي به ، وكان الجبل الذي فيه الغار قد امتلأ من الخلق يطلبون رسول الله (ص) فقال أبو بكر : يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا . فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ وأنزل الله تعالى (الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثلثي اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم) فهاجر إلى المدينة واستقر بها وأذن له في القتال بعدما كان قبل الهجرة ممنوعاً لحكمة مشاهدة ، فقال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) وجعل يرسل السرايا ، ولما كانت السنة الثانية فرض الله على العباد الزكاة والصيام ، فأبات الصيام والزكاة إنما نزلت في هذا العام وقت فرضها ، وأما قوله تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) فإن المراد زكاة القلب وطهارته بالتوحيد وترك الشرك .

وفي السنة الثانية أيضاً كانت وقعة بدر . وسببها أن عيراً لقريش تحمل تجارة عظيمة من الشام ، أخرج النبي ﷺ من خوف من أصحابه لطلبها ، فخرجت قريش لحمايتها وتوافوا في بدر على غير ميعاد ، فالتبرجت والتفيرت القوا مع الرسول وأصحابه ، وكانوا ألفاً كاملاً العدو والخييل ، والمسلمون ثلثمائة ووضعة عشر على سبعين بعيراً يعتقبونها ، فهزم الله المشركين هزيمة عظيمة ، قتلت سرواتهم وصناديدهم ، وأسروا من أسر منهم ، وأصاب المشركين مصيبة ما أصيبوا بمثلاً ، وهذه الغزوة أنزل الله فيها وفي تفاصيلها سورة الأنفال . وبعد ما رجع إلى المدينة منها مظفراً منصوراً ذل من بقي من لم يسلم من الإوس والخزرج ، ودخل بعضهم في الإسلام نفاقاً ، ولذلك جميع الآيات التي نزلت في المنافقين إنما كانت بعد غزوة بدر .

ثم في السنة الثالثة كانت غزوة أحد . غزا المشركون وجيشوا الجيوش على المسلمين حتى وصلوا إلى أطراف المدينة ، وخرج اليهم رسول الله ﷺ بأصحابه وعبأهم ورتبهم والتقوا في أحد عند الجبل المعروف شمالي المدينة ، وكانت الدائرة في أول الأمر على المشركين ، ثم لما ترك الرماة من كبرهم الذي رتبهم فيه رسول الله ﷺ وقال لهم لا تبرحوا عنه ظهرنا أو غلبنا ، وجاءت الخيل مع تلك الغفرة وكان ما كان ، حصل على المسلمين في أحد مقتلة أكرمهم الله بالشهادة في سبيله ، وذكر الله تفصيل هذه الغزاة في سورة آل عمران ، وبسط متعلقاتها ، فالوقوف على هذه الغزوة من كتب السير يعين على فهم الآيات الكثيرة التي نزلت فيها كبقية الغزوات

ثم في السنة الرابعة تواعد المسلمون والمشركون فيها - في بدر - فجاء المسلمون لذلك الموعد وتحالف المشركون معتدلين أن السنة مجدية ، فكسبها الله غزوة للمسلمين ، واقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يحسبهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم

ثم في سنة خمس كانت غزوة الخندق . اتفق أهل الحجاز وأهل نجد وظاهرهم بنو قريظة من اليهود على غزو النبي ﷺ وجموا ما يقدرون عليه من الجنود ، فاجتمع نحو عشرة آلاف مقاتل وقصدوا المدينة ، ولما سمع بهم النبي (ص) خندق على المدينة ، وخرج المسلمون نحو الخندق ، وجاء المشركون كما وصفهم الله بقوله (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) ومكثوا محاصرين المدينة عدة أيام ، وحال الخندق بينهم وبين اضطدام الجيوش ، وحصل مناوشات يسيرة بين أفراد من الخيل . وسبب الله عدة أسباب لانتحلال المشركين ، ثم انشعروا إلى ديارهم ، فلما رجعوا خائبين لم ينالوا ما كانوا جازمين على حصوله تفرغ النبي (ص) لبني قريظة الذين ظاهروا المشركين بقولهم وتشجيعهم على قصد المدينة ومظاهرتهم الفعلية ونقصهم ما كان بينهم وبين النبي (ص) فحاصروهم فزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، وفي هذه الغزوة أنزل الله صدر سورة الأحزاب من قوله (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها - إلى قوله - وأورثكم أرضهم وديارهم وأرضاً لم تطئوها ، وكان الله على كل شيء قديراً)

ثم في سنة ست من الهجرة اعتمر (ص) وأصحابه عمرة الحديبية ، وكان البيت لا يصد عنه أحد ، فعزم المشركون على صد النبي (ص) عنه ، ولما بلغ الحديبية ورأى المشركين قد أخذتهم الحمية الجاهلية جازمين على القتال دخل معهم في صلح لحقن الدماء في بيت الله الحرام ، ولما في ذلك من المصالح ، وصار الصلح هلي أن يرجع النبي (ص) عامه هذا ولا يدخل البيت ، ويكون القضاء من العام القابل ، ونصع الحرب أوزارها بينهم عشر سنين ، فسكره جمهور المسلمين هذا الصلح حين توهموا أن فيه فضاضة على المسلمين ولم يطلعوا على ما فيه من المصالح الكثيرة ،

فرجع (ص) عامه ذلك وقضى هذه العمرة في عام سبع من الهجرة ، فأُنزل الله في هذه القضية سورة الفتح بأكملها (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) فكان هذا الفتح لما فيه من الصلاح الذي تمكن فيه المسلمون من الدعوة إلى الاسلام ودخول الناس في دين الله حين شاهدوا ما فيه من الخير والصلاح والنور . وقد تقدم أن قصة بني قريظة دخلت في ضمن قصة الخندق ، أما قبيلة بني النضير من اليهود فانها قبل ذلك ، حين هموا بالفتك بالنبي (ص) وكانوا على جانب المدينة غزاهم (ص) واحتتموا بحصونهم ووعدهم المنافقون حلفاءهم بنصرتهم ، فألقى الله الرعب في قلوبهم ، وأنزلهم رسول الله (ص) على أن يجلوا عن ديارهم ولهم ما حلت ابلهم ، ويدعوا الأرض والعقار وما لم تحمله الايل للمسلمين ، فأُنزل الله في هذه القضية أول سورة الحشر (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) إلى آخر القصة .

وفي سنة ثمان من الهجرة ، وقد تقضى قريش العهد الذي بينهم وبين النبي (ص) غزا مكة في جند كثيف من المسلمين يقارب عشرة آلاف ، فدخلها فتحاً لها ، ثم تمها بغزو حنين على هوازن وثقيف ، فتم بذلك نصر الله لرسوله وللمسلمين ، وأنزل الله في ذلك أول سورة التوبة

وفي سنة تسع من الهجرة غزا تبوك وأوعب المسلمون معه ، ولم يتخلف إلا أهل الأعذار وأناس من المنافقين ، وثلاثة من صلحاء المؤمنين : كعب بن مالك وصاحبه . وكان الوقت شديداً والحر شديداً والعدو كثيراً والعسرة مشقة ، فوصل إلى تبوك ومكث عشرين يوماً ولم يحصل قتال فرجع إلى المدينة ، فأُنزل الله في هذه الغزوة آيات كثيرة من سورة التوبة ، يذكر تعالى تفاصيلها وشدتها ، ويشئ على المؤمنين ، ويذم المنافقين وتخلفهم ، ويذكر توبته على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ، ويدخل معهم الثلاثة الذين خلفوا بعد توبتهم وانا بهم . وفي مطاوي هذه الغزوات يذكر الله آيات الجهاد وفرضه وفضله وثواب أهله ، وما لنا كلين عنه من الذل العاجل والعقاب الآجل ، كما أنه في أثناء هذه المدة ينزل الله الأحكام الشرعية شيئاً فشيئاً بحسب ما تقتضيه حكته .

وفي سنة تسع من الهجرة أو سنة عشر فرض الله الحج على المسلمين ، وكان أبو بكر حج بالناس سنة تسع ونبذ إلى المشركين عهدهم ، وأتم عيود الذين لم ينقضوا ، ثم حج النبي (ص) بالمسلمين سنة عشر واستوعب المسلمين معه ، وأعلمهم بمناسك الحج والعمرة بقوله وفعله ، وأنزل الله الآيات التي في الحج وأحكامه ، وأنزل الله يوم عرفة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) فلم يبق من العلوم النافعة علم إلا بينه لهم ، فان القرآن تبيان لكل شيء ، فالعلم الأصول والعلوم الفروع والأحكام ، وعلوم الأخلاق والآداب ، وعلوم الكون ، وكل ما يحتاجه الخلق من ذلك اليوم إلى أن تقوم الساعة ، ففي القرآن بانه والإرشاد إليه

وهو الذى اليه المرجع فى جميع الحقائق الشرعية والعقلية ، ونحوه وممتنع أن يأتى علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض شيئاً مما جاء به القرآن ؛ فانه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، إن هذا القرآن يهتدى للتي هي أقوم (والله يقول الحق وهو يهتدى السبيل) فهذه الآية جمعت بين نوعى العلوم ، فان العلوم وسائل ومقاصد ، وهو الحق الذى يقوله الله فى كتابه وعلى لسان رسوله ، ونوع وسائل ، وهو الهداية إلى السبيل إلى كل علم وعمل ، كما أن قوله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) جمعت الكمال فى ألفاظه ومعانيه ، فألفاظه أوضح الألفاظ وأبلغها وأحسنها تفسيراً لكل ما تفسره من الحقائق ، بوضوحها وأحكامها وقوامها ، ومعانيه كلها حق ، وذلك أنه تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، صدقاً فى أخبارها ، وعدلاً فى أحكامها وأوامرها ونواهيها (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) فأحكامه على الإطلاق أحسن الأحكام وأنفعها للعباد ، فهذا فى شرعه ودينه ونظيره فى خلقه ، الذى أحسن كل شئ خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين .

وقد جمع الله فى كتابه بين المتقابلات العامة ، وذلك لكمال هذا الكتاب وأحكامه كالأمثلة السابقة ، وكما فى قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) فان البر اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد والأخلاق والأعمال ، والتقوى اسم جامع لما يجب اتقاؤه من جميع المآثم والمضار ، ولهذا قال (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) فالإثم المعاصى المتعلقة بحقوق الله ، والعدوان البغى على الخلق فى الدماء والأموال والأعراض والحقوق وكذلك قوله تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) فجمع بين زاد سفر الدنيا ، وزاد سفر الآخرة بالتقوى .

وكذلك قوله تعالى (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً) فهذا اللباس الحسى الضرورى والكمالى ، ثم قال : ولباس التقوى ذلك خير ، فهذا اللباس المعنوى ، وإن شئت قلت عن الأول إنه لباس البدن ، وعن لباس التقوى أنها لباس القلب والروح وكذلك قوله تعالى (ولقاهم نضرة وسروراً) جمع لهم بين نعيم الظاهر بالنضرة والحسن والبهاء ونيعم الباطن بكمال الفرح والسرور .

وكذلك قوله فى صفة نساء الجنة (فيهن خيرات حسان) فوصفهن بجمال الباطن بحسن الخلق الكامل ، وجمال الظاهر بأنهن حسان الوجوه وجميع الظاهر .
ولما ذكر السير الحسى ذكر السير المعنوى ، فقال (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائز)

وكذلك قوله (فانفروا ثبات) أى أفراداً بدليل قوله (أو انفروا جميعاً)
وكذلك قوله (لا يصلها إلا الأشتى الذى كذب وتولى) كذب الخبر وتولى عن الطاعة
« التكذيب » انحراف الباطن « والتولى » انحراف الظاهر ، ونظيره قوله (إنا قد أوحى اليها
أن العذاب على من كذب وتولى)

و ضد ذلك ما رتب الله على الإيمان والعمل الصالح من خير الدنيا والآخرة ؛ فان الإيمان ضد
التكذيب ، والتولى ضده الاستقامة والعمل الصالح

وكذلك قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) فاعبده وتوكل عليه فجمع جميع ما يراد من العبد ،
فالعبداء حق الله على العبد ، والاعانة من ربه اسعافه بما استعان عليه من عبودية ربه وغيرها من
منافعه ؛ فالعبد فى عبادة الله واستعانة به .

وكذلك قوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حية طيبة
ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فجمع للمؤمن العامل للصالحات بين طيب الحياة فى
الدنيا والآخرة ، ونظيره (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر - ربنا
آتينا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة)

وكذلك قوله (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فى مواضع ، نفى جميع المكروه الماضى بنفى
الحرز والمستقبل بنفى الخوف .

وكذلك قوله تعالى (فروح وريحان وجنة نعيم) فالروح اسم جامع لنعيم القلب ، والريحان
اسم جامع لنعيم الأبدان ؛ وجنة نعيم تجمع الأمرين

وكذلك قوله (ومن أعرض عن ذكرى) أى القرآن الذى أنزله (فان له معيشة ضنكاً ،
ونحشره يوم القيامة أعمى) جمع له بين عذاب الدنيا وعذاب البرزخ وعذاب دار القرار .

وكذلك قوله (إن الله لا يهدي من هو متكبر جبار) أى متكبر على الحق جبار على الخلق .
ومثله (معتد أثيم) أى معتد فى البغى على عباد الله (أثيم) أى متجربى على محارم الله

وكذلك قوله فى مواضع (من ولى ولا نصير) فالولى الذى يجلب لموليه المنافع (والنصير)
الذى يدفع عنه المضار

﴿ فوائد منشورة متنوعة غير مرتبة ﴾

الأمّة : جاء فى القرآن لعدة معانى ، جاء بمعنى الامام الجامع لخصال الخير ، مثل قوله (إن
ابراهيم كان أمة) وبمعنى الطائفة (وان من أمة إلا خلا فيها نذير) وهذا المعنى كثير ، وبمعنى الملة
والدين (وأن هذه أمتكم أمة واحدة) وبمعنى المدة الطويلة (وادّكر بعد أمة)

السلطان : أكثر استعماله في القرآن بمعنى الحجة ، مثل قوله (إن عندكم من سلطان - فاء تواسلطان مبین) ويأتي بمعنى الملك ، مثل قوله (هلك عن سلطانیه) ويأتي بمعنى التسلط والسيطرة مثل قوله (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)

اللسان : ورد في القرآن لعدة معاني ، ورد بمعنى الجارحة (لا تحرك به لسانك - ويقولون بألسنتهم) وهو كثير ، وبمعنى اللغة (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه - بلسان عربي مبين) وبمعنى الثناء الحسن (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) - « استوى » وردت في القرآن على ثلاثة أوجه ، تارة تعدى بلى فتدل على العلو والارتفاع ، مثل « ثم استوى على العرش . لتستوا على ظهوره » وتعدى بالي فتدل على القصد مثل (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) وتأتي بلا تعدية بحرف فتدل على الكمال ، ومنه قوله (ولما بلغ أشده واستوى) أي كمل في عقله وأحواله كلها التأويل : أكثر وروده في القرآن بمعنى عاقبة الشيء ، وما يؤول إليه وقت وقوعه ، مثل قوله (هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل) أي وقوع الخبر به من العذاب (هذا تأويل رؤياي من قبل) أي هذا ما آلت إليه وهذا وقوعها ، وقد يأتي بمعنى التفسير وهو قليل ، ومنه على أحد التفسيرين (وما يعلم تأويله إلا الله) أي تفسيره ، وعلى القول الآخر يكون من المعنى الأول ، أي وما يعلم حقيقة الخبر عنه إلا الله وحده ، فلي هذا المعنى يمين الوقوف على الله ؛ وعلى المعنى الأول الذي بمعنى التفسير يعطف عليه (أولو العلم) أي ما يعلم تفسير المتشابه الذي يتشابه فهمه على أذهان أكثر الناس إلا الله وإلا أهل العلم فاتهم يعلمون تأويله بهذا المعنى الغافل : ورد في القرآن بمعنى الجاهل ، مثل قوله (لتنذر قوماً ما أنذر آباءهم فهم غافلون) وبمعنى النسيان لذكر الله ونسيان طاعته ، كقوله (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالندو والأصال ولا تكن من الغافلين - ولا تطلع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) فائدة : اخبار الله أنه مع عباده يرد في القرآن على أحد معنيين .

أحدهما : المعية العامة ، كقوله (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم) أي هو معهم بعلمه واحاطتهم . الثاني : المعية الخاصة ، وهي أكثر وروداً في القرآن ، وعلامتها أن يقرنها الله بالانصاف بالأوصاف التي يحبها والأعمال التي يرتضيها ، مثل قوله (إن الله مع المتقين) مع المحسنين مع الصابرين (لا تحزن إن الله معنا - لا تخافا إني معكما أسمع وأرى) وهذه المعية تقتضي العناية من الله والنصر والتأييد والتسديد بحسب قيام العبد بذلك الوصف الذي رتبت عليه المعية ونظير هذا التقسيم وصف العباد بأنهم عبيد لله يرد في القرآن على نوعين : نوع عام ، مثل

قوله (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) أى معبداً مملوكاً لله . والنوع الثانى العبودية الخاصة ، وهى تقتضى أن العبد بمعنى العابد المتعبد لربه القائم بعبوديته ، وذلك مثل قوله (وعباد الرحمن - تبارك الذى نزل الفرقان على عبده - أليس الله بكاف عبده) فبحسب قيام العبد بعبودية ربه تحصل له كفاية الله

ونظير هذا القنوت يرد فى القرآن على قسمين : قنوت عام ، مثل قوله (وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) أى الكل عبيد خاضعون لربوبيته وتدبيره . النوع الثانى : وهو الأكثر فى القرآن القنوت الخاص ، وهو دوام الطاعة لله على وجه الخشوع ، مثل قوله (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً - وقوموا لله قانتين - يا مريم اقنتى لربك واسجدى - والقانتين والقانتات) ونحوها .

فائدة : طغيان الرئاسة وطغيان المال يحملان صاحبهما على الكبر والبطر والبغى على الحق وعلى الخلق ، برهان ذلك قوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك) وقوله (إن الانسان ليطغى أن رآه استعزى) فعلى هذا التجرد والطغيان يحصل الملك ورؤيته لنفسه الاستغناء ، أما الموفقون الأصفياء فانهم فى هذه الأحوال يخضعون لله ويعترفون له بالنعمة ويزداد تواضعهم ، ولهذا لما رأى سليمان عليه السلام من ملكه ملكاً كبيراً ، ورأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده لم يطغ ويقل هذا من حولى وقوى ونحوه ، بل قال : هذا من فضل ربى ليبلونى أشكر أم أكفر . وقال قبل ذلك : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين .

فائدة : من الحكمة استعمال اللين فى معاشرة المؤمنين ، وفى مقام الدعوة للكافرين ، كما قال تعالى : فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . وقال : فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى . فأمر باللين فى هذه المواضع ، وذكر ما يترتب عليه من لمصالح ؛ كما أن من الحكمة استعمال الغلظة فى موضعها . قال تعالى : يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم . لأن المقام هنا مقام لا تفيد فيه الدعوة ، بل قد تعين فيه القتال فالغلظة فيه من تمام القتال وقد جمع الله بين الأمرين فى قوله فى وصف خواص الأمة (أشداء على الكفار رحماء بينهم) والفرق بين قوله : إنك لا تهدى من أحببت . وبين قوله : وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . أن هداية الارشاد والتعليم والبيان هى التى أُنبت لها لرسوله ، بل ولكل من له تعليم وارشاد للخلق كما قال : وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا . وقال : ولكل قوم هاد . وأما هداية الترفيق ووضع الأيمان فى القلوب ، فانها مختصة بالله ، فكما لا يخلق ولا يرزق ولا يحيى ويميت إلا الله ، فلا يهتدى إلا الله .

والفرق بين التبصرة والتذكرة في مثل قوله (تبصرة وذكرى لسلك عبد منيب) أن التبصرة هي العلم بالشيء والتبصر فيه ، والتذكرة هي العمل بالعلم اعتقاداً وعملاً ، وتوضيح هذا أن العلم النافع يقتدر إلى ثلاثة أمور : التفكير أولاً في آيات الله المتلوة والمشهودة ، فإذا تفكر أدرك ما تفكر فيه بحسب فهمه وذكائه فعرف ما تفكر فيه وفهمه ، وهذا هو التبصر ، فإذا علمه عمل به ، فإن كان اعتقاداً وإيماناً صدقه بقلبه وأقر به واعترف ، وإن اقتضى عملاً قلبياً أو قولياً أو بدنياً عمل به ، وهذا هو التذكر وهو التذكرة ، وحاصل ذلك هو معرفة الحق واتباعه ، ومعرفة الباطل واجتنابه .

والفرق بين المواضع التي ورد في القرآن أن الناس لا يتساءلون ولا يتكلمون ، والمواضع التي ذكر فيها احتجاجهم وتكلمهم وخطاب بعضهم لبعض من وجهين أوجهما تقييد هذه المواضع بقوله (لا يتكلمون ، إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) فائبات الكلام المتعدد من الخلق يوم القيامة تبع لأذن الله لهم في ذلك ، ونفى التساؤل والكلام في الحالة التي لم يؤذن لهم . الوجه الثاني : ما قاله كثير من المفسرين إن القيامة لها أحوال ومقامات ، ففي بعض الأحوال والمقامات يتكلمون وفي بعضها لا يتكلمون ، وهذا الوجه لا ينافي الأول ، فيقال هذه الأحوال والمقامات تبع لأذن الله لهم أو عدمه

والفرق بين إثبات الله في القرآن الانساب بين الناس في مواضع كثيرة ، وتقييدها في مواضع إن المواضع المنفية المراد بها أن الانساب لا تنفع ، كما أن جميع الأسباب لا تنفع يوم القيامة إلا سبب واحد ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، كما ذكره في كتابه في مواضع ، وأما المواضع المثبتة فهو المطابق للحقيقة ، ويذكر في كل مقام بحسبه

ففي مقامات الفضل والثواب يذكر الله فضله على الجميع بالحق الناقص من المؤمنين الكامل من غير نقص لدرجة الكامل ، مثل قوله (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء) أي ما نقصناهم ؛ ومثل (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) ونحوها . وفي مقامات العدل والعقوبة ، يذكر الانساب وأنها لا تنفع ؛ وأن الأمر أعظم من أن يلتفت الإنسان إلى أقرب الناس إليه ، مثل قوله (يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه) ومثل (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه)

ونظير هذا الاختيار عن المجرمين أنهم يسألون عن أعمالهم ، وذلك على وجه إظهار العدل والتوبيخ والتقريع لهم والفضيحة ، وفي بعض المواضع مثل (فيومئذ لا يسئلكم عن ذنبه إنس

ولا جان) أى لا يحتاج فى علم ذلك وجزائه عليه إلى سؤال استعمال ، لأنها مسطرة عليهم قد حفظت بالشهود من الملائكة والجوارح والأرض وغيرها .

فائدة : النفى المحض لا يكون كمالاً ، ولهذا فى مقامات المدح كل نفى فى القرآن فانه يفيد فائدتين نفى ذلك النقص المصرح به واثبات ضده وتقيضه ، فيدخل فى هذا أشياء كثيرة أعظمها أنه أنفى على نفسه بنفى أمور كثيرة تنافى كماله ، نفى الشريك فى مواضع ممتدة فيقتضى توحده بالكمال المطلق ، وأنه لا شريك له فى ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته ، وسبغ نفسه فى مواضع ، وأخبر فى مواضع عن تسبيح المخلوقات ، والتسبيح تنزيه الله عن كل نقص وعن أن يماثله أحد ، وذلك يدل على كماله . ونفى عن نفسه الصاحبة والولد ومكافأة أحد ومماثلته ، وذلك يدل على كماله المطلق وتفرد بالوحدانية والغنى المطلق والملك المطلق . ونفى عن نفسه السنة والنوم والموت ، لكمال حياته وقيوميته ، ونفى كذلك الظلم فى مواضع كثيرة وذلك يدل على كمال عدله وسعة فضله . ونفى أن يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء أو يعجزه شئ ، وذلك لاحاطة علمه وكمال قدرته ونفى العبث فى مخلوقاته وفى شرعه ، وذلك لكمال حكمته ، وهذه فائدة عظيمة فاحفظها فى خزانة قلبك ؛ فانها خير الكنوز وأنفعها .

وكذلك نفى عن كتابه القرآن الريب والعوج والشك ونحوها ؛ وذلك يدل على أنه الحق فى أخباره وأحكامه ، فأخباره أصدق الأخبار وأحكامه وأنفعها للعباد ، وأحكامه كلها محكمة فى كمال العدل والحسن والاستقامة على الصراط المستقيم

وقال عن نبيه ﷺ (ما ضل صاحبكم وما غوى) فنفى عنه الضلال من جميع الوجوه ، وهو عدم العلم أو قلته أو نقصه أو عدم جودته (والغنى) وهو سوء القصد ، فيدل ذلك أنه أعلم الخلق على الإطلاق ، وأهداهم وأعظمهم علماً وقيماً وإيماناً ، وأنه أنصح الخلق للخلق ، وأعظمهم اخلاصاً لله وطلباً لما عنده ، وأبعدهم عن الأغراض الدنيئة ، وكذلك نفى عنه كل نقص قاله أعداؤه فيه وأنه فى الذروة العليا من الكمال المضاد لذلك النقص

وكذلك نفى الله عن أهل الجنة الحزن والكدر والنصب واللغوب والموت وغيرها من الآفات ، فيدل ذلك على كمال سرورهم وفرحهم واتصال نعيمهم وكماله ، وكمال حياتهم وقوة شبابهم وكمال صحتهم وتتمام نعيمهم الروحى والقلبى والبطنى من كل وجه ؛ وأنه لا أعلى منه حتى يطلب عنه حولا

وعكس هذا ما نفى القرآن عنه صفات الكمال ، فانه يثبت له ضد ذلك من النقص ، كما نفى عن آلهة المشركين جميع الكمالات القولية والفعلية والذاتية ، وذلك يدل على نقصها من كل وجه وأنها لا تستحق من العبادة مثقال ذرة

فائدة : قوله تعالى (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم) أى القوة والشجاعة في هذه الآية ، على أن الملك إذا اجتمعت فيه هاتان الخصلتان : العلم بالولاية والسياسة وحسن التدبير والشجاعة والقوة ، فهو الذى يصلح للولاية والملك ، وإن لم يكن من بيت الملك ولا ذا مال ، فإن العبرة بجميع الولايات امكان اقامتها والنهوض بها على أكمل الحالات ، وولاية الملك لا تتم إلا بالعلم والشجاعة القلبية والبدنية .

فائدة : قوله تعالى (واءتوا البيوت من أبوابها) يؤخذ من عمومها اللفظي والمعنوي أن كل مطلوب من المطالب المهمة ينبغى أن يؤتى من بابه ، وهو أقرب طريق ووسيلة يتوصل بها اليه ، وذلك يقتضى معرفة الأسباب والوسائل معرفة تامة ليسلك الأحسن منها والأقرب والأسهل ، والأقرب نجاحاً ، لافرق بين الأمور العلمية والعملية ، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية ، ولا بين الأمور المتعدية والقاصرة ، وهذا من الحكمة

فائدة : لما ذكر الله الأنبياء وأثنى عليهم قال (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) تدل على اتباع جميع الأنبياء في جميع هداهم ، والله هداهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم فكل أمر أثنى الله فيه على أحد من أنبيائه من هدى أو خلق أو عمل ، فإنا مأمورون بالاعتداء بهم ، وذلك من هداهم وهو أيضاً من شريعتنا ، فإن الله أمرنا بذلك ، كما أمرنا بالوصاف العامة التى تدخل فيها مفردات كثيرة

فائدة : إذا أمرنا الله فى كتابه بأمر كان أمراً بذلك ؛ وبكل أمر لا يتم إلا به . فالأمر مثلاً بالصلاة أمر بالطهارة وستر العورة واجتناب النجاسة واستقبال القبلة وبجميع شروطها وأركانها ، وكذلك هو أمر بمعرفتها ومعرفة مالاتم إلا به ، وهذا من أعظم الأدلة على وجوب طلب العلم ، فإن المأمورات يتوقف تسكيملها على معرفتها ؛ وكذلك إذا نهانا الله عن شيء كان نهياً عن كل وسيلة توصل اليه ، والأمر بالجهاد أمر به وبكل ما يتوقف عليه فى كل زمان ومكان ؛ والأمر بتبليغ الشريعة أمر بكل ما يحصل به التبليغ ويتم ويكمل ويشمل ؛ ويدخل فى هذا إيصال الأحكام الشرعية وتبليغها للناس بجميع المقربات الحادثة

فائدة : قد أخبر الله فى عدة آيات بهدايحه الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم ، وتوبته على كل مجرم ، وأخبر فى آيات أخر (أنه لا يهدى القوم الظالمين - لا يهدى القوم الفاسقين) فما الجمع بينهما ؟ فيقال قوله تعالى (إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم) هى الفاصلة بين من هداهم الله ومن لم يهدم ، فمن حققت عليهم كلمة العذاب ؛ لعنادهم ولعلم الله أنهم لا يصلحون للهداية ، بحيث صار الظلم والفسق وصفاً لهم ملازماً غير قابل للزوال ويعلم ذلك بظاهر أحوالهم وعنادهم ومكابرتهم للحقائق ، فهو لا يطبع الله على قلوبهم فلا يدخلها

خير أبدأ ، والجرم جرمهم ، فانهم رأوا سبيل الرشذ فزهدوا فيه ، ورأوا سبيل النى فرغبوا فيه واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله

فائدة : ورد فى كثير من الآيات اضافة الامور إلى قدرة الله ومشيشته وعموم خلقه ، وفى آيات كثيرة اضافتها إلى عاملها وفاعليها ، وهذه الآيت المتنوعة تنزل على الاصل العظيم المتفق عليه بين سلف الأمة ، والذي دل عليه العقل والنقل ، وهو أن جميع الامور واقعة بقضاء الله وقدره أعيانها وأوصافها وأفعالها وجميع ما حدث ويحدث ، لا يخرج شىء منه عن قضائه وقدره . ومع ذلك فقد جعل الله الحوادث تبعاً لأسبابها ولارادة الفاعلين لها وقدرتهم عليها ، فالآيات المتعددة المضافة إلى عموم قدره تدل على الاصل الأول ، والآيات المتعددة المضافة إلى فاعليها تدل على الاصل الثانى ، ولا منافاة بينهما ، فان أعمال العباد مثلاً تقع بفعلهم وإرادتهم وقدرتهم ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم وخالق السبب العام خالق للسبب ، ومع ذلك فقد جعلهم فى أفعالهم وتروكهم مختارين غير مجبورين .

فائدة : يختم الله كثيراً من الآيات عندما يبين للعباد الاصول والاحكام النافعة بقوله (لعلمكم تعقلون) وهذا يدل على أمور :

منها أن الله يحب منا أن نعقل أحكامه وإرشاداته وتعليماته ، فنحفظها ونفهمها ونعقلها بقلوبنا ونؤيد هذا العقل ونثبتته بالعمل بها

ومنها أنه كما يجب منا أن نعقل هذا الحكم الذى بينه بياناً خاصاً ، فانه يجب أن نعقل بقية ما أنزل علينا من الكتاب والحكمة ، وأن نعقل آياته المسموعة وآياته المشهودة

ومنها أن فى هذا أكبر دليل على أن معرفة ما أنزل الله إلينا من أعظم ما يربى عقولنا ويجعلها عقولاً تفهم الحقائق النافعة والضارة ، وترجح هذه على هذه ، ولا تميل بها الأهواء والاغراض والخيالات والخرافات الضارة المفسدة للعقول

وإذا أردت معرفة مقادير عقول الخلق على الحقيقة ، فانظر إلى عقول المهتدين بهداية القرآن والسنة ، وإلى عقول المنحرفين عن ذلك نجد الفرق العظيم ، ولا تحسبن العقل هو الذكاء وقوة الفطنة والفصاحة اللفظية وكثرة القيل والقال ، وإنما العقل الصحيح أن يعقل العبدى قلبه الحقائق النافعة ، عقلاً يحيط بمعرقها ويميز بينها وبين ضدها ، ويعرف الراجح من الامور فيؤثره ، والمرجوح أو الضار فيتركه ، وبعبارة أخرى مخفصرة قول : العقل هو الذى يعقل به العلوم النافعة ويعقل صاحبه ويمنعه من الامور الضارة .

فائدة : ورد فى القرآن آيات عامة هطف هاليه بعض أفرادها الداخلة فيها ، وذلك يدل على فضيلة المخصوص وأكديته ، وأن له من المزايا ما أوجب النص عليه ؛ مثل قوله (من كان عدواً

الله وملائكته وجبريل وميكائيل ، فان الله عدو للكافرين - تنزل الملائكة والروح فيها) وهو جبريل (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى - والذين يسكنون بالكتاب) دخل فيه الدين كله ثم قال (وأقاموا الصلاة) ومثله (اتل ما أوحى اليك من الكتاب) أى اتبعه ، ويدخل فى ذلك جميع الشرائع ، ثم قال (وأقم الصلاة) وذكر السبب فى ذلك ، إلى غير ذلك من الآيات التى إذا تأملت الخصوص من العام علمت أن ذلك لشرفه وآكديته وما يترتب عليه من الثمرات الطيبة .

فائدة لطيفة : فى عدة آيات من القرآن إذا ذكر الله الحكم لم ينص على نفس الحكم عليه ، بل يذكر من أسمائه الحسنى ما إذا علم ذلك الاسم وعلمت آثاره ، علم أن ذلك الحكم من آثار ذلك الاسم ؛ وهذا انهاض من الله لعباده أن يعرفوا أسماء حق المعرفة ، وأن يعلموا أنها الأصل فى الخلق والأمر ، وأن الخلق والأمر من آثار أسمائه الحسنى ، وذلك مثل قوله (فان قاموا فان الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فان الله سميع عليم) فيستفاد أن الفيئة يحبها الله وأنه يغفر لمن فاء ويرحمه ، وأن الطلاق كربه إلى الله ، وأما المؤلى إذا طلق فان الله تعالى سيجازيه على ما فعل من السبب ، وهو الإيلاء ، والمسبب ، وهو ما ترتب عليه ، ومثل هذا قوله تعالى « إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » أى فانكم إذا علمتم ذلك دفعتم عنه العقوبة المتعلقة بحق الله ، وهذا كثير ، وقد يصرح الله بالحكم ويعلمه بذكر الأسماء الحسنى المناسبة له .

فائدة : قوله تعالى « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » جمع الله فيها أموراً كثيرة نافعة فى الدين والبدن والحال والمال ، فالأمر بالاكل والشرب يدل على الوجوب ، وأن العبد لا يحل له ترك ذلك شرعاً ، كما لا يتمكن من ذلك قدراً ما دام عقله معه ، وأن الاكل والشرب مع نية امتثال أمر الله يكون عبادة ، وأن الأصل فى جميع المأكولات والمشروبات الاباحة ، إلا ما نص الشارع على تحريمه لضرره لاطلاق ذلك ، وعلى أن كل أحد يأكل ما ينفعه ويناسبه ويليق به ويوافق لغناه وفقره ، ويوافق لصحته ومرضه ولعاداته وعدمها ، لأنه حذف المأكول ، والآية ساقها الله لارشاد العباد إلى منافعهم ، وهى تدل على ذلك كله ، وعلى أن أصل صحة البدن تدبير الغذاء بأن يأكل ويشرب ما ينفعه ويقيم صحته وقوته ، وعلى الأمر بالاقتصاد فى الغذاء والتدبير الحسن ، لأنه لما أمر بالاكل والشرب نهى عن السرف ، وعلى أن السرف منهى عنه ، وخصوصاً فى الأطعمة والاشربة ، فإن السرف يضر الدين والعقل والبدن والمال .

أما ضرره الدينى ، فكل من ارتكب ما نهى الله ورسوله عنه فقد انحرج دينه ، وعليه أن يداوى هذا الجرح بالتوبة والرجوع .

وأما ضرره العقلى ، فان العقل يحمل صاحبه أن يفعل ما ينبغى على الوجه الذى ينبغى ، ويوجب له أن يدبر حياته ومعاشه ، ولهذا كان حسن التدبير فى المعاش من أبلغ ما يدل على عقل صاحبه ، فمن تعدى الطور النافع إلى طور الاسراف الضار ، فلا ريب أن ذلك لنقص عقله ، فانه يستدل على نقص العقل بسوء التدبير .

وأما ضرره البدنى ، فان من أسرف بكثرة المأكولات والمشروبات انضر بدنه واعتراه أمراض خطيرة ، وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الاسراف فى الغذاء ، ثم إنه ينضر أيضاً من وجه آخر ، فان من عود بدنه شيئاً اعتاده ، فاذا عوده كثرة الأكل أو أكل الأطعمة المتنوعة فربما تعذرت فى بعض الأحوال لفقر أو غيره ، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتاداً له فتعجز صحته .
وأما ضرره المالى فظاهر ، فان الاسراف يستدعى كثرة النفقات ، ولهذا قال تعالى (ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) أى تلام على مافعات ، لأنه فى غير طريقه (محسوراً) فارغ اليد ، وإخباره أنه لا يحب المسرفين ، دليل على أنه يحب المقتصدين ، ففى هذه الآية إثبات صفة المحبة لله ، وأنها تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمال والأحوال كلها ، ف سبحانه من جعل كتابه كنوزاً للعالم النافعة المتنوعة .

فائدة : ذكر الله فى كتابه عدة آيات فيها وصف القلوب بالمرض وبالعمى وبالقسوة ، وبجعل الموانع عليها من الران ، والاكنة والحجاب ، وبموتها وبمحيرتها ؛ فاعلم أن القلب يكون صحيحاً ويكون مريضاً ، ويجتمع فيه المرض والموانع من وصول الصحة ، وقد يكون ليناً وقد يكون قاسياً فأما القلب الصحيح فهو السليم من جميع هذه الآفات ، وهو القلب الذى صحت وقوت قوته العلمية ، وقوته العملية الارادية ، وهو الذى عرف الحق فاتبعه بلا تردد ، وعرف الباطل فاجتنبه بلا توقف ، فهذا هو القلب الصحيح الحى السليم ، وصاحبه من أولى النهى وأولى الحجبى وأولى الالباب وأولى الابصار ، والمحبت لله والمنيب اليه

وأما القلب المريض فهو الذى انحرفت أحد قوتيه العلمية أو العملية أو كليهما فمرض الشبهات والشكوك الذى هو مرض المناققين لما اختل علمهم وبقيت قلوبهم فى شكوك واضطراب ولم تتوجه إلى الخير ، كان مرضها مهلكاً

ومرض الشهوات الذى هو ميل القلب إلى المعاصى مغل بقوة القلب العملية ، فان القلب الصحيح لا يريد ولا يميل إلا إلى الخير أو إلى ما أباحه الله له ، ففى رأيت القلب ميلاً إلى المعاصى سريع الاقبياد لها ، فهو مريض وهو سريع الافتتان عند وجود أسباب الفتنة ، كما قال تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض)

وأما القلب القاسى ، فهو الذى لا يلين لمعرفة الحق ، وإن عرفه لا يابن للانقياد له ، فتأنيه

المواظظ التي تلين الحديد وقلبه لا يتأثر بذلك ، اما لقسوته الاصلية أو لعقائده منحرفة اعتقدها ورسخ قلبه عليها وصعب عليه الاتقياد للحق إذا خالفها ، وقد يجتمع الامران ، وأما الرآن والا كنة والاعظية التي تكون على القلوب ، فانها من آثار كسب العبد وجرائمه ، فاذا أعرض عن الحق وعارض الحق ، وجاء الحق فردّه وفتح الله له أبواب الرشد فأغلقها عن نفسه ، عاقبه الله بهذا العمل بأن سد عنه طرق الهداية التي كانت مفتوحة له ومتيسرة فتكبر عنها وردّها ، فطبع على قلبه وختم عليه وأحاطت به الجرائم ورائت عليه الذنوب وغطت قلبه وجعلت بينه وبين الحق حجاباً وأقفلت القلب ، فهذه المعاني التي أ كثر الله من ذكرها في كتابه ، إذا عرفت هذه الضوابط المذكورة في هذه الفائدة اتضحت لك معانيها وعرفت بذلك حكمة الله وعدله في عقوبة هذه القلوب ، وأن الله ولاهم ما تولوه لأنفسهم ورضوه لها

فائدة : قوله تعالى (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) جمع الله فيها الحقوق الثلاثة : الحق الختص بالله الذي لا يصلح لغيره ، وهو العبادة في قوله (وتسبحوه بكرة وأصيلا) والحق الختص بالرسول ، وهو التوقير والتعزير ، والحق المشترك ، وهو الايمان بالله ورسوله .

فائدة : ذكر الله اليقين في مواضع كثيرة من القرآن في المحل العالي من الثناء ، أخبر أن اليقين هو غاية الرسل لقوله (وليكون من الموقنين) وأنه بالصبر واليقين تنال الامامة في الدين وأن الآيات إنما ينتفع بها الانتفاع الكامل (الموقنون) حقيقة اليقين هو العلم الثابت الراسخ التام المثمر للعمل القلبي والعمل البدني .

أما آثار اليقين العلمية فتلاث مراتب : علم اليقين . وهي العلوم الناتجة عن الادلة والبراهين الصادقة الخبرية ، كجميع علوم أهل اليقين الحاصلة عن خبر الله وخبر رسوله وأخبار الصادقين . وعين اليقين وهي مشاهدة المعلومات بالعين حقيقة ، كما طالب الخليل ابراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، فأراه الله ذلك بعينه ، وغرضه عليه السلام الانتقال من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ، ووحق اليقين : وهي المعلومات التي تحقق بالذوق ، كذوق القلب لطعم الايمان ، والذوق باللسان للأشياء الحسة .

وأما آثاره القلبية ، فسكون القلب وطماننته ، كما قال ابراهيم (ولكن ليطمئن قلبي) وقال ﷺ : البر ما اطمان اليه القلب . وفي لفظ : الصديق ما اطمان اليه القلب . فان العبد إذا وصل إلى درجة اليقين في علومه اطمان قلبه لعقائده الايمان كلها ، واطمان قلبه لحقائق الايمان وأحواله التي تدور على محبة الله وذكره ، وهما متلازمان ، قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فتسكن القلوب عند الاخبار فلا يبقى في القلب شك ولا ريب في كل خبر أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله ، بل

يفرح بذلك مطمئناً علماً أن هذا أعظم فائدة حصّتها القلوب . ويطمئن عند الأوامر والنواهي
مكلاً للمأمورات تاركاً للمنهيات راجياً لثواب الله واثقاً بوعدده .

ويطمئن أيضاً عند المصائب والمكاره فيمقلها بانشرار صدر واحتساب ، ويعلم أنها من
عند الله فيرضى ويسلم ، فيخف عليه حملها ويهون عليه ثقلها ، وقد علم بذلك آثارها البدنية ، فإن
الأعمال البدنية مبنية على أعمال القلوب ، فأهل اليقين هم أكمل الخلق في جميع صفات الكمال ،
فإن اليقين روح الأعمال والأخلاق وحاملها ، والله هو الموفق الواهب له ولأسبابه

فائدة : الظن ورد في القرآن على وجهين ، وجه محمود ووجه مذموم :

أما الم محمود ففي كل مقام مدح وجزاء بالخير والثواب ، فانه بمعنى العلم واليقين مثل قوله تعالى
(الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم) أى يتيقنون ذلك ، ومثل قوله (انى ظننت انى ملاق حسابه)
وأما المذموم ، ففي أغلب الآيات الواردة في الظن ، مثل (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن
لا يغنى من الحق شيئاً ، وإن هم إلا يظنون) وهو كثير ، فهذا وما أشبهه فيمن قدم الظنون
الكاذبة على الاخبار الصادقة ، لأن الظن في الاصل يحتمل الصدق والكذب ، ولكنه إذا ناقض
الصدق قطعنا بكذبه .

فائدة : قوله تعالى (يحق الله الربا ويربى الصدقات) وقوله (وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال
الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون) ندل الآيتان
على أن الزيادة من المحرمات ، وخصوصاً المسكاسب المحرمة ، نقص في البركة ، وقد ينسحت المال
بذاته عاجلاً أو آجلاً ، وعلى أن من أخرج شيئاً لله أو فعل شيئاً لله ، فإن الله يزيده وينزل له البركة
فإن المال وإن نقص حساً بما يخرج منه لله ، فانه يزداد معنى ووصفاً ، وقد يفتح للعبد بسبب ذلك
أبواب من الرزق أو يدفع عن العبد من أسباب النقص ما كان يصدد أن يصيبه .

فائدة : الفرح ورد في القرآن محموداً مأموراً به في مثل قوله (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك
فليفرحوا هو خير مما يجمعون) فهذا فرح بالعلم والعمل بالقرآن والاسلام ، وكذلك قوله (فرحين
بما آتاهم الله من فضله) فهذا فرح بثواب الله .

وورد منهياً عنه مذموماً ، مثل الفرح بالباطل وبالرياسات والدنيا المشغلة عن الدين في مثل قوله
تعالى (إنه لفرح فخور) وقوله عن قارون (قال له قومه لاتفرح إن الله لا يحب الفرحين)
وما أشبه ذلك ، فصار الفرح تبعاً لما تعلق به ، إن تعلق بالخير ونمراه فهو محمود ، وإلا فهو مذموم

فائدة : ورد السعي في القرآن في آيات كثيرة ، والمراد به الاهتمام والجهد في العمل ، مثل قوله
(ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً) وقوله (إذا نودى

للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) وقوله (إن سعيكم لثى) وآيات كثيرة كلها بمعنى الاهتمام بالعمل ، إلا في مثل قوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى - وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) فالمراد بذلك العدو ، وهو يتضمن الأول وزيادة

فائدة : أمر الله بالصدق وأثنى على الصادقين ، وذكر جزاء الصادقين في آيات كثيرة ، والمراد بالصدق أن يكون العبد صادقاً في عقيدته ، صادقاً في خلقه ، صادقاً في قوله وعمله ، فهو الذى يحبى بالصدق في ظاهره وباطنه ، ويصدق بالصدق لمن جاء به ، كما قال تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) ولما كان من هذا وصفه هو أعلى الخلق في كل حالة ذكر جزاءه أعلى الجزاء وأفضله فقال (لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويمجزهم أجراً بأحسن الذى كانوا يعملون) وخواص أهل هذا الوصف هم الصديقون الذين ليس بعد درجة النبوة أعلى منهم ، قل تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) والمراد الايمان الكامل ، كما قال النبي ﷺ لما ذكر لأصحابه الغرف العالية التى يترأها أهل الجنة من علوها وارتفاعها ونورها كالكوكب الدرى فى الأفق الشرق أو الغربى ، فقالوا : يا رسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم ؟ فقال بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وهؤلاء هم الهداة المهديون ، كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

فالصديقية شجرة أصلها العلوم الصحيحة والعقائد السلفية المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله وقوامها وروحها الاخلاص الكامل لله والانابة اليه ، والرجوع اليه فى جميع الاحوال رغبة ورهبة ومحبة وتعظيماً وخضوعاً وذلاً لله ، وثمراتها الاخلاق الحميدة والاقوال السديدة والاعمال الصالحة والاحسان فى عبادة الخالق ، والاحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الاحسان ، وجهاد جميع أصناف المنحرفين ؛ فهى فى الحقيقة القيام بالدين ظاهراً وباطناً وحالاً ودعوة إلى الله ، والله هو الموفق وهو المعين لكل من استعان به صدقاً .

فائدة : قوله تعالى فى المصطفين الذين أوردتهم الله الكتاب (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقصد ومنهم سابق بالخيرات) اشترك هؤلاء الثلاثة فى أصل الايمان ، وفى اختيار الله لهم من بين الخليقة وفى أنه من عليهم بالكتاب ، وفى دخول الجنة ، واقتروا فى تكميل مراتب الايمان ، وفى مقدار الاصطفاء من الله وميراث الكتاب ، وفى منازل الجنة ودرجاتها بحسب أوصافهم أما الظالم لنفسه ، فهو المؤمن الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ؛ وترك من واجبات الايمان ما لا يزول معه الايمان بالكافية ، وهذا القسم ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : من يرد القسيامة وقد كفر عنه السيئات كلها . إما بدعاء أو شفاعة أو آثار خيرية

يلتفع بها في الدنيا أو عذب في البرزخ بقدر ذنوبه ، ثم رفع عنه العقاب وعمل الثواب عمله ، فهذا من أعلى هذا القسم وهو الظالم لنفسه .

القسم الثاني : من ورد القيامة وعليه سيئات ؛ فهذا توزن حسناته وسيئاته ثم هم بعد هذا ثلاثة أنواع .

أحدها : من ترجح حسناته على سيئاته فهذا لا يدخل النار ، بل يدخل الجنة برحمة الله وبحسناته ، وهي من رحمة الله .

ثانيها : من تساوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء هم أصحاب الأعراف ، وهي موضع مرتفع بين الجنة والنار يكونون عليه ، وفيه ما شاء الله ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة ، كما وصف ذلك في القرآن .

ثالثها : من رجحت سيئاته على حسناته فهذا قد استحق دخول النار ، إلا أن يمنع من ذلك مانع ، من شفاعة الرسول له ، أو شفاعة أحد من أقاربه أو معارفه ممن يجعل الله لهم في القيامة شفاعة لعلو مقاماتهم على الله وكرامتهم عليه ؛ أو تدركه رحمة الله المحضة بلا واسطة وإلا فلا بد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه ، ثم مآله إلى الجنة ؛ ولا يبقى في النار أحد في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان ، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها .

وأما المقتصد فهو الذي أدى الواجبات وترك المحرمات ، ولم يكثر من نوافل العبادات ، وإذا صدر منه بعض المفوات بادر إلى التوبة فعاد إلى مرتبته ، فهؤلاء أهل اليمين ، وأما من كان من أصحاب اليمين (فسلام لك من أصحاب اليمين) فهؤلاء سلموا من عذاب البرزخ وعذاب النار وسلم الله لهم إيمانهم وأعمالهم فأدخلهم بها الجنة ، كل على حسب مرتبته .

وأما السابق إلى الخيرات فهو الذي كل مراتب الاسلام وقام بمرتبة الاحسان ، فعبد الله كأنه يراه ، فان لم يكن يراه فانه يراه ، وبذل ما استطاع من النفع لعباد الله ، فكان قلبه ملائماً من محبة الله والنصح لعباد الله ، فأدى الواجبات والمستحبات ؛ وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات المنقصة لدرجته ، فهؤلاء هم صفوة الصفوة ، وهم المقربون في جنات النعيم إلى الله ، وهم أهل الفردوس الاعلى ، فان الله كما أنه رحيم واسع الرحمة ، فانه حكيم ينزل الأمور منازلها ويعطي كل أحد بحسب حاله ومقامه ، فكما كانوا هم السابقين في الدنيا إلى كل خير ، كانوا في الآخرة في أعلى المنازل ، وكما تخيروا من الأعمال أحسنها ، جعل الله لهم من الثواب أحسنه ، ولهذا كانت عين التسليم أعلى أشربة أهل الجنة ؛ يشرب منها هؤلاء المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً في بقية أشربة الجنة التي لا تقص فيها بوجه من الوجوه ، كما قال تعالى (ومزاجه من تسليم عيسى

يشرب بها المقربون) وهكذا بقية ألوان وأصناف نعيم الجنة لهؤلاء السابقين منه أغلاه وأكمله وأنفسه ، وإن كان ليس في نعيم الجنة دنى ولا نقص ولا كدر بوجه من الوجوه ، بل كل من تنعم بأى نعيم من نعيمها لم يكن في قلبه شيء أعلى منه ، فإن الله أعطاهم وأرضاهم ، وخيار هؤلاء الأنبياء على مراتبهم ، ثم الصديقون على مراتبهم ، ولكل درجات ماعملوا ، فسبحان من فأتى بين عباده هذا التفاوت العظيم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

فائدة : ورد في القرآن (الظلم) بمعنى الكفر والشرك الأكبر ، كما قال تعالى (والكافرون هم الظالمون) وقال (إن الشرك لظلم عظيم) ونحوهما . وورد كثيراً بمعنى الجرائم التي دون الشرك كما سبق في الظالم لنفسه ؛ ومثل (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) وورد أيضاً عدة آيات يدخل فيها هذا وهذا ، ومثل هذا (الفسق) والمعصية والذنوب والسيئة والجرم والخطيئة ونحوها ، فانها وردت في القرآن لكل واحد من هذه الثلاثة ، فتفسر في كل مقام بما يناسب ذلك المقام .

فائدة : قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) جمعت السعادة وجميع الأسباب التي تنال بها السعادة ، وهي ثلاثة أشياء : فعل المأمور ، واجتناب المحذور ، وتصديق خبر الله ورسوله . فهذه الثلاثة يدخل فيها الدين كله ، وذلك أن قوله (أعطى) أى جميع ما أمر به من قول وعمل ونية (واتقى) جميع ما نهى عنه من كفر وفسوق وعصيان (وصدق بالحسنى) بما أخبر الله به ورسوله من الجزاء ، فصدق بالتوحيد وحقوقه وجزاء أهله ، فمن جمع ثلاثة الأمور يسره الله لليسرى ، أى لكل حالة فيها تيسير أموره وأحواله كلها ، ومقابل هذا قوله (وأما من بخل) أى ترك ما أمر به - ليس خاصاً بالنفقة - بل معنى البخل المنع ، فإذا منع الواجبات المتوجهة إليه ، القولية أو الفعلية أو المالية ، فقد بخل (واستغنى) أى رأى نفسه غير مفقر إلى ربه ، وذلك عنوان الكبر والتجبر ، على محارم الله (وكذب بالحسنى) أى بلا إله الا الله وحقوقها وجزاء المقيمين لها والتاركين لها (فسنيسره لليسرى) أى لكل حالة عسرة في معاشه ومعاده .

فائدة : خطابات القرآن للناس خبراً وأمرأً ونهيأً قسمان :

أحدهما : وهو الأكثر جداً خطاب عام يخاطب به جميع الناس ويتعلق الخبر أو الحكم فيهم في حالة واحدة ، مثل الخبر عن الله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر ، ومثل الأمر بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والبر والصلة والعدل والنهي عن ضد ذلك ، وهذا لأن القرآن هداية وبيان للناس ، وهم مستوون في تعلق تلك الأحكام فيهم ما لم يمنع مانع عجز عن بعض الواجبات فيرتب عليه حكمه .

القسم الثانى : الخطاب الدام من جهة ، والخاص من جهة أخرى ، وذلك كالخطاب المتعلق بالعبادات

المعلقة على أوقاتها ، كالأمر بالصلاة الخمس لأوقاتها ، كقوله (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر) وبالإسكاف عن المفطرات ، مثل قوله (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) فمن جهة أنه موجه إلى جميع المكافين فانه خطاب عام لجميع أهل المشارق والمغارب مخاطبون بذلك ، ومن جهة أن لكل موضع حكماً بنفسه ، فانه معلوم أن الوقت الذي تطلع فيه الشمس على هؤلاء أو تغرب ، أو يطلع الفجر أو تزول الشمس غير الوقت الذي توجد فيه هذه الأمور عند الآخرين ، فكل مخاطب بحسب حاله وحسب الموضع الذي فيه بلارب ، ونظير هذا الأمر باستقبال القبلة للصلاة موجه إلى جميع أهل الأرض ومع ذلك فكل قطر ومحل فلهم جهة يتوصلون بها إلى الكعبة ، ولهذا صرح الله بهذا المعنى بقوله (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) فالقصد واحد والطرق والوسائل إلى هذا المقصود متباينة وكل أحد مأثور بطريقه الخاص ، ونظير ذلك الأخبارات بطواع الشمس والقمر والكواكب وغروبها لو تحذلق جاهل فقال إن مثل قوله (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة) أى في البحر برؤية العين ، وقوله (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) ينافى المعلوم ، أن الشمس والقمر والكواكب لا تغرب عن الدنيا بالكافة ، فيقال هذا من الجهل والعجمة بكان سحيق عن الحقائق ، وذلك أن الله لم يقل وجدها تغرب عن جميع الأرض أو تطلع على جميع الأرض حتى يكون لهذا الجاهل اعتراض ، بل أخبر عن غروبها وطلوعها عن ذلك الموضع وذلك القطر ، كما يفهم الناس كلهم سابقاً ولاحقاً ، ولا فرق بين الأخبارات والاحكام بوجه ، ومن المعلوم أن لكل أهل قطر مطلعاً ومغرباً ، فهذه الخطابات في الاحكام والأخبارات في غاية الاحكام التي لا يتطرق اليها اعتراضات المعارض ، ومن اعترض على شىء من ذلك عرف الناس أن ذلك من آثار جهله وحقه ، وهذا واضح لا يحتاج إلى كل هذا ، يفهمه الذكى والبليد ، وهذا مقتضى كون القرآن عربياً ، أنزله الله بما يعقله العباد .

فائدة : ورد في القرآن عدة آيات فيها ذكر الخلود في النار على ذنوب وكبائر ليست بكفر مثل قوله تعالى (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) - (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) (بل من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فما الجمع بينها وبين النصوص المتواترة من الكتاب والسنة أنه لا يخلد في النار إلا الكفار ، وأن جميع المؤمنين مهما عملوا من المعاصي التي دون الكفر فانهم لا بد أن يخرجوا منها ، فهذه الآيات قد اتفق السلف على تأويلها وردّها إلى هذا الأصل المجمع عليه بين سلف الامة ، وأحسن ما يقال فيها إن ذكر الخلود على بعض الذنوب التي دون الشرك والكفر انهما من باب ذكر السبب ، وأنها سبب للخلود في

النار لشناعتها ، وأنها بذاتها توجب الخلود إذا لم يمنع من الخلود مانع ، ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الإيمان مانع من الخلود ، فتنزل هذه النصوص على الأصل المشهور ، وهو أنه لا تتم الأحكام إلا بوجود شروطها وأسبابها وانتفاء موانعها ، وهذا واضح والله الحمد ، مع أن بعض الآيات المذكورة فيها ما يدل على أن الخطيئة المراد بها الكفر ، لأن قوله (وأحاطت به خطيئته) دليل على ذلك ، لأن المعاصي التي دون الكفر لا تحيط بصاحبها ، بل لا بد أن يكون معه إيمان يمنع من إحاطتها ، وكذلك قوله (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) فالمعصية تطلق على الكفر وعلى الكبائر وعلى الصغائر ؛ ومن المعلوم أنه إذا دخل فيها الكفر زال الاشكال .

فائدة : ورد في القرآن آيات كثيرة فيها مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها ، وورد أيضاً آيات أخر فيها مضاعفة أكثر من ذلك ، فما وجه ذلك .

فيقال : أما مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها فلا بد منها في كل عمل صالح كما قال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) في عدة آيات

وأما مضاعفة العمل أكثر من ذلك فله أسباب ، إما متعلقة بنفس العامل أو بالعمل ومزيتها أو نتائجه وعمراته أو بزمانه أو مكانه

فمن أعظم أسباب مضاعفة العمل إذا حقق العبد في عمله الاخلاص للمعبود والمتابعة للرسول فضاعفة الأعمال تبع لما يقوم بقلب العامل من قوة الاخلاص وقوة الإيمان .

وكذلك من الأسباب إذا كان العمل ناشئاً عن عقيدة صحيحة سلفية خالصة متلقاة من الكتاب والسنة ، فهذا العبد يكون اليسير من عمله أبرك من الكثير من عمل من ليس كذلك ومن ذلك ترك ما تهواه النفوس من الفواحش ، مع قوة الداعي اليها لبرهان الإيمان والتوكل والاخلاص .

ومن أسباب المضاعفة أن يكون العمل فيه نفع للمسلمين وغناء ، وذلك كالجهاد في سبيل الله ، الجهاد بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان ، كما قال تعالى في نفقات أهل هذا الصنف (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنفقت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)

ويدخل في هذا سلوك طريق التعليم والتعلم للعلوم الشرعية وما يعين عليها ، وفي الحديث « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة »

ومن ذلك العمل والسعي في المشاريع الخيرية التي ينتفع بها المسلمون في دينهم ودنياهم ويتسلسل نفعها ، ومن ذلك العمل الذي إذا عمله العبد كثر مشاركوه والمقتدون به فيه

ومن ذلك إذا كان العمل له وقع عظيم ونفع كبير ، كأنجاء المضطرين ، وكشف كربات
المكروبين ، فكم من عمل من هذا النوع هدم الله به ذنوب العبد كلها وأوصله به إلى رضوانه
وقصة البغي التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش شاهدة بذلك

ومن ذلك علو مقام العامل عند الله ورفعة درجته ، كما قال تعالى (يا نساء النبي لستن كأحد
من النساء إن اتقيتن) وقوله قبلها (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرتين)
ومن ذلك الصدقة من كسب طيب وقوة إخلاص

ومن ذلك العمل الواقع في زمان فاضل أو مكان فاضل .

ومن أهم وأعظم ما يضاعف به العمل تحقيق مقام الاحسان في القيام بسودية الله ، وفي الحديث
« ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها » فالصلاة والقراءة والذكر وغيرها من العبادات إذا
كانت بقوة حضور قلب وإيمان كامل ، فلا ريب أن بينها وبين عبادة الغافل درجات تنقطع دونها
أعناق المطي .

وأسباب مضاعفة الثواب كثيرة ، ولكن نبهنا على أصولها .

ومما هو كالمتمفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في جميع الاوقات بقوة الاخلاص لله
والنصح لعباد الله ، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيء من الأعمال ، وأهلها
سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب ، وبقية الأعمال تبع لها ، فأهل الاخلاص والاحسان والذكر
هم السابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم .

فائدة : قد أمر الله في كتابه بالتفكير والتدبر والنظر والتبصر وغيرها من الطرق التي تنال
بها العلوم ، وأثنى على أهلها ، وأخبر أن كتابه أنزل لهذه الحكم ، وأثنى على العلم واليقين ومدح
أهلها ونهج جميع طريق يوصل اليها .

فاعلم أن الذي يجمع أشقات هذه الطرق وأنواعها وأجناسها ثلاثة طرق كلية . أحدها طريق
الاخبارات الصادقة . والثاني طريق الحس . والثالث طريق العقل ، ووجه الحصر أن المعلومات
إما أن تدرك بحاسة السمع أو البصر أو اللمس أو الذوق ؛ وإما أن تدرك بالعقل ، وإما أن تنال بالاخبار
وكل واحد من هذه الثلاثة قد يقارن الآخر ، وخصوصاً العقل والاخبار الصادقة فانهما لا يتفارقان
وقد يكون العلم ضرورياً بديهياً يضطر الانسان الى علمه والتصديق به من غير حاجة إلى
زيادة نظر وتفكير . وقد يكون نظرياً يحتاج إلى ذلك .

ثم العلم بهذه الأمور مراتب متفاوتة .

وأعلى درجات العلم واليقين وأوضحها وأنفعها للعباد خبر الله وخبر رسله ، فانه لا أصدق من
الله قتيلاً ، ولا أصدق منه حديثاً (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) فكل ما قاله الله وقاله رسوله

فهو الحق والصدق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، وهو يهدي إلى كل دليل عقلي ونقلي ، وفي خبر الله وخبر رسله من البيان العظيم والتفصيلات لجميع أجناس العلوم النافعة مالا تصل اليه علوم الخلائق كلهم أولهم وآخرهم .

وإذا أردت أن تعرف أن الحق الصحيح هو ما قاله الله وقاله رسوله ، وأن ما ناقضه وناقاه فهو باطل بلا ريب مبنى على جهالات ومواد فاسدة .

فانظر إلى أصول الدين وقواعده وأساسه كيف اتفقت عليها الأدلة العقلية والعقلية والحسية انظر إلى توحيد الله ووجوب تفرده وإفراده بالوحدانية وتوحيده بصفات الكمال ، كيف كانت الكتب السماوية مشحونة منها ، بل هي المقصود الأعظم منها ، وخصوصاً القرآن الذي هو من أوله إلى آخره يقرر هذا الأصل الذي هو أكبر الأصول وأعظمها

وانظر كيف اتفقت جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ على تقرير توحيد الله وتفرده بالوحدانية وسعة الصفات وعظمتها من سعة العلم والحكمة وعموم القدرة والارادة وشمول الحمد والمك والمجد والجلال والجمال والحسن والاحسان في أسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم انظر إلى هذا الأصل العظيم في قلوب سادات الخلق أولى الالباب الكاملة والعقول التامة كيف تجده أعظم من كل شيء ، وأقوى وأكبر من كل شيء ، وأوضح من كل شيء ، وأنه مقدم عندهم على الحقائق كلها ، وأنهم يعلمونه علماً ضرورياً بديهياً قبل الأدلة النظرية ، ويعلمون أن كل ما عارضه فهو أبطل الباطل ، ثم انظر إلى كثرة البراهين المنقولة والمعقولة والمحسوسة الشاهدة لله بالوحدانية

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فوجود جميع الأشياء في العالم العلوى والسفلى وبقاؤها وما هي عليه من الأوصاف المتنوعة كل ذلك من الأدلة والبراهين على وجود مبدعها وممدها بكل ما تحتاج اليه ، ومن أنكر هذا فقد باهت وكابر وأنكر أجلى الامور وأعظم الحقائق .

ومن ههنا تعلم أن الماديين الملمحين أضل الخلق وأجهلهم وأعظمهم غروراً واغتراراً حيث اغتروا حين وقفوا على بعض علوم الكون الارضى المادى الطبيعى ، وقفت هقولهم القاصرة عندها واستولت عليهم الخيرة وتكبروا بمعارفهم الضئيلة وقالوا : تثبت ما وصلت اليه معارفنا ونفى ما سواه ، فتعرف بهذا أن نفهم هذا جهل وباطل باتفاق العقلاء ، فان من نفى مالا يعرفه فقد برهن على كذبه وافترائه ، فكما أن من أثبت شيئاً بلا علم فهو ضال غاوى ، فكذلك من نفى شيئاً بلا علم ، وتعرف أيضاً أن إثباتهم لعلوم الطبيعة التي عرفوها وانتهت اليها معارفهم أن هذا الاثبات منهم قاصر لم يصلوا إلى غايته وحقيقته ، فلم يصلوا بذلك إلى خالق الطبيعة ومبدعها ، ولم

يعرفوا المقصود من نظامها وسببيتها ؛ بل عرفوا ظاهراً منها وهم عن النافع غافلون ، فأنبتوا بعض السبب وعموا عن المقصود ، وهم في علمهم هذا حائرون ، لا تثبت لهم قدم على أمر من الأمور ؛ ولا تثبت لهم نظرية صحيحة مستقيمة ، فهم دائماً في خبط وخبط وتناقض ، وكلما جاءهم من البراهين الحق ما يبطل قولهم قالوا : هذا من فلتات الطبيعة ، وكلما برز مبرز من فلولهم وأذكيائهم ابتكر له طريقة غير طريقة إخوانه ؛ فصدق عليهم قوله تعالى (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج) وقوله (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)

والمقصود أن هذا الأصل العظيم قد دلت عليه جميع الأدلة بأجناسها وأنواعها ، ودل عليه الشرع المحكم والقدر العام المنظم ، ولم يقدح فيه إلا هؤلاء الضلال الذين كان قدحهم فيه أسقط اعتبارهم وبرهن على فساد عقولهم .

وانظر إلى الأصل الثاني وهو إثبات الرسالة ، وأن الله قد أقام على صدق رسله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر ، وخصوصاً محمد ﷺ ، فإن أثبت نبوته وأدلة رسالته وصدقه متنوعة : سيرته وأخلاقه وما جاء به من الدين القويم ، وحشه على كل خلق كريم وعمل صالح ونفع وإحسان وعدل ، ونهيه عن ضد ذلك ، وما جاء به من الوحي : الكتاب والسنة ، كله جملة وتفصيلاً براهين على نبوته وصدقه مع ما أكرمه الله به من النصر العظيم وإظهار دينه على الأديان كلها ، ومن اجابة الدعوات وحلول أنواع البركات التي لا تعد أنواعها فضلاً عن أفرادها ، وهذا يقطع النظر عن شهادة الكتب السابقة ، وعن عجز المعارضين له في مقامات التحدى كلها وعجزهم عن نصر باطلهم ولا يزال الباطل بين يدي ما جاء به الرسول مخذولاً راحقاً ، بحيث أن القائمين بما جاء به الرسول القائمين بمعرفة دينه يتحدثون جميع أهل الأرض أن يأتيوا بصلاح أو فلاح أو رقي حقيق أو سعادة حقيقية بجميع وجوها ، وأنه محال أن يتوصل إلى شيء من ذلك بغير ما جاء به الرسول وأرشد إليه ودل الخلق عليه ، ولولا الجهل بما جاء به الرسول والتعصبات الشديدة من الأعداء والمقاومات العنيفة ، واقامة الحواجز المتعددة العنيفة لمنع الجماهير والذهاء من رؤية الحق الصريح والدين الصحيح ، لم يبق على وجه الأرض دين سوى دين محمد ﷺ لدعوته وإرشاده وحشه على كل صلاح وإصلاح وخير ورشد ، ولكن مقاومات الأعداء ونصر القوة للباطل بالتزويرات والتزويرات وتقاعد أهل الدين عن القيام به ونصرته هي التي منعت أكثر الخلق من الوقوف على حقيقة

ثم انظر إلى الأصل الثالث وهو اثبات المعاد والجزاء كيف اتفقت الكتب السماوية والرسل العظام وأتباعهم على اختلاف طبقاتهم وتباين أقطارهم وأزمانهم وأحوالهم على الإيمان به والاعتراف

الناس به ، وكم أقام الله عليه من الأدلة النقلية والعقلية . وكذلك الحسية المشاهدة ما يدل أكبر دلالة عليه ، وكم أشهد عباده في هذه الدار أنموذجاً من الثواب والعقاب ، وأراهم حلول المثالات بالمكذبين ، وأنواع العقوبات الدنيوية بالمجرمين ؛ كما أراهم نجاة الرسل ومن تبعهم من المؤمنين وإكرامهم في الدنيا قبل الآخرة ، وكم أبطل الله كل شبهة يقترح بها المكذبون بالمعاد ، كما أقام الأدلة على إبطال الشبه الموجهة من المكذبين إلى توحيد الله وصدق رسله ، وبين سفاهتهم وفساد عقولهم ، وأنه ليس لهم من المستندات على إنكار ذلك إلا استبعادات مجردة ؛ وقياس قدرة رب العالمين على قدر المخلوقين .

والمقصود أن هذه الأصول العظيمة قد قامت البراهين القواطع عليها من كل وجه وبكل اعتبار ، وجميع الحقائق الصحيحة غيرها لم يبق على ثبوتها وعلمها عشر معشار ما قام على هذه الأصول من البراهين المتنوعة ؛ ففي هذا دليل على أن كل من أثبت معلوماً أو حقيقة من الحقائق بطريق عقلي أو خبري أو حسي ، ثم نفى مع ذلك واحداً من هذه الأصول الثلاثة التي هي أساس الدين ، فقد كابر عقله وحسه وعلمه ونادى على نفسه بالتناقض العظيم ، لأن الطرق التي دلت على اثبات معلوماته هي وأضعافها وأضعاف أضعافها وما هو أقوى منها وأوضح قد دلت على التوحيد والرسالة والمعاد .

واعلم أن المعلومات بخبر الله وخبر رسله عامة يدخل فيها الأخبار عن الله وعن ملائكته وعن الغيوب كلها وأمور الشرع والقدر ، وهي الأخبار المعصومة الصادقة التي يعلم كذب ما خالفها وبطلانها . ولنكتف بهذا الانموذج من الأمثلة ، والله أعلم .

وبعد هذا إخبار الصادقين عن المواضع والحوادث والوقائع التي شاهدوها ، وهذا النوع بحسب صدق المخبرين ، وتواتر خبرهم يفيد العلم القطعي . وكذلك أخبار الصادقين عن العلوم التي سمعوها والالفاظ التي نقلوها ، وأصدق الناقلين هنا حملة الشريعة المحمدية ، لشدة عنايتهم وكمال صدقهم وقوة دينهم ، وأنهم بالخصوص حفظوا عن الخطأ العمومي ، والاتفاق على غير الصواب

ومن الأمور التي تعلم بالعقل أن العقول الصحيحة التي لم تغير فطرتها ، ولم تقسد بالعقائد الفاسدة ، تعلم علماً يقيناً حسن التوحيد والاخلاص لله ، كما تعلم قبح الشرك ، وتعلم حسن الصدق والعدل والاحسان إلى المخلوقين ، كما تعلم قبح ضده ، وتعلم وجوب شكر المنعم ووجوب بر الوالدين وصلة الأقارب ، والقيام بحق من له حق عليك ، وتستحسن كل صلاح وإصلاح ، وتستقبح كل فساد وضرر ، ومن أشرف ما يعلم بالعقل أنه مركز في العقول أن الكمال المطلق لله وحده ، وأن له الحكمة التامة في خلقه وشرعه ، وأنه لا يخلق به أن يترك خلقه سدى

لا يؤمرون ولا ينهون ولا يشابون ولا يعاقبون . ومن المعلوم بالحس ما يدرك بالحواس ، كسمع الأصوات وإبصار الأعيان وهو من أتم المعارف ، فانه ليس الخبر كالمعاينة ، ومما يدرك بالحس ما يدرك بالشم ، كشم الروائح الطيبة والخبيثة ، وما يدرك باللمس ، كالحرارة والبرودة ، وما يدرك بتحليل الأشياء والوقوف على موادها وجواهرها وصفاتها ، كل هذا من مدركات الحس وبالجملة فطرق العلم إلى المعلومات كثيرة جداً ، وكلما كان الشيء أعظم ومعرفته أهم ، كانت الطرق الموصلة إليه أكثر وأوضح وأصح وأقوى ؛ كما تقدمت الإشارة إلى التوحيد والرسالة والمعاد ، والله أعلم .

فائدة : لما ذكر البارئ نعمته على العباد بتيسير الركوب للأنعام والفلك قال (لتستقوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ذكر فيها أركان الشكر الثلاثة : وهى الاعتراف والتذكر لنعمة الله ، والتحدث بها والثناء على الله بها ، والخضوع لله والاستعانة بها على عبادته ، لأن المقصود من قوله (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) الاعتراف بالجزاء والاستعداد له ، وأن المقصود من هذه النعم أن تكون عوناً للعبد على ما خلق له من طاعة الله ، وفى قوله (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) تقييدها فى هذه الحالة وقت تبوء النعمة ، لأن كثيراً من الخلق تسكرهم النعم وتغفلهم عن الله ، وتوجب لهم الأشر والبطر . فهذه الحالة التى أمر الله بها هى دواء هذا الداء المهلك ، فانه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعم الله ، وأن أصولها وتيسيرها وتيسير أسبابها وبقائها ودفع ما يضاهاها أو ينقصها كله من فضل الله وإحسانه ليس من العبد شيء ، خضع لله وذل وشكره وأثنى عليه وبهذا تدوم النعمة ويبارك الله فيها ، وتكون نعمة حقيقية ؛ فأما إذا قابها بالأشر والبطر ونسى المنعم ، وربما تكبر بها على عباد الله ، فهذه نقمة فى صورة نعمة ، وهى استدراج من الله للعبد سريعة الزوال وشيكة بالعقاب عليها والفكالك ، نسأل الله أن يوزعنا شكر نعمه .

فائدة : بل فوائد عظيمة فى ذكر شيء من الاسباب التى ذكرها الله فى كتابه

موصلة إلى المطالب العالمية

لا ريب أن من حكمة الله ورحمته أنه جعل العباد مفتقرين إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية وإلى دفع المضار الدينية والدنيوية ، فاقترض حكمته وسنته التى لا تبدل أن هذه المنافع المتنوعة وخصوصاً الأمور العظام لا تحصل إلا بالسعى بأسبابها الموصلة اليها ، وكذلك المضار لا تندفع إلا بالسعى بالأسباب التى تدفعها ، وقد بين فى كتابه غاية التبیین هذه الاسباب وأرشد العباد اليها فمن سلكها فاز بالمطلوب ونجا من كل مرهوب .

فأصل الأسباب كلها الايمان والعمل الصالح ، جعل الله خيرات الدنيا والآخرة وحصولها بحسب قيام العبد بهذين الأمرين ، وقد ذكر الله في القرآن من هذا شيئاً كثيراً جداً ، وقد تقدم في هذا الكتاب شيء من ذلك عند ذكر فوائد الايمان .

وجعل الله القيام بالعبودية والتوكل سبباً لكفاية الله للعبد جميع مطالبه ، شاهدته قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، أليس الله بكاف عبده) أى من يقوم بعبوديته ظاهراً وباطناً وجعل الله التقوى والسعى والحركة سبباً للرزق ، شاهدته قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقوله (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)

وجعل الله التقوى والايمان وقاية من كثرة دعوة ذى النون سبباً للخروج من كل كرب وضيق وشدة ، شاهدته الآية السابقة ، وكذلك قوله (وإذا النون إذهب مغاضاً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك تنجى المؤمنين)

وجعل الله الدعاء والطمع فى فضله سبباً لحصول جميع المطالب ، دليله قوله تعالى (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) وقوله (وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين) وجعل الله الاحسان فى عبادة الخالق والاحسان إلى الخلق سبباً يدرك به فضله وإحسانه العاجل والآجل ، شاهدته الآية السابقة (إن رحمة الله قريب من المحسنين) وقوله (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان - وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) ومن أحبه الله نال جميع ما يطلب .

وجعل الله التوبة والاستغفار والايمان والحسنات والمصائب مع الصبر عليها أسباباً لحصول الغفران والخطايا ، شاهدته قوله تعالى (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى - إن الحسنات يذهبن السيئات - إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)

وجعل الله الصبر سبباً وآلة تدرك بها الخيرات ويستدفع بها الكريهات ، شاهدته الآية السابقة وقوله (واستعينوا بالصبر والصلاة) أى على جميع أموركم . ولما ذكر الله ما وصل اليه أهل الجنة من كمال النعيم وزوال كل محذور ، ذكر أن هذا أثر صبرهم ، فقال (سلام عليكم بما صبرتم - أولئك يجزون الغرفة بما صبروا)

ومنه أنه جعل الصبر واليقين تنال بهما أعلى المقامات ، وهى الامامة فى الدين ، دليله قوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

وجعل الله مفتاح العلم حسن السؤال وحسن الانصات والتعلم والتقوى وحسن القصد ، شاهدته قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) وقوله (يا أيها الذين آمنوا إن

تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) أى نوراً وعلماً تفرقون به بين الحقائق كلها ، وقوله (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) الآية وجعل الله الاستعداد للاهداء بكل مستطاع من القوة ، وأخذ الحذر منهم سبباً لحصول النصر والسلامة من شرورهم ، شاهده قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)

وجعل الله اليسر يتبع العسر ، والفرج عند اشتداد الكرب ، شاهده قوله تعالى (إن مع العسر يسرا - سيجعل الله بعد عسر يسرا - أم من يجيب المضطر إذا دعاه) وجعل الله الشكر سبباً للمزيد منها ومن غيرها ، وكفران النعم سبباً لزوالها ، شاهده قوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)

وجعل الله الصبر والتقوى سبباً للعواقب الحميدة والمنازل الرفيعة ، شاهده قوله تعالى (والعاقبة للمتقين - إنه من يثق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)

وجعل الله الجهاد سبباً للنصر وحصول الأغراض المطلوبة من الأعداء والوفاية من شرورهم شاهده قوله تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم . ققاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين . عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا)

وجعل الله لمحبة التي هي أعلى ما ناله العباد أسباباً ، أهمها وأعظمها متابعة رسوله محمد ﷺ في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال ، قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ومن أسبابها ما ذكره بقوله (والله يحب الصابرين - يحب المحسنين - يحب المتقين - يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)

وجعل الله النظر إلى النعم والفضل الذي أعظمه العبد وغض النظر مما لم يعطه سبباً للقناعة شاهده قوله تعالى (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)

وجعل الله القيام بالعدل في الأمور كلها سبباً لإصلاح الأحوال ، وضده سبباً لفسادها واختلافها شاهده قوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)

وجعل الله كمال إخلاص العبد له سبباً يدفع به عنه المعاصي وأسبابها وأنواع الفتن ، شاهده قوله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)

وجعل الله قوة التوكل عليه مع الإيمان حصناً حصيناً يمنع العبد من تسلط الشيطان ؛ خصوصاً إذا انضم إلى ذلك الاكثار من ذكر الله والاستعاذة بالله من الشيطان ، شاهده قوله تعالى (إنه

ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (وقال (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) إلى آخرهما .

وجعل الله مفتاح الايمان واليقين التفكير في آيات الله المتلوة وآياته المشهودة والمقابلة بين الحق والباطل بحسن فهم وقوة بصيرة ، شاهده قوله تعالى (ككتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب) والامر بالتفكير بالخلقوات في عدة آيات ، وقوله (إن في ذلك لآيات للمؤمنين) فهي سبب للايمان ، والايمان موجب للانتفاع بها .

وجعل الله القيام بأمور الدين سبباً لتيسير الأمور ، وعدم القيام بها سبباً للتعسير ، شاهده قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

وجعل الله العلم النافع سبباً للرفعة في الدنيا والآخرة ، شاهده قوله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)

وجعل الله كون العبد طيباً في عقيدته وخلقه وعمله سبباً لدخول الجنة وللإشارة عند الموت شاهده قوله تعالى (طيبتم فادخلوها خالدين) وقوله (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين)

وجعل الله مقابلة المسيء بالاحسان ، وحسن الخلق سبباً ليكون به العدو صديقاً ، وتتمكن فيه صداقة الصديق ، دليله قوله تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم - فما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وبذلك تحصل الراحة للعبد وتيسر له كثير من أحواله

وجعل الله الاتفاق في محله سبباً للخلف العاجل والثواب الآجل ، شاهده قوله تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين)

وجعل الله لرزقه أبواباً وأسباباً متنوعة ، ففتح انفلق عن العبد باب منها فلا يحزن ، فان الله يفتح له غيره ، وقد يكون أقوى منه وأحسن ، وقد يكون مثله ودونه ، شاهده قوله تعالى (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) وقوله (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) الآية

وجعل الله التحرز والبعد عن الموبقات المهلكة والحذر من وسائلها طريقاً سهلاً هيناً لتركها شاهده قوله تعالى (تلك حدود الله) أي محارمه (فلا تقربوها) أي لا تفعلوها ولا تحوموا حولها فمن رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وإذا قيل مثل هذه الآية (تلك حدود الله فلا تقربوها) كان المراد بالحدود المحارم ، وأما إذا قيل (تلك حدود الله فلا تعتدوها) فهذه الحدود التي حددها الله للمباحات فعلى العبد أن لا يتجاوزها ، لأنه إذا تجاوز المباح وقع في المحرم ، فافهم الفرق بين الأمرين

وجعل الله السبب الوحيد القوي المثمر للثمرات الجليلة للدعوة إلى سبيله هو ما تضمنته هذه الآية (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن) فالحكمة وضع الدعوة في موضعها ، ودعاية كل أحد بحسب ما يليق بحاله ويناسبه ويكون أقرب لحصول المقصود منه (والموعظة الحسنة) البالغة في الحسن مبلغاً ، يصير لها من التأثير وسرعة الانقياد ما يناسب مقتضى الحال ، فالموعظة ببيان الأحكام مع ذكر ما يقتزن بها من الترغيب في ذكر مصالحها ومنافعها وخيراتها الحاملة عليها ، وذكر ما يقتزن بها من الترهيب على فاعل المحرمات أو تارك الواجبات من العقوبات والخسران والخسرات وحرمان الخير العاجل والآجل

(والمجادلة بالتى هي أحسن) بالعبارات الواضحة والبراهين البينة التى تحقق الحق وتبطل الباطل ، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشامة وقد علم الله مع ذلك أن الناس ثلاثة أقسام ؛ كل يدعى بالطريق التى تناسبه :

القسم الأول : المنقادون الملتزمون الراغبون في الخير ، الراهبون من الشر ، فهؤلاء لما عندهم من الاستعداد لفعل المأمورات وترك المنهيات والاشتياق إلى الاعتقاد الصحيح ، فقط يكتفى ببيان الأمور الدينية لهم والتعليم المحض

والقسم الثانى : الذين عندهم غفلة وإعراض واشتغال بأمور صادة عن الحق ، فهؤلاء مع هذا التعليم يدعون بالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ، لأن النفوس لا تلتفت إلى منافعها ، ولا تترك أضرارها الصادة لها عن الحق علماً وعملاً إلا مع البيان لها أن ترغب وترهب بذكر ما يترتب على الحق من المنافع وعلى الباطل من المضار ، والموازنة بين الأمور النافعة والضارة

والقسم الثالث : المعارضون أو المعاندون المكابرون المتصدون لمقاومة الحق ونصرة الباطل فهؤلاء لا بد أن يسلك معهم طريق المجادلة بالتى هي أحسن بحسب ما يليق بالمجادل والمجادل وبذلك المقالة وما يقتزن بها ، وإذا أردت تطبيق هذه الأمور الثلاثة تماماً فانظر إلى دعوات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم التى حكاه الله فى كتابه مع أهمهم المستجيبين ، والمعرضين والمعارضين ؛ تجدها محتوية على غاية الحسن فى كل أحوالها

ثم انظر إلى دعوة سيدهم وإمامهم محمد ﷺ وما سلك من الطرق المتنوعة فى دعاية الخلق عموماً وخصوصاً على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وبحسب أحوالهم ، وبحسب الأقوال والأحكام التى يدعو إليها ، تجده قد فاق فى ذلك الأولين والآخرين ، والآثار أكبر دليل على قوة المؤثر

وجعل الله السبب لفصل الخصام المرضى للتشاجرين المنصفين فى جميع المقالات ، الذى هو خير فى الحال وأحسن فى المآل ؛ ردها إلى كتاب الله وسنة رسوله ؛ شاهده قوله تعالى (فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن

تأويلاً) وجعل الله صلة ما أمر به أن يوصل من البر وصلة الأرحام والقيام بحق من له حق عليك سبباً تنال به مكارم الأخلاق ويتبوء به المنازل العالية في جنات النعيم ، شاهده قوله تعالى (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب - إلى - جنات عدن يدخلونها) وجعل الله السوابق الحميدة للعبد وتعرفه لربه في حال الرخاء سبباً للنجاة من الشدائد وحصول أعظم الفوائد ، شاهده قوله تعالى (فلو لا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) وقول أهل الجنة فيها (إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فنّ الله علينا ووقنا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم)

وجعل الله لشرح الصدر ونعيمه وطأً تينقه أسباباً متعددة : اليقين والایمان والاكثر من ذكر الله وقوة الانابة اليه ، والقناعة بما اعطى من الرزق ، وحصول العلم النافع ، وترك الذنوب والمبادرة بالتوبة مما وقع منها ، وشواهد هذا كثيرة ، منها قوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب - أفنّ شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - إن الأبرار لفي نعيم) وشمول هذا النعيم لنعيم القلوب في الدنيا ظاهر . من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنجيئنه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون - كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون .

وجعل الله ضرب الأمثال في كتابه طريقاً عظيماً من طرق التعليم الذي تدين وتوضح به المطالب العالية والعقائد الصحيحة والفاسدة ، كما مثل كلمة التوحيد والعقيدة الحقّة الصحيحة (شجرة طيبة أصلها ثابت) في قلب المؤمن (وفرعها) من الأعمال والأخلاق (في السماء تؤتى أكلها) أي منافعها (كل حين باذن ربها) ومثل ضد ذلك بالشجرة الخبيثة التي لا لها أصل ثابت ولا فرع نافع . ومثل المشرك بربه كالعبد الذي يتنازعه شركاء متشاكسون ، والموحد المخلص لله السالم من تعلقه بغيره .

وكذلك مثل الشرك والمشرك واتخاذ ولياً من دون الله يعزز به وينقصر (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) ومثل وحيه بمنزلة الغيث النافع . وقلوب الخلق بمنزلة الأراضي الطيبة القابلة والخبيثة ، وبين ذلك ، وهي أمثلة محسوسة يوضح الله بها المطالب النافعة ، وهو يقسم تعالى على أصول الدين التي يجب على الخلق الايمان بها : كالتوحيد والرسالة والمعاد وما يتفرع عنها ، وضرب الأمثال من تصريف الله الآيات لعباده بأعلى أساليب الكلام المؤثرة الموضحة للحقائق ، فتأمل أقسامات القرآن تجدها كذلك ، ولذلك حث الله عليها ومدح من يتفكر فيها ويعقلها ، فقال (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وفي الآية الأخرى (وما يعقلها إلا العالمون)

﴿ فصل في ذكر حدود ألفاظ أكثر مرورها في القرآن ﴾

﴿ أمراً بها أو نهياً عنها أو مدحاً لها أو ذمّاً لها ﴾

فإن الله تعالى أثنى على من عرف حدود ما أنزل على رسوله وذر من جهلها ؛ وهذه ألفاظ جليلة يتعين على طالب العلم معرفة حدودها ، ليعرف ما يدخل فيها وما يخرج منها ؛ وتتفق الألفاظ المأمور بها في كثير من الأمور ، وقد يكون بينها فروق ، وكذلك المنهيات ، وهذا من إحكام القرآن ، وأنه يصدق بعضه بعضاً (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)

الاسلام والايمان : أما الاسلام فهو استسلام القلب لله وإتباعه ، والقيام بالشرائع الظاهرة والباطنة ، وأما الايمان فهو التصديق التام والاعتراف بأصوله التي أمر الله بالايمان بها ، ولا يتم ذلك إلا بالقيام بأعمال القلوب وأعمال الجوارح ، ولهذا سمي الله كثيراً من الشرائع الظاهرة والباطنة إيماناً ، وبعض الآيات يذكر أنها من لوازم الايمان فعلى هذا : الايمان عند الاطلاق يدخل فيه الاسلام ، وكذلك بالعكس ؛ وإذا جمع بين الايمان والاسلام ، فسر الايمان بما في القلب من التصديق والاعتراف وما يتبع ذلك ، وفسر الاسلام بالقيام بعبودية الله كلها ، الظاهرة والباطنة الاحسان : قسمان . احسان في عبادة الخالق ، وهو بذل الجهد في إكمالها وإتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة . وإحسان إلى المخلوقين بإيصال جميع ما يستطيعه العبد من نفع علمي وبدني ومالي لخلق ونصيحة دينية أو دنيوية ومساعدة وحض على الخير ؛ ولهذا كان المحسنون يتفاوتون تفاوتاً عظيماً بحسب قيامهم بالاحسان المتنوع إلى الخلق ، برّهم وطجرهم ، حتى الحيوان البهيم ، كما قال ﷺ « إن الله كتب الاحسان على كل شيء » الحديث .

الهدى والهداية : نوعان . هداية العلم والارشاد والتعليم ، وهداية العوفيق وجعل الهدى في القلب ، وهذان يطلبان من الله تعالى ، إما على وجه الاطلاق كقول العبد : اللهم اهدني ، أو اللهم إني أسألك الهدى ، وإما على وجه التقييم بطريقها النافع ، كقول المصلي : اهدنا الصراط المستقيم ومن حصلت له الهداية سمي مهتدياً ، وأعظم ما تحصل به الهداية القرآن ، ولهذا سماه الله هدى مطلقاً ، وقال (هدى للمتقين) وقال (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) ويشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية النافعة .

العلم واليقين : فالعلم هو تصور المعلومات على ما هي عليه ، ولهذا يقال : العلم ما قام عليه الدليل والعلم النافع ما كان مأخوذاً عن الرسول ، واليقين أخص من العلم بأمرين . أحدهما : أنه العلم الراسخ القوي الذي ليس عرضة للريب والشك والموانع ، ويكون علم يقين إذا ثبت بالخبر ، وعين يقين إذا شاهدته العين والبصر ، ولهذا يقال ليس الخبر كالمعاينة ، وحق يقين إذا ذاقه العبد وتحقق به .

الأمر الثاني : أن اليقين هو العلم الذى يحمل صاحبه على الطمأنينة بخبر الله ، والطمأنينة بذكر الله ، والصبر على المكروه ، والقوة فى أمر الله ؛ والشجاعة القولية والفعلية ، والاستحلاء للطاعات وأن يهون على العبد فى ذات الله المشقات وتحمل الكريهات ، فهذه الآثار الجميلة التى هى أعلى وأحلى من كل شيء من آثار اليقين .

الصبر : حبس النفس على المشقات طلباً لرضا الله ، وينقسم إلى ثلاثة أقسام : صبر على طاعة الله ، وخصوصاً الطاعات الشاقة ، حتى يؤذيها على وجه الكمال ، وصبر عن معصية الله ، خصوصاً المعصية التى تدعو النفس إليها دعاءً قوياً ، حتى يجاهد نفسه فيتركها لله ، وصبر على أقدار الله المؤلمة ، خصوصاً إذا عظمت المصيبة ، حتى لا يتسخطها ، وربما وصلت به الحال إلى الرضا عن الله الشكر لله : هو الاعتراف بنعم الله الظاهرة والباطنة ، العامة والخاصة ، والتحدث بها ، والاستعانة بها على طاعة المنعم دون معصيته ، ولا بد أن يقترن هذا بالخضوع للمنعم ومحبته ، فهذه الأركان الخمسة يكون الشكر تاماً :

البر والتقوى لله : إذا أطلق أحدهما دخل فيه الآخر ، فانه اسم جامع للقيام بكل ما يحبه الله ورسوله ظاهراً وباطناً ، وترك ما يكرهه الله ورسوله ظاهراً وباطناً ، وإذا جمع بينهما نحو (وتعاونوا على البر والتقوى) فسر البر بالقيام بعقائد الإيمان وأخلاقه ، وأعمال البر كلها القاصرة والمتعدية وفسرت التقوى بإتقاء ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان .

الصدق والكذب : الصدق هو استواء الظاهر والباطن على الاستقامة على الصراط المستقيم فالصدق فى العقائد أن تكون عقيدة العبد صادقة سلفية متعلقة عن كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم ، والصدق فى الأخلاق أن يكون القلب ملائماً من الإيمان والأخلاص والرغبة والنصيحة لعباد الله ومحبة الخير لهم ، والصدق فى الأقوال أن يكون قائله للصدق مصداقاً به ، والصدق فى الأعمال الاجتهاد فى تكميلها واتقانها ، والكذب ما ناقض ذلك كله ، ولذلك كان الصدق والكذب مراتب ، ولا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً

العدل والظلم : العدل هو سلوك الطريق المستقيم المعتدل فى العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال كما يقال فى الصدق ، والظلم ما ناقض ذلك ، ولهذا انقسم الظلم إلى ثلاثة أقسام كلها منافية للعدل - الظلم فى التوحيد بالإشراك بالله ؛ قال تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) وظلم الخلق فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم . وظلم العبد نفسه فيما دون الشرك ، ولا يتم للعدل الكامل حتى يدع جميع هذه الأقسام ، ويتوب إلى ربه مما وقع منه ، ويخرج من حق العباد إليهم ، ولهذا كان القيام بالدين كله من العدل والقسط .

« العبادۃ والعبودية لله » اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح ، فكل ما يقرب إلى الله من الأفعال والتروك فهو عبادة ، ولهذا كان تارك المعصية لله متعبداً مقرباً إلى ربه بذلك ، ولا تتم العبادة إلا بالاخلاص « الاخلاص لله وحده » بأن يقصد العبد وجه الله ورضاه وثوابه في أعماله الظاهرة والباطنة ، وضده العمل للرياء والسمة ولأجل عرض الدنيا وميزان هذا قوله تعالى عن خيار الخلق (يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً) وقوله ﷺ : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه .

وجميع الأعمال على هذا النمط ، وقديراد بالمهجرة هنا الهجرة العامة التي قال فيها النبي ﷺ : والمهاجر من هجر ما نهى الله ورسوله عنه « الخوف والخشية والخضوع والاختبات والوجل » معانيها متقاربة فالخوف يمنع العبد عن محارم الله ، وتشاركه الخشية في ذلك وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله . وأما الخضوع والاختبات والوجل : فانها تنشأ عن الخوف والخشية لله فيخضع العبد لله ويخبت إلى ربه منيباً إليه بقلبه ويحدث له الوجل ، وأما الخشوع فهو حضور القلب وقت تلبسه بطاعة الله وسكون ظاهره وباطنه ، فهذا خشوع خاص . وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خواص المؤمنين فينشأ من كمال معرفة العبد بربه ومراقبته فيستولى ذلك على القلب كما تستولى المحبة « القنوت » ورد في القرآن على أحد معنيين معنى خاص بمعنى الخشوع ، ومعنى عام وهو قنوت المخلوقات كلها لخلق الله وتدبيره وتصريفه « الذكر لله » الذي ورد في القرآن الأمر به والثناء على أهله ، وما رتب عليه من الجزاء يطلق على جميع الطاعات الظاهرة والباطنة ، القولية والفعلية ، فكما تصوره القلب أو أراحه أو فعله العبد أو تكلم به مما يقرب إلى الله فهو ذكر لله ، والله تعالى شرع العبادات كلها لإقامة ذكره ، فهي ذكر لله ويطلق على ذكر الله باللسان بذكر أوصافه وأفعاله والثناء عليه بفعله وتسبيحه وتكبيره وتحميده والتهليل والصلاة على النبي ﷺ . ومن ذكره ذكر أحكامه تعلمها وتعليمها ، ولهذا مجالس التعلم والتعليم يقال لها مجالس الذكر ، وأفضل أنواع الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان « حدود الله » يراد بها ما حرمه ومنعه عباده ، فيقال فيها (تلك حدود الله فلا تقربوها) ويراد بها ما أباحه وأحل له لعباده وقدره وفرضه ، فيقال فيها (تلك حدود الله فلا تعتدوها) أي لا تتجاوزوا ما أحل الله إلى ما حرم الله ، ولا تتجاوزوا ما قدره الله للعباد إلى ما يخالف تقديره « الأمانة » هي الأمور التي يؤتمن عليها العبد فيشمل الأمانة التي بينه وبين الله ، فانه ائتمن عبده على إقامة الواجبات وترك المحرمات ، فالتعميم بذلك أداء للأمانة ومراعاة لها ، وترك بعض الواجبات وخصوصاً السرية التي لا يطلع عليها إلا الله أو العجىء على بعض المحرمات ترك للأمانة واتضاف بالخيانة ، ويشمل أيضاً الأمانات التي بينك وبين الخلق في الدماء والأموال والحقوق

فمن قام بها فقد أدعى الأمانة وحفظها ، ومن تعدى فيها أو فرط أو خان فقد تجرأ على الخيانة « العهد والعقد » يشمل العهود والعقود التي بين العبد وبين ربه ، فإن الله عقد بينه وبين المكلفين عقداً وعاهدتهم عهداً بأنامة ما خلقوا له من عبادته والقيام بحقوقه ، فاقامة ذلك وفاء لهذا العقد والعهد وإهماله نقض للعهد والعقد والثقة وكذلك العهود والعقود التي بينه وبين الخلق بتعين الوفاء بها ، ويشمل ذلك عقود المعاملات كلها من دون استثناء « الشجاعة والجلل والتهور » أثنى الله في كتابه على الشجاعة ومدح أهلها وأمر بها ، وضم الجبن والتهور ، فالشجاعة قوة القلب وثباته وإقدامه على الأقوال والأفعال في موضع الإقدام بحكمة وحسنة ، فإن أقدم عليها في حال لا يحل له الإقدام قيل لذلك تهور وجراءة وحق وإلقاء بالنفس إلى التهلكة ، وأما الجبن فهو ضد الشجاعة ضعف القلب وخوره ، ويتبع ذلك خور الأعمال والخوف مما لا يخاف وهيبة من لا يهاب ، فالشجاعة خلق فاضل جليل بين خلقين ذميين رذيلين ، بين التهور الذي هو غلو وزيادة عن الحد ، وبين الجبن الذي هو تقريط وتقصير وضعف وخور ، ونظير ذلك (القوام والبخل والتبذير) في تصريف الأموال بندها فيما ينبغي من واجب ومستحب ونافع على الوجه الذي ينبغي ، يقال لذلك قوام واعتدال وتوسط واقتصاد ، فإن منع الواجبات فهو البخل وصاحبه بخيل ، وإن أسرف وزاد في النقطة عما ينبغي قيل لذلك إسراف وتبذير ، قال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) « الاستقامة » هي لزوم الصراط المستقيم بأن يستقيم العبد على الإيمان بالله وأداء فرائضه وترك محارمه مداوماً لذلك تائباً مما أخل به من حقوقها ، ولهذا قال (فاستقيموا إليه واستغفروه) أى مما وقع منكم من الخلل في الاستقامة (التوبة والاستغفار) أما التوبة فهي الرجوع إلى الله مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً ندماً على ما مضى وتركاً في الحال وعزماً على أن لا يعود ، والاستغفار طلب المغفرة من الله ، فإن اقترن به توبة فهو الاستغفار الكامل الذي رنبت عليه المغفرة ، وإن لم تقترن به التوبة فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له ، فقد يجاب دعاؤه وقد لا يجاب ، وهو بنفسه عبادة من العبادات ، فهو دعاء عبادة ودعاء مسألة (التوكل على الله والاستعانة به) بمعنى واحد هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار الدينية والدينية الخاصة والعامة مع الثقة بالله في ذلك المطلوب (المحبة لله والانابة إلى الله) هي قوة الود لله لسكّاله ونعمه الظاهرة والباطنة ، وانجذاب القلب إلى الله تألهاً ورغبة ورهبة في كل المطالب وطأة نينة القلب بذكره والاهج بدعائه والرجوع إليه في الأمور الدينية والدينية الجليلة والخيرة فمن كان قلبه منيباً إلى الله فهو محب لله ، والمنيب هو الأوّاه الرجاع إلى الله الأوّاب إليه (المعروف والمنكر) متقابلان ، فالمعروف اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً ، والمنكر ضده (الخبيث والطوبى) متقابلان ، فالطيب ما كان طيب الصفات كثير المنافع ، والخبيث بالعكس

(حسن الخلق وسوء الخلق) يكون مع الله ومع خلقه ، فحسن الخلق مع الله القيام بمعبوديته ظاهراً وباطناً مع قوة محبته والطأ نينة اليه والهج بذكره وقوة الثقة به ، ومع الخلق بذل الاحسان لهم ومنع الأذى لهم واحتمال الأذى منهم ، وسوء الخلق بعكس ذلك كله (الشرك والكفر) الكفر أعيم من الشرك ، فمن جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه بلا تأويل فهو الكافر من أى دين يكون ، سواء كان صاحبه معانداً أو جاهلاً ضالاً ، والشرك نوعان : شرك فى ربوبيته كشرك الثنوية الذين يثبتون خالقاً مع الله ، وشرك فى ألوهيته كشرك سائر المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون غيره ، ويشركون بينه وبين المخلوقين ؛ ويسوونهم فى الله فى شىء من خصائص إلهيته . وقد يكون هذا الشرك أكبر جلياً ، كأن يصرف العبد نوعاً من أنواع العبادة لغير الله ، وقد يكون أصغر . كوسائل الشرك من الرياء والحلف بغير الله ونحو ذلك (النفاق) هو أن يظهر الخير ويبطن الشر . وهو نوعان : نفاق أكبر ، كأن يظهر الايمان بالله ورسوله وقلبه منطو على الكفر ونفاق أصغر ، كالكذب وإخلاف المواعيد والفجور فى الخصومة (الكبر والتواضع) فسر النبي ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغط الناس ، يعنى وضده التواضع للحق قبوله حيث كان ومع من كان ولين الجانب والتواضع للخلق .

فهذه الحدود ينبغى أن تعتبرها فى كل ما يمر عليك من فصوص الكتاب والسنة لتتهدى إلى معرفة ما يدخل فى الأمور التى حكم الله عليها بالأحكام المتنوعة ، وما لا يدخل فيحصل لك الفرقان والرشاد والبيان ، ففسأل الله أن يهدينا إلى الصراط المستقيم ، وهو العلم بالحق والعمل به وبجنبنا الطرق المخالفة لذلك .

وقد يسر الله تشييم هذا التعليق المبارك فى ثالث شوال من شهور سنة ثمان وستين بدو الثلاثمائة والألف من الهجرة النبوية ، فكان على اختصاره وإيجازه ووضوحه فيه معونة عظيمة على فهم كلام رب العالمين ، وان كلام الله كفيلى ببيان كل شىء ينتفع به العباد فى معاشهم ومعادهم وارشادهم إلى كل ما فيه مصالحهم المتنوعة ومنافعهم المتعددة ، وأنه يتعذر الصلاح والاصلاح للأحوال كلها إلا بساوك الطرق التى أرشد إليها هذا القرآن فى أصول الدين وفروعه ، وفى الاخلاق والآداب ، وفى الأمور الداخلية والخارجية ، والحمد لله الذى جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً ، والحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين . بخط الفقير إلى الله من كافة الوجوه عبدالرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدى غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين ، ووقع الفراغ من نقله من خط المؤلف فى سابع من الشهر المذكور والسنة المذكورة بقلم الفقير إلى ربه محمد السليمان العبد العزيز البسام ، غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين

(فهرس كتاب خلاصة التفسير)

٦	ذكر أوصاف القرآن العامة	٨٩	فصل في الايلاء والظهار واللعان
٨	علوم التوحيد والعقائد والاصول	٩٠	فصل في آيات الحدود
٩	بيان ما تشتمل عليه الفاتحة	٩٣	» في الأيمان ونحوها
١٣	آية الكرسي وبيان الشفاعة ولمن هي	٩٤	» في الاطعمة والصيد
١٥	الطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله	٩٦	» في الاحكام الشرعية والبينة
١٩	آيات كونية تدل على وحدانية الله	١٠١	قصص الانبياء وما فيه من العبر
٢١	منة الله على الناس ببعثة محمد ﷺ	١٠٢	تفصيل قصة آدم
٢٣	دحض شبهات الكفار على الرسول	١٠٧	قصة نوح وما يستفاد منها
٢٦	وجوب الايمان بالآخرة ووصف ما فيها	١١٢	» هود وما فيها من الفوائد
٢٩	وجوب الايمان بالملائكة والرد على منكريهم	١١٤	» صالح وما يؤخذ منها
٣٤	تفسير آيات في حقوق الله وحقوق الناس	١١٦	» ابراهيم الخليل
٤٢	خذ العفو وامن بالعرف الخ	١٢٦	» شعيب وما فيها
٤٣	الامر بالصلاة وتفسير إقامتها	١٢٩	» موسى
٤٦	الزكاة وما في إخراجها من الفوائد وأهلها	١٣٣	الرد على منكري الكرامات
٤٩	فصل في الطهارة بالماء والتيمم	١٣٦	أسباب حصول المغفرة
٥٢	فصل في صلاة الجمعة	١٣٧	قصة يونس
٥٤	بيان صلاة السفر والخوف	١٣٨	» داود وسليمان
٥٥	فصل في وجوب الصيام وفوائده	١٤٥	» أيوب — قصة الخضر
٥٧	قربه تعالى واستجابته لدعاء الداعي	١٤٩	» ذو القرنين
٥٩	وجوب الحج وتوابعه	١٥١	» عيسى وأمه وزكريا
٦٥	فصل في الجهاد وتوابعه	١٥٤	» يوسف ويعقوب
٧٠	فصل في البيوع وأنواع المعاملات	١٦٣	» أصحاب الكهف
٧١	فساد الربا والميسر والغرر	١٦٤	سيرة خاتم النبيين ومعاملته للكاذبين
٧٢	آية كتابة الديون وما فيها من الفوائد	١٧٠	غزوات الرسول وتواريخها وتفصيلاتها
٧٥	أحكام الموارث	١٧٢	كمال القرآن وأسلوبه وتأثيره
٧٧	فصول في النكاح وتوابعه	١٧٣	تفسير كلمات جاءت في القرآن لعدة معان
٨٢	طبقات النساء وتأديب المعوجة		الامه . السلطان ، اللسان ، استوى
٨٣	إرسال الحكمين من الاهل عند النزاع		التأويل ، المعية
٨٦	أحكام الطلاق	١٩٣	الاسباب الموصلة الى المطالب العاليه
٨٧	اختلاف عدة المرأة باختلاف الاحوال	١٩٧	الدعوة الى الله وأقسام الناس عندها
		١٩٩	تحديد ألفاظ كثر مرورها بالقرآن



Princeton University Library



32101 057498832

(RECAP)

BP130

.2

.xS3